قبسات من
نور النبوة

تأليف الدكتور
أيمن محمود مهدى
أستاذ الحديث وعلومه المساعد
ورئيس قسم الحديث وعلومه
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية
بطنطا

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

طريق النجاة من النار

قال الإمام مسلم رحمه الله : حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا موسى بن طلحة قال : حدثني أبو أيوب أن أعرابياً عـرض لرسـول الله ﷺ وهـو في سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال : يـا رسول الله أو يا محمد أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار قال : فكف النبي ﷺ ثم نظر في أصحابه ثم قال : " لقد وفق أو لقد هدى " قال : " كيف قلت " قال : فأعاد فقال النبي : " تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم دع الناقة " .

أولاً : تخـريج الحديث :

(أ) البـخاري كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة ٣ / ٣٠٧ رقم ١٣٩٦ وفي كتاب الأدب باب فضل صلة الرحم ١٠ / ٤٢٨ رقم ٥٩٨٢ ، ٥٩٨٣ .

(ب) مسـلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة ١ / ٤٢ .

(ج) النسائي كتاب الصلاة باب ثواب من أقام الصلاة ١ / ٢٣٤ .

(د) أحمد في المسند ١٧ / ٣٢ رقم ٢٣٤٤٠ .

ثانياً : إسناد الحديث

شيخ الإمام مسلم في هذا الحديث هو :

محمـد بن عبد الله بن نمير الهمداني الخارقي أبو عبد الرحمن الكوفي الحافظ ثقة حافظ فاضل ، روى له الجماعة توفي سنة أربع وثلاثين ومائتين .

وأبــوه هــو : عــبد الله بن نمير الهمداني الخارفي أبو هشام الكوفي ثقة حجة صاحب حديث روى له الجماعة . توفي سنة تسع وتسعين ومائة .

وشــيخه هو : عمرو بن عثمان بن عبد الله بن موهب التيمي أبو سعيد الكوفي ثقة روى له الشيخان والنسائي . وهو من الطبقة السادسة الذين عاصروا صغار التابعين ولم تعرف سنة وفاته .

وشيخه هو : موسى بن طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي أبو عيسى المدني ثقة جليل من كبار التابعين روى له الجماعة توفي سنة مائة وثلاثة .

والصحابي راوي الحديث هو :

السـيد الكبـير والصـحابي الجلـيل خالد بن زيد بن كليب أبو أيوب الأنصـاري الخزرجـي البدري معروف باسمه وكنيته . أسلم قديماً وشهد بيعة العقـبة الثانـية ولمـا هاجر النبي ﷺ إلى المدينة نزل عنده في بيته فأبدى من صـنوف الحـب والإجلال للرسول ﷺ أشياء كثيرة ولحقته بركته فعاش حميداً سعيداً آخى النبي ﷺ بينه وبين مصعب بن عمير .

قال أبو أيوب : نزل رسول الله ﷺ في بيتنا الأسفل وكنت في الغرفة فأهريق ماء في الغرفة فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا نتتبع الماء ونزلت فقلت : يا رسول الله لا ينبغي أن نكون فوقك انتقل إلى الغرفة فأمر بمتاعه فنقل ومتاعه قليل (١) .

وكـان أبـو أيـوب يتتـبع أثر أصابع النبي ﷺ في الطعام تبركاً به ، فـأهدى للنبي ﷺ مرة طعاماً فلم ير أبو أيوب لأصابعه أثراً فقال له أبو أيوب : يا رسول الله كنت ترسل إليّ بالطعام فأنظر فأضع أصابعي حيث أرى أثــر

---

(١) أحمد في مسنده (١٧ / ٣٨) رقم (٢٣٤٦٠) ، الطبراني في المعجم الكبير (٤ / ١٢٦) والحاكم في المستدرك (٣ / ٤٦٠ ، ٤٦١) وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي .

أصـــابعك حتى كان هذا الطعام فقال النبي : ﷺ : أجل إن فيه بصلاً فكرهت أن آكل من أجل الملك أما أنتم فكلوا (١) .

وكـــان يحـــب النبي ﷺ حباً شديداً ويخشى عليه وعلى أهله السوء حتى إن رســـول الله لمـــا بنى بصفية بنت حيي بن أحطب بات أبو أيوب على باب النبي فلما أصبح ورأى رسول الله ﷺ كبر ومعه السيف بيده فقال : يا رسول الله كانـــت جاريـــة حديثة عهد بعرس وكنت قتلت أباها وأخاها وزوجها فلم آمنها عليك فضحك النبي ﷺ وقال له خيراً (٢) .

ولما رُميت السيدة عائشة رضي الله عنها بالسوء وتكلم فيها المنافقون ، قالت له زوجه أم أيوب : أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلى وذلك الكذب أفأكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ؟ قالت : لا والله . قال : فعائشة والله خير منـــك ، فلما نزل القرآن وذكر أهل الإفك قال الله ﷻ : **﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ﴾** (٣) .

يعنـــي أبـــا أيـــوب حين قال ما قال لأم أيوب (٤) وكان شديد الاتباع لرســـول الله حريصـــاً على الاقتداء به يقول الحق لا يخشى في الله لومة لائم ، فحيـــنما كـــان مروان بن الحكم أميراً على المدينة كان أبو أيوب يخالفه فقال له مروان : ما يحملك على هذا ؟ قال : إني رأيت رسول الله ﷺ يصلي الصلوات فإن وافقته وافقناك وإن خالفته خالفناك (٥) .

---

(١) التخريج السابق وابن أبي شيبة في مصنفه (٥ / ١٣٧) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢ / ٤٠٨) .

(٣) سورة النور (١٢) .

(٤) تاريخ الطبري (٢ / ١١٤) ، تهذيب الكمال (٨ / ٦٩) تفسير ابن كثير (٣ / ٢٧٤) .

(٥) الطبراني في المعجم الكبير (٤ / ١٥٦) رقم (٣٩٩٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢ / ٦٨) وقال : رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات .

روى أبـو أيوب الحديث عن النبي وعن أبي بن كعب وجملة ما له من الحديث عند بقي بن مخلد في مسنده مائة وخمسة وخمسون حديثاً اتفق البخاري ومسلم على سبعة منها وانفرد البخاري بحديث واحد ومسلم بخمسة أحاديث .

وروى عنه الحديث جماعة من الصحابة منهم : البراء بن عازب وأنس ابـن مالك وعبد الله بن عباس وجابر بن سمرة وأبو أمامة الباهلي والمقدام بن معد يكرب وزيد بن خالد وغيرهم من الصحابة .

وروى عـنه الحديـث من مشاهير التابعين : سعيد بن المسيب والربيع ابـن خثـيم وسـالم بن عبد الله وعروة بن الزبير وأبو سلمة بن عبد الرحمن وجبـير بـن نفـير وعطـاء بن يزيد وعبد الرحمن بن أبي ليلى وجماعة من التابعين .

رزق أبـو أيوب الجهاد في سبيل الله ، فمنذ شهد بدراً مع رسول الله ﷺ لم يتخلف عن غزاة بعدها إلا مرة واحدة حينما استعمل على إمارة الجيش شاب فتخلف أبو أيوب ثم جعل يتلهف ويقول : ما عليّ من استعمل عليّ [١] .

وكـان يقول : قال الله تعالى ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ [٢] ولا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً [٣] .

وفـي إحدى معاركه مع جيوش المسلمين وكان متقدماً في السن مرض فعاده قائد الجيش يزيد بن معاوية وقال له : ما حاجتك ؟ فقال : نعم إذا أنا مت

---

[١] الطبقات الكبرى لابن سعد (٣ / ٤٧٠) سير أعلام النبلاء (٢ / ٤٠٤) .

[٢] سورة التوبة (٤١) .

[٣] المستدرك للحاكم (٣ / ٥١٨) رقم (٥٩٢٧) ، وتفسير الطبري (١٣٩) ، الاستيعاب لابن عبد البر (٤ / ١٦٠٧) .

فاركــب بــي ومــا وجــدت مساغاً في أرض العدو فإذا لم تجد مساغاً فادفني ثم ارجع ، فلما مات ركب به ثم سار به ثم دفنه [١] .

وروي أنــه أوصــى عـند موته فقال : إذا مت فاحملوني فإذا صاففتم العــدو فارموني تحت أقدامكم [٢] فدفن تحت حصن القسطنطينية ، ولذلك كان الجــيش الــذي فــتح القســطنطينية مــع محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م يهتف في المعركة : لبيك أبا أيوب .

توفــي أبو أيوب الأنصاري سنة اثنتين وخمسين وصلى عليه يزيد بن معاوية أمير جيش المسلمين .

---

[١] طبقات ابن سعد (٣ / ٤٧٠) ، سير أعلام النبلاء (٢ / ٤٠٤) .

[٢] المعجم الكبير للطبراني (٤ / ١١٨ ، ١٧٠) ، مصنف ابن أبي شيبة (٤ / ١٥) مسند الحارث (١ / ١٥١) ، طبقات ابن سعد (٣ / ٤٧٠) .

ثالثاً : ملاحظات على الإسناد

[١] اتحدت صيغة الرواية في هذا الإسناد بين كل راو وشيخه وهي صيغة التحديث وهي تفيد أعلى درجات الاتصال ، فهذا السند مسلسل بالتحديث .

[٢] نقل كل راو عن شيخه الحديث بصيغة حدثنا وهذا يدل على أنه سمعه منه في جماعة من الناس . وقال موسى بن طلحة : حدثني أبو أيوب بصيغة الإفراد فيحتمل أن يكون سمع منه الحديث وحده .

[٣] روى محمد بن عبد الله بن نمير هذا الحديث عن أبيه وهذا من لطائف الإسناد لأنه من رواية الأبناء عن الآباء .

[٤] روى شعبة هذا الحديث عن عمرو بن عثمان وكان شعبة يخطئ في تسمية محمداً ولذلك قال أحمد بن حنبل : كان غلط شعبة في الأسماء [١] . وكان تلاميذ شعبة إذا رووا عنه هذا الحديث أبهموا اسم شيخه غالباً ففي رواية البخاري من طريق حفص بن عمر قال : حدثنا شعبة عن ابن عثمان ابن عبد الله بن موهب [٢]

وفي رواية أخرى له من طريق أبي الوليد قال : حدثنا شعبة قال : أخبرني ابن عثمان [٣] .

ومن طريق بهز قال : حدثنا شعبة حدثنا ابن عثمان [٤] .

---

[١] سير أعلام النبلاء (٧ / ٢١٥) .

[٢] كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة (٣ / ٣٠٧) رقم (١٣٩٦) .

[٣] كتاب الأدب باب فضل صلة الرحم (١٠ / ٤٢٨) رقم (٥٩٨٢) .

[٤] التخريج السابق حديث رقم (٥٩٨٣) .

وقــد وقع الإبهام في اسم شيخ شعبة من الرواة عنه وذلك أن اسم شيخه على الصحيح عمرو كما صرح به عبد الله بن نمير في رواية مسلم وكان شعبة يخطــئ ويسميه محمداً فكان الحذاق من تلاميذ شعبة يبهمونه ولذلك حينما سماه بهــز فــي روايته عن شعبة محمداً في رواية مسلم قال البخاري وقد أشار إلى هذه الرواية أخشى أن يكون محمد غير محفوظ إنما هو عمرو (٥) .

رابعاً : لغويــات الحديث

أعرابــياً : الأعرابــي هو الذي يقيم بالبادية والأعراب هم : ساكنوا البادية من العــرب الذيــن لا يقيمون في الأمصار ولا يدخلونها إلا لحاجة ، ولذلك انتشر بينهم الجفاء وسوء الخلق .

عرض لرسول الله : أي اعترض طريقه ومنعه من السير .

ســفر : الســفر خلاف الحضر وهو مشتق من ذلك لما فيه من الذهاب والمجئ كمــا تذهــب الــريح بالسفير من الورق وتجئ والجمع أسفار . والسفر : قطع المسافة .

قــال الأزهــري : ســمى المسافر مسافراً لكشفه قناع الكِنِّ عن وجهه ومنازل الحضر عن مكانه ومنزل الخفض عن نفسه وبروزه إلى الأرض الفضاء .

وإنمــا سمي السفر سفراً : لأنه يسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم فيظهر ما كان خافياً منها .

بخطــام : الخطام هو : الزمام يقال : خطمت البعير ، أي : زممته . والخطام : كل حبل يعلق في حلق البعير ثم يعقد على أنفه سواء كان من جلد أو صوف

---

(٥) (٣٠٧/٣) .

أو ليف أو قنب ، وما جعلته لشفار بعيرك من حبل فهو خطام .
وجمعه الخطم – بضم الخاء والطاء – وقيل : الخطام هو الحبل يجعل في طرفه حلقة ثم يقلد البعير ثم يثنى على مخطمه . والخطام : كل ما وضع في أنف البعير ليقاد به .

وقال ابن الأثير : خطام البعير أن يأخذ حبلاً من ليف أو شعر أو كتان فيجعل في أحد طرفيه حلقة ثم يشد فيها الطرف الآخر حتى تصير كالحلقة ثم يقلد البعير ثم يثنى على مخطمه . وأما الذي يجعل في الأنف دقيقاً فهو الزمام .

ناقته : الناقة هي الأنثى من الإبل ويجمع على أَنْوُق وأَنْوُق وقد تجمع على نياق .

زمامها : الزمام هو الخيط الذي يجعل في الأنف ويقاد منه البعير وقد يسمى المقود زماماً ويجمع على أزِمَّة .

أخبرني : أي دلني وعرفني .

يقربني : يدنيني .

الجنة : الحديقة ذات الشجر والنخل ولا تطلق الجنة في كلام العرب إلا إذا كان فيها نخل وعنب فإن لم يكن فيها نخل وعنب وكانت ذات شجر فهي الحديقة وليست بجنة .
والجنة هي دار النعيم في الدار الآخرة .
وهي مأخوذة من الاجتنان وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها .
وسميت بالجنة وهي المرة الواحدة من مصدر جنّه جناً إذا ستره فكأنهما سترة واحدة لشدة التفافها وإظلالها وتجمع على جنان وجنات .

فكف : أي وقف وامتنع عن المسير وأصل الكف المنع .

هدى : الهدى هو الرشاد والمراد لقد هداه الله إلى الحق .

تعبد الله : أي تطيع الله وأصل العبادة : الطاعة والتذلل والخضوع والاستسلام يقال : طريق معبد إذا كان مذللاً للسالكين . والعابد هو الخاضع لربه المستسلم له المنقاد لأمره .

وتطلق العبادة في الشرع على : كمال الطاعة مع كمال الذل والخضوع مع كمال الحب لله تعالى .

ولا تشرك : أي لا تجعل لله شريكاً في الخلق أو العبادة ومن جعل لله شريكاً فهو مشرك والشرك هو الكفر لأن الله واحد أحد لا شريك له ولا ند ولا نظير .

شيئاً : نكرة وقعت في سياق النهي فتفيد العموم .

تقيم : يقال : قام الشئ أي : دام وثبت وليس المراد به القيام على الرجل وإنما هو مأخوذ من قولك : قام الحق أي : ظهر وثبت . وقيل : يقيمون أي : يديمون وإقامة أي : إدامة والمقصود بإقامة الصلاة : أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها في أوقاتها .

الصلاة : أصل الصلاة في كلام العرب الدعاء مأخوذ من صلى يصلي إذا دعا ثم استعملها الشرع في : القيام والركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة .

قال ابن جرير : أرى أن الصلاة سميت صلاة لأن المصلي يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربه من حاجاته . وقيل : هي مشتقة من الصلوين إذا تحركا في الصلاة عند الركوع والسجود وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتنفان عجب الذنب ومنه سمي المصلي وهو التالي

للسابق في حلبة الخيل وفيه نظر . وقيل : هي مشتقة من الصلي وهو الملازمة للشيء من قوله تعالى ﴿ لا يصلاها ﴾ [١] أي لا يلزمها ويدوم فيها " إلا الأشقى " . وقيل مشتقة من تصلية الخشب في النار لتقوم كما أن المصلى يقوم عوجه بالصلاة ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [٢] واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر والله أعلم [٣] .

وتؤتي : الإيتاء الإعطاء يقال آتيته بالمدأى أعطيته وأتيته بالقصر من غير مد أي جئته والمراد يعطون الزكاة ويدفعونها في مصارفها الشرعية .

الزكاة : الزكاة مأخوذة من زكا الشئ إذا نما وزاد .

يقال : زكا الزرع والمال يزكو إذا كثر وزاد ، ورجل زكي أي : زائد الخير وسمي الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة وبالأجر الذي يثاب به المزكي ويقال : زرع زاك بين الزكاة وزكأت الناقة بولدها تزكأ به : إذا رمت به من بين رجليها . وقيل : أصلها الثناء الجميل ومنه : زكى القاضي الشاهد فكأن من يخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل .

وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير كما يقال : زكا فلان أي : طهر من دنس الجرحة والإغفال فكأن الخارج من ماله يطهره من تبعة الحق الذي جعله الله فيه للمساكين .

والمراد هنا بالزكاة الفريضة المعروفة المقرونة دائماً بالصلاة والتي تعني إخراج قدر مخصوص من المال بشروط مخصوصة في المصارف

---

[١] سورة الليل (١٥) .

[٢] سورة العنكبوت (٤٥) .

[٣] راجع تفسير ابن كثير (١ / ٤٣) .

الثمانية المعروفة .

تصـــــل : الصلة ضد القطيعة وهي كناية عن الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار والتعطف عليهم والرفق بهم والرعاية لأحوالهم سواءً أحسنوا أم أساءوا .

وقطـــع الرحم ضد ذلك كله . يقال : وصل رحمه يصلها وصلاً وصلة فكأنه بالإحسان إليهم قد وصل ما بينه وبينهم من علاقة القرابة أو الصهر .

الــرحـــم : ذو الـــرحم هم : الأقارب ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب ويطلــق فـــي الفــرائض على الأقارب من جهة النساء . يقال : ذو رحم محرم ومُحرَّم وهم من لا يحل نكاحه كالأم والبنت والأخت والعمة والخالة .

خامساً : قضايا الحـديث

القضية الأولى

كـان النبـي ﷺ مـع أصـحابه كـالوالد مع أبنائه والأستاذ مع طلابه والشـيخ مـع مـريديه يحنو عليهم ويرفق بهم يسألونه فيعطيهم ويطلبون منه فيجيـبهم ويسترشدونه فيرشدهم وكان الواحد منهم يجلس مع النبي ﷺ مرة في الـيوم علـى الأقل وأحياناً أكثر من مرة ، وكان النبي رفيقاً حليماً فكان بعض الصـحابة يكـثر من الأسئلة بحكم قرب النبي منه أو قربه منه أسئلة تفيد تارة وأحياناً لا تفيد فأراد الله ﷻ أن يؤدب عباده ويهذب أخلاقهم فأنزل ﷻ **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾** [١] .

قـال الشـهيد سـيد قطب : لقد جاء هذا القرآن لا ليقرر عقيدة فحسب ولا ليشـرع شريعة فحسب ، ولكن كذلك ليربي أمة وينشئ مجتمعاً وليكوّن الأفراد وينشـئهم علـى مـنهج عقلي وخلقي من صنعه وهو هنا يعلمهم أدب السؤال وحـدود البحـث ومنهج المعرفة وما دام الله سبحانه وتعالى هو الذي ينزل هذه الشـريعة ويخبر بالغيب فمن الأدب أن يترك العبيد لحكمته تفصيل تلك الشريعة أو إجمالها وأن يتركوا له كذلك كشف هذا الغيب أو ستره وأن يقفوا هم في هذه الأمـور عند الحدود التي أرادها العليم الخبير لا ليشددوا على أنفسهم بتنصيص النصـوص والجري وراء الاحتمالات والفروض كذلك لا يجرون وراء الغيب يحـاولون الكشـف عمـا لـم يكشف الله منه وما هم ببالغيه والله أعلم بطاقة البشر واحتمالهم فهو يشر لهم في حدود طاقتهـم ويكشـف لهم من الغيب ما

---

[١] سورة المائدة (١٠١) .

تدركـــه طبيعتهم وهناك أمور تركها الله مجملة أو مجهلة ولا ضير على الناس فـــي تركها هكذا كما أرادها الله ولكن السؤال في عهد النبوة وفترة تنزل القرآن قـــد يجعـــل الإجابـــة عنها متعينة فتسوء بعضهم وتشق عليهم كلهم وعلى من يجئ بعدهم (١) .

ولذلـــك لمـــا نزلت آية الحج ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إلـــيه ســـبيلاً** ﴾ (٢) قال رسول الله ﷺ : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا فقام رجل فقال : أفي كل عام يا رسول الله فغضب رسول الله وأعرض عـــنه وكـــره هـــذا السؤال لأن الأمر بالحج جاء مجملاً والحج مرة يجزئ فأما السؤال عنه أفي كل عام فهو تفسير له بالصعب الذي لم يرده الله .

ثـــم عـــاد السائل فقال : أفي كل عام . فقال رسول الله ﷺ : " والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما أطقتموها ولو لم تطيقوها لكفرتم " (٣) .

ولقـــد أكثر بعض الصحابة من سؤال رسول الله ﷺ حتى أغضبوه لأن الله ﷻ بعـــثه مبشـــراً ونذيراً ودالاً عليه وليس مخبراً بالمغيبات ولا دالاً على المخفيات وكذلك كان يغضب إذا خرج السؤال عن هذا الإطار .

ولقـــد أكثروا سؤاله مرة حتى أغضبوه فقال : سلوني فوالله لا تسألوني عـــن شـــئ إلا أخـــبرتكم بـــه مادمت في مقامي هذا فقام إليه رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله ؟ قال " النار " فقام عبد الله بن حذافة فقـــال : من أبـــي

---

(١) في ظلال القرآن (٢ / ٩٨٦) .

(٢) سورة آل عمران (٩٧) .

(٣) سنن الدارقطني كتاب الحج باب المواقيت (٢ / ٢٨٢) وأصل الحديث عند مسلم كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر (٢ / ٩٧٥) رقم (١٣٣٧) .

يا رسول الله ؟ فقال : أبوك حذافة " (١) .

قال ابن عبد البر : عبد الله بن حذافة أسلم قديماً وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية وشهد بدراً وكانت فيه دعابة وكان رسول الله ﷺ أرسله إلى كسرى بكتاب رسول الله (٢) ولما قال : من أبي يا رسول الله ؟ قال : " أبوك حذافة " قالت أمه : ما سمعت يابن أعق منك أأمنت أن تكون أمك قارفت ما يقارف نساء الجاهلية فتفضحها على أعين الناس ؟ فقال : والله لو ألحقني بعبد أسود للحقت به (٣) .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ﷺ قال : خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمار وجهه حتى جلس على المنبر فقام إليه رجل فقال : أين أنا ؟ قال " في النار " فقام آخر فقال : من أبي ؟ فقال : " أبوك حذافة " فقام عمر ابن الخطاب فقال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمجمد نبياً وبالقرآن إماماً إنا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك والله أعلم من آباؤنا قال : فسكن غضبه (٤).

وقال ابن عباس : كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً فيقول الرجل من أبي ويقول الرجل تضل ناقته أين ناقتي ؟ (٥) .

---

(١) البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب وقت الظهر عند الزوال (٢ / ٢٧) رقم (٥٤٠) مع الفتح ، مسلم كتاب الفضائل باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه (٤ / ١٨٣٠) رقم (١٣٣٧) .

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر (٣ / ٨٨٨ ، ٨٨٩) .

(٣) صحيح مسلم (٤ / ١٨٣٣) .

(٤) تفسير الطبري (٧ / ٨١) وقال ابن كثير : إسناده جيد تفسير القرآن العظيم (٢ / ١٠٦) وقال ابن حجر : هذا شاهد جيد . فتح الباري (٨ / ٢٨١) طبعة دار المعرفة .

(٥) البخاري كتاب التفسير باب " لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم (٨/١٣٠) (٤٦٢١)

وقـــال أنس بن مالك : إن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة (١) فحذرهم الله من كثرة الأسئلة وخوفهم من ذلك حتى لا يشددوا على أنفسهم وفي الحديث : " إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال " (٢) .

وقال رسول الله ﷺ : " ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم " (٣) .

ولقـــد ضــــرب الله لهم المثل بمن كان قبلهم من أهل الكتاب ممن كانوا يشددون على أنفسهم بالسؤال عن التكاليف والأحكام فلما كتبها الله عليهم كفروا بها ولم يؤدوها . ولو سكتوا وأخذوا الأمور باليسير الذي شاءه الله لعباده ما شدد عليهم وما احتملوا تبعة التقصير والكفران .

ولقـــد رأيـــنا كـــيف أن بني إسرائيل حينما أمرهم الله أن يذبحوا بقرة بـــلا شـــروط ولا قـــيود وكانت تجزيهم فيها بقرة أية بقرة أخذوا يسألون عن أوصـــافها ويدققون في تفصيلات هذه الأوصاف وفي كل مرة كان يشدد عليهم ولـــو تـــركوا السؤال ليسروا على أنفسهم . وكذلك كان شأنهم في السبت الذي طلـــبوه ثـــم لـــم يطيقوه . ولقد كان هذا شأنهم دائماً حتى حرم الله عليهم أشياء كثيرة تربية لهم وعقوبة (٤) .

ولذلك حرص الصحابة الكرام على التقلل من الأسئلة .

---

(١) تفسير الطبري (٧ / ٨٠) ، تفسير ابن كثير (٢ / ١٠٦) .

(٢) البخاري كتاب الاستقراض باب ما ينهى عن إضاعة المال (٥ / ٨٣) رقم (٢٤٠٨) . ومسلم كتاب الأقضية باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (٤ / ١٣٤١) رقم (٥٩٣)

(٣) البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٢٦٤/١٣) رقم (٧٢٨٨) ، أحمد في مسنده (٧ / ١٨٢) رقم (٧٣٦١) .

(٤) في ظلال القرآن (٢ / ٩٨٦) .

فعـــن ابن عباس قال`: ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض كلهن في القرآن [١] .

وكـــان الصـــحابة يجلسون مع النبي ﷺ ويتمنون أن يأتي الرجل العاقل فيســـأله فيجيبه وهم يسمعون . قال عبد الله بن عمر : نهينا أن نسأل رسول الله عـــن شئ فكان يعجبنا أن يجيئ الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نستمع [٢] ولذلـــك أرســـل الله ﷻ جبريل في صورة بشر يسأل النبي والصحابة يسمعون فلما انصرف قال لهم النبي ﷺ : إنه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم [٣].

والحديـــث الـــذي معنا يعرض صورة هذا الرجل الأعرابي العاقل الذي تعرض للنبي فسأله فأحسن السؤال والصحابة يسمعون وهذا مما كانوا يرغبون فيه كما قدمنا .

---

[١] المعجم الكبير للطبراني (١١ / ٤٥٤) رقم (١٢٢٨٨) ، سنن الدارمي في المقدمة باب كراهية الفتيا (١ / ٦٣) رقم (١٢٥) .

[٢] صحيح مسلم كتاب الإيمان باب السؤال عن أركان الإسلام (١ / ٤١) رقم (١٢) .

[٣] مسلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١ / ٣٦) رقم (٨) .

القضـــية الثانية

كـــان النبــــي ﷺ يُسئل السؤال الواحد فتختلف إجابته ومرد ذلك اختلاف أحـــوال السائلين أو اختلاف الوقت الذي يسألون فيه ، فكان النبي ﷺ يجيب كل ســـائل بمـــا يصلح له وبما يناسبه ويوافق مقتضيات وقته أو بيئته وهاهي عدة أحاديث اتفقت فيها الأسئلة واختلفت فيها الأجوبة .

(١) عـــن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : " الصلاة على وقتها " قلت : ثم أي ؟ قال : " بر الوالدين" قلت : ثم أي ؟ قال : " ثم الجهاد في سبيل الله " [١] .

(٢) وعن عائشة قالت : " سئل رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : " أدومها وإن قلّ " [٢] .

(٣) وعن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الأعمال أحب إلى الله ، قال : " أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله " [٣] .

(٤) وعـــن رجـــل مـــن خثعم قال : أتيت النبي ﷺ وهو في نفر من أصحابه فقلت : أنت الذي تزعم أنك رسول الله قال : " نعم " قلت يا رسول الله أي الأعمـــال أحـــب إلى الله ؟ قال : " إيمان بالله " قال : قلت يا رسول الله ثم مه قال : " ثم صلة الرحم " قال : قلت : يا رسول الله ثم مه ، قال : " ثم الأمر

---

[١] البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب فضل الصلاة لوقتها (٢ / ١٢) رقم (٥٢٧) ، مسلم كتاب الإيمان باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (١ / ٨٩) رقم (٨٥) .

[٢] مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (١ / ٥٤١) رقم (٧٨٣) ، أحمد في مسنده (١٧ / ٥٦٨) رقم (٢٥١٩٣) .

[٣] ابن حبان في صحيحه (٣ / ٩٩) رقم (٨١٧) ، الطبراني في المعجم الكبير (٢٠ / ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧) .

بالمعروف والنهي عن المنكر " [١] .

(٥) عن أبي جحيفة قال : قال رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : فسكتوا فلم يجبه أحد قال هو " حفظ اللسان " [٢] .

(٦) وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً ولأن أمشي مع أخٍ لي في حاجة أحب إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد – يعني مسجد المدينة – شهراً " الحديث [٣] .

(٧) وعن ابن عباس قال : قال رجل يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : الحال المرتحل ، قال : وما الحال المرتحل ؟ قال : " الذي يفتح القرآن ويختمه صاحب القرآن يضرب من أوله إلى آخره ومن آخره إلى أوله كلما حلّ ارتحل " [٤] .

فلقد سئل النبي ﷺ في هذه الأحاديث أي الأعمال أحب إلى الله تعالى

---

[١] مسند أبي يعلى (١٢ / ٢٢٩) رقم (٦٨٣٩) ، الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب البر والصلة باب صلة الرحم وقطعها (٨ / ١٥١) ثم قال : رجاله رجال الصحيح غير نافع بن خالد وهو ثقة .

[٢] شعب الإيمان للبيهقي (٤ / ٢٤٥) رقم (٤٩٥٠) وذكره الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٣ / ٣٣٧) وقال رواه أبو الشيخ ابن حبان والبيهقي وفي إسناده من لا يحضرني الآن حاله .

[٣] الطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ٤٥٣) رقم (١٣٦٤٦) ، الأوسط (٦ م ١٣٩) رقم (٦٠٢٦) ، الصغير (٢ / ١٠٦) رقم (٨٦١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ١٩١) وقال : رواه الطبراني في الثلاثة وفيه مسكين بن سراج وهو ضعيف .

[٤] الترمذي كتاب القراءات (٤ / ٤٣٧) رقم (٢٩٥٧) وقال الترمذي إسناده ليس بالقوي ثم ذكره مرسلاً وقال : هو الأصح . والحاكم في المستدرك (١ / ٧٥٧) رقم (٢٠٨٨) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ١٦٨) رقم (١٢٧٨٣) .

فاختلفت إجابته ولقد سئل النبي ﷺ أيضاً في عدة أحاديث أي الأعمال أفضل فاختلفت إجابته . وإليك بعض هذه الأحاديث :

(١) عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ قال : " إيمان بالله " قال : ثم ماذا ؟ قال : " الجهاد في سبيل الله " قال : ثم ماذا ؟ قال : " حج مبرور " [(١)] .

(٢) عن أبي بكر الصديق ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل : أي الأعمال أفضل ؟ قال : العج والثج " [(٢)] .

(٣) عن عبد الله بن حبشي الخثعمي أن رسول الله سئل أي الأعمال أفضل ؟ قال : " طول القيام " [(٣)] .

(٤) عن جابر بن عبد الله قال : قيل يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ قال : " الصبر والسماحة " [(٤)] .

(٥) وعن أبي أمامة قال : سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ قال : " كلمة حق عند سلطان جائر " [(٥)] .

---

(١) البخاري كتاب الحج باب فضل الحج المبرور (٣ / ٤٤٦) رقم (١٥١٩) ، ابن حبان في صحيحه (١٠ / ٤٥٨) رقم (٤٥٩٨) .

(٢) مستدرك الحاكم (١ / ٦٢٠) رقم (٦٥٥) وصححه ، والبيهقي في السنن الكبرى (٥ / ٤٢) رقم (٨٧٩٨) ، ابن ماجه في سننه كتاب المناسك باب رفع الصوت بالتلبية (٢ / ٩٧٥) رقم (٢٩٢٤) والعج : رفع الصوت بالتلبية . والثج : نحر البدن .

(٣) أبو داود كتاب الصلاة باب افتتاح صلاة الليل بركعتين (٢ / ٣٧) رقم (١٣٢٥) .

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٦ / ١٦٧) رقم (٣٠٣٩٣) وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عبادة بن الصامت قال : قال رجل يا رسول الله : أي العمل أفضل .. فذكره (٧ / ١٢٣) رقم (٩٧١٤) .

(٥) الطبراني في المعجم الصغير (١ / ١٠٧) رقم (١٥١) .

(٦) وعــن عبد الله بن بسر أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ فقال : " من طال عمره وحسن عمله " [١] .

(٧) وعــن أبــي أمامــة أنه سأل النبي ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : " عليك بالصوم فإنه لا عدل له " [٢] .

فهذه أحاديث أخرى اتفقت فيها الأسئلة واختلفت الأجوبة .

ولقــد سئل النبي ﷺ نفس هذا السؤال الذي سأله هذا الأعرابي فاختلفت إجاباته . وإليك بعض هذه الأحاديث :

(١) عن معاذ بن [illegible] قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجــنة ويباعدنــي من ال[illegible] لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت " [٣] .

(٢) عــن الــبراء بن عازب قال : جاء رجل إلى رسول الله فقال : دلنــي علــى عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار . قال : " لئن أقصرت الخطــبة لقــد أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك الرقبة . قال : أو ليسا واحداً قال : " لا عتق النسمة أن تفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها " [٤] .

---

[١] معجم الصحابة لعبد الباقي بن قانع (٢ / ٦٥ ، ٨١) .

[٢] السنن الكبرى للبيهقي (٢ / ٩٢) رقم (٢٥٣٢) ، سنن النسائي كتاب الصوم باب فضل الصيام (٤ / ١٦٥) .

[٣] الترمذي كتاب الإيمان باب ما جاء في حرمة الصلاة (٤ / ٢٨٠) رقم (٢٦٢٥) وقال حديث حسن صحيح ، أحمد في مسنده (١٦ / ١٦٧) رقم (٢١٩١٥) .

[٤] أحمد في المسند (١٤ / ٢٣٤) رقم (١٨٥٥٤) ، صحيح ابن حبان (٢ / ٩٨) رقم (٣٧٤) ، السنن الكبرى للبيهقي (١٠ / ٢٧٢) رقم (٢١١٠٢) ، مسند أبو داود الطيالسي (١ / ١٠٠) رقم (٧٣٩) .

(٣) عــن أبــي ذر قال : قلت يا رسول الله علمني عملاً يقربني من الجــنة ويباعدنــي من النار . قال : " إذا عملت سيئة فاعمل حسنة فإنها عشر أمثالها " [١] .

(٤) عن المغيرة بن عبد الله اليشكري عن أبيه قال : انتهيت إلى رجل يحدث قوماً فذكر الحديث وفيه : فقلت يا رسول الله : أخبرني بعمل يقربني من الجــنة ويباعدنــي مــن النار . قال : " تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتصــوم رمضــان وتحب للناس ما تحب أن يؤتى إليك وتكره لهم ما تكره أن يؤتى إليك " [٢] .

(٥) عن كدير الضبي أنه أتى النبي ﷺ فسأله راع فقال : يا رسول الله أخبرني بعمل يقربني من الجنة . قال : " تقول العدل وتعطي الفضل " [٣] .

قــال ابن حجر : ومحصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره ممــا اختلفــت فــيه الأجوبــة بأنه أفضل الأعمال أن الجواب اختلف لاختلاف أحــوال السائلين بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه أو بما لهم فيه رغبة أو بما هــو لائــق بهــم أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال لأنه الوســيلة إلــى القــيام بها والتمكن من أدائها وقد تضافرت النصوص على أن الصــلاة أفضل من الصدقة ومع ذلك ففي مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل أو أن أفضل ليست على بابها ، بل المراد بها الفضل المطلق أو المراد : من

---

[١] تفسير الطبري (٨ / ١١٠) ، حلية الأولياء (٤ / ٢١٧) .

[٢] أحمد في المسند (١٨ / ٤٥٠) رقم (٢٧٠٣٢) .

[٣] المعجم الكبير للطبراني (١٩ / ١٨٧) ، الجامع لمعمر بن راشد (١٠ / ٤٥٦) .

أفضل الأعمال فحذفت من وهي مرادة [١] .

وقال الإمام النووي : اختلف العلماء في الجمع بينها فذكر الإمام الجليل أبو عبد الله الحليمي الشافعي عن شيخه الإمام العلامة المتقن أبي بكر القفال الشاشي الكبير أنه جمع بينها بوجهين :

أحدهما : أن ذلك اختلاف جواب جرى على حسب اختلاف الأحوال والأشخاص فإنه قد يقال : خير الأشياء كذا ولا يراد به خير جميع الأشياء من جميع الوجوه وفي جميع الأشخاص والأحوال بل في حال دون حال أو نحو ذلك واستشهد في ذلك بأخبار منها عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : " حجة لمن لم يحج أفضل من أربعين غزوة وغزوة لمن حج أفضل من أربعين حجة " [٢] .

الوجه الثاني : أنه يجوز أن يكون المراد من أفضل الأعمال كذا أو من خيرها أو من خيركم من فعل كذا فحذفت من وهي مرادة ، كما يقال : فلان أعقل الناس وأفضلهم ويراد أنه من أعقلهم وأفضلهم . ومن ذلك قول رسول الله ﷺ : " خيركم خيركم لأهله " [٣] . ومعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس مطلقاً .

---

[١] فتح الباري (٢ / ١٣) .

[٢] لم أقف عليه بهذا اللفظ إنما المعروف عشر بدلاً من أربعين . وقد أخرجه : الطبراني في المعجم الأوسط (٣ / ٢٨٠) رقم (٣١٤٤) ، السنن الكبرى للبيهقي (٤ / ٣٣٤) رقم (٨٤٥٠) ، ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥ / ٢٨١ ، ٩ وعزاه إلى الطبراني في الأوسط قال : وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث قال عبد الملك بن شعيب ثقة مأمون وضعفه غيره .

[٣] الترمذي كتاب المناقب باب فضل أزواج النبي (٥ / ٤٧٥) رقم (٣٩٢١) . وقال حديث حسن غريب صحيح ، ابن حبان في صحيحه (٤ / ٤٨٤) رقم (٤١٧٧) .

ومـــن ذلـــك قولهم : أزهد الناس في العالم جيرانه وقد يوجد في غيرهم من هو أزهد منهم فيه هذا كلام القفال رحمه الله .

وعلـــى هذا الوجه الثاني يكون الإيمان أفضلها مطلقاً والباقيات متساوية فـــي كونهـــا من أفضل الأعمال والأحوال ثم يعرف فضل بعضها على بعض بدلائل تدل عليها وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص (١) .

وقـــال القاضـــي عياض : اختلفت الأجوبة في هذه الأحاديث لاختلاف الأحـــوال وأعلـــم كل قوم بما تهم الحاجة إليه وترك ما لم تدع حاجتهم إليه أو ممـــا كان علمه السائل قبل فأُعلم بما تدعو الحاجة إليه أو بما لم يكمله بعد من دعائم الإسلام ولا بلغه علمه (٢) .

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (٢ / ٧٧ ، ٧٨) .

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (١ / ٣٤٧) .

القضية الثالثة

اختلف العلماء في تحديد اسم الرجل الأعرابي السائل في هذا الحديث على قولين :

(١) حكى ابن قتيبة في غريب الحديث أن السائل هو راوي الحديث نفسه أبو أيوب الأنصاري وغلطه بعضهم في ذلك فقال : إنما هو راوي الحديث وليس السائل .

قال ابن حجر : وفي التغليط نظر إذ لا مانع أن يبهم الراوي نفسه لغرض له ولا يقال يبعد لوصفه في رواية أبي هريرة بكونه أعرابياً لأنا نقول لا مانع من تعدد القضية فيكون السائل في حديث أبي أيوب هو نفسه لقوله إن رجلاً والسائل في حديث أبي هريرة أعرابي آخر [١] .

هكذا قال ابن حجر وأظنه غفل عن رواية أبي أيوب التي عند مسلم وفيها قال أبو أيوب إن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ ، فأبو أيوب وصف السائل بأنه أعرابي وأبو أيوب لا يقول عن نفسه إن أعرابياً ويبعد أن يقال إن أبا أيوب سأل النبي ﷺ مرة بنفسه ثم شهد واقعة سؤال الأعرابي للنبي ﷺ فكان يحكي سؤاله تارة وسؤال الأعرابي تارة أخرى ، فهذا وإن كان غير مستحيل إلا أنه لا حاجة لتكلف القول به فليس في رواية أبي أيوب ما يشير إلى أنه هو السائل . والله أعلم .

(٢) وردت تسمية الأعرابي السائل فيما رواه البغوي وابن السكن والطبراني في الكبير وأبو مسلم الكجي في السنن من طريق محمد بن جحادة وغيره عن المغيرة بن عبد الله اليشكري أن أباه حدثه قال : انطلقت إلى الكوفة

---

(١) فتح الباري (٣ / ٣١٠) .

فدخلـــت المسجد فإذا رجل من قيس يقال له ابن المنتفق وهو يقول : وصف لي رســول الله فطلبـــته فلقيته بعرفات فزاحمت عليه فقيل لي : عليك عنه فقال : " دعوا الرجل أرب ماله " قال : فزاحمت عليه حتى خلصت إليه فأخذت بخطام راحلته فما غيّر عليّ قلت شيئين أسألك عنهما : ما ينجيني من النار وما يدخلني الجـــنة ؟ قال : فنظر إلى السماء ثم أقبل عليّ بوجهه الكريم فقال : " لئن كنت أوجـــزت المســـألة لقد أعظمت وطولت فاعقل عليّ اعبد الله لا تشرك به شيئاً وأقـــم الصـــلاة المكـــتوبة وأد الزكاة المفروضة وصم رمضان " (١) . وزعم الصيرفي أن اسم ابن المنتفق هذا : لقيط بن صبرة وافد بني المنتفق (٢) .

وأغلـــب الظـــن أن الســـائل فـــي حديث أبي أيوب هو نفس السائل في الحديـــث الذي رواه أبو هريرة أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال : دلني على عمل إذا عملـــته دخلـــت الجـــنة ؟ قـــال : " تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكـــتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان " قال : والذي نفسي بيده لا أزيـــد علـــى هذا فلما ولّى قال النبي ﷺ : " من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا " (٣) ، وإن كان لا مانع من تعدد القصة .

وقـــد وقع نحو هذا السؤال لصخر بن القعقاع الباهلي قال : لقيت النبي بيـــن عرفة ومزدلفة فأخذت بخطام ناقته فقلت يا رسول الله ما يقربني من الجنة ويباعدني من النار ؟ فذكر الحديث (٤) .

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير (١٩ / ٢٠٩) .

(٢) فتح الباري (٣ / ٣١٠) .

(٣) البخاري كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة (٣ / ٣٠٨) رقم (١٣٩٧) ، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة (١ / ٤٤) رقم (١٤) .

(٤) الطبراني في المعجم الكبير (٨ / ٢٧) رقم (٧٢٨٣) .

القضية الرابعة

استنبط النبي من سؤال هذا الأعرابي أنه راجح العقل زكي القلب فقال : " لقد وفق أو لقد هدي " أي وفق في السؤال الذي تنفعه إجابته وهدي إلى الطريق الذي به ينجو من عذاب الله ويعرف طريق رضاه الموصل إلى جنته وفي رواية أن النبي قال لما سأله أرب – بكسر الراء وفتح الموحدة بلفظ الفعل الماضي – وظاهره الدعاء والمعنى : التعجب من السائل .

قال النضر بن شميل : يقال : أرب الرجل في الأمر إذا بلغ فيه جهده وقال الأصمعي : أرب في الشئ صار ماهراً فيه فهو أريب ، وكأن النبي تعجب من حسن فطنته والتهدي إلى موضع حاجته [١] ، ولذلك قال : لقد وفق أو لقد هدي وفي رواية أبي هريرة قال رسول الله " من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا " [٢] .

وذلك لأنه أحسن السؤال وعزم على تنفيذ ما قاله النبي ، والإسلام نهى عن السؤال إذا كان على وجه التعنت أو الامتحان أو عما لا يحتاج إليه أو نحو ذلك . وأما السؤال لأجل العلم والمعرفة فمندوب إليه مأمور به ، ولذلك قال علي بن أبي طالب ﷺ : " العلم خزائن ومفاتحها السؤال فسلوا يرحمكم الله فإنه يؤجر فيه أربعة : السائل والمعلم والمستمع والمحب لهم " [٣] .

---

[١] فتح الباري (٣ / ٣١١) .

[٢] البخاري كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة (٣ / ٣٠٨) رقم (١٣٧٩) ، مسلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة (١ / ٤٤) رقم (١٤) .

[٣] رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣ / ١٩٢) ورفعه إلى النبي ﷺ ورواه الديلمي في مسند الفردوس (٣ / ٦٨) رقم (٤١٩٢) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢ / ٨٥) سنده ضعيف .

وقـــال الماوردي : حكي أن بعض الحكماء رأى شيخاً يحب النظر في العلـــم ويســـتحي مـــن السؤال فقال : يا هذا تستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله (١) .

وقـــال الزهري : العلم خزائن وتفتحها المسألة (٢) ، ولذلك مدح عمر ابـــن الخطـــاب عـــبد الله بـــن عباس بقوله : ذلك فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول (٣) .

وســـئل ابـــن عـــباس أنـــى أصبت هذا العلم قال : بلسان سؤول وقلب عقول (٤) .

فلـــيس السؤال مذموماً بإطلاق ولكنه يذم إذا لم توجد له فائدة أو ترتب عليه ضرر ويمدح إذا كان وسيلة لاستخراج العلم والمعرفة .

---

(١) فيض القدير (٤ / ٣٨٩) .

(٢) سنن الدارمي في المقدمة باب البلاغ عن رسول الله وتعليم السنن (١ / ١٤٧) رقم (٥٤٩) ، حلية الأولياء (٣ / ٣٦٣) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣ / ٣٤٥) .

(٤) صفوة الصفوة لابن الجوزي (١ / ٧٤٩) ، المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (١ / ٢٩١) .

القضية الخامسة

علـم الصحابة رضوان الله عليهم أن دخول الجنة والنجاة من النار أمر عظـيم جداً ولأجله أنزل الله الكتب وأرسل الرسل ﴿ **قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم** ﴾ (١) .

وقـال النبـي ﷺ لـرجل كيف تقول إذا صليت ؟ قال : أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار ولا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ – يشير إلى كثرة دعائهما واجتهادهما في المسألة – فقال النبي ﷺ : " حولها ندندن " (٢) .

وفـي رواية " هل تصير دندنتي ولا دندنة معاذ إلا أن نسأل الله الجنة ونعوذ به من النار" (٣) .

ومن حديث معاذ أنه قال : يا رسول الله إني أريد أن أسألك عن كلمة قد أمرضـتني وأسـقمتني وأحرقتني قال : " سل عما شئت " قال : أخبرني بعمل يدخلني الجنة لا أسألك غيره .. الحديث (٤) .

وهذا الحديث وغيره من الأحاديث التي سبقت تدل على حرص الصحابة علـى معـرفة طريق الجنة والنجاة من النار ، ولذلك أكثروا من السؤال حول هذا الأمر وكانوا شديدي الخوف من النار عظيمي الرغبة في الجنة لمـا رأوه

---

(١) سورة الأنعام (١٥) .

(٢) أبو داود كتاب الصلاة باب في تخفيف الصلاة (١ / ٢٠٨) رقم (٧٩٢) ، ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما يقال في التشهد والصلاة على النبي ﷺ (١ / ٢٩٥) رقم (٩١٠) وفي الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٣) مسند أحمد (١٥ / ٢٩٥) رقم (٢٠٥٧٧) ، الطبراني في المعجم الكبير (٧ / ٦٧) رقم (٦٣٩١) وقال الهيثمي رجال أحمد ثقات ، مجمع الزوائد (٢ / ٧٢) .

(٤) مسند أحمد (١٦ /٢٠٥) رقم (٢٢٠٢١) ، مسند البزار (٧ / ١١١) رقم (٢٦٦٩)

من شدة حرص النبي ﷺ على ذلك .

قال أنس بن مالك : كان أكثر دعاء النبي ﷺ : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار [١] .

وحينما سمع عمر بن الخطاب ﷺ رجلاً يتهجد في الليل ويقرأ سورة الطور فلما بلغ إلى قوله تعالى ﴿ **إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع** ﴾ [٢] قال عمر : قسم ورب الكعبة حق ثم رجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه [٣] .

وقال عثمان بن عفان : لو أني بين الجنة وبين النار ولا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير [٤] .

وقال رجل لابن مسعود : إني لا أحب أن اكون من أصحاب اليمين أكون من المقربين أحب إليّ فقال عبد الله بن مسعود : لكن ههنا رجلاً -- يقصد نفسه – يتمنى إذا مات أن لا يبعث [٥] . وكان صهيب يسهر الليل ويبكي فعوتب على ذلك فقال : إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه وإذا ذكر النار طار نومه [٦] .

---

[١] البخاري كتاب الدعوات باب قول النبي ربنا آتنا في الدنيا حسنة (١١ / ١٩٥) رقم (٦٣٨٩) ، مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار (٤ / ٢٠٧٠) رقم (٢٦٩٠) .

[٢] سورة الطور (٧ ، ٨) .

[٣] تفسير ابن كثير (٤ / ٢٤٠) ، التخويف من النار لابن رجب الحنبلي (١ / ٣٠) .

[٤] حلية الأولياء (١ / ٦٠) ، التخويف من النار (١ / ١٥) .

[٥] صفوة الصفوة (١ / ٤٠٥) .

[٦] تفسير ابن كثير (٢ / ١٦٢) ، التخويف من النار (١ / ٢٨) .

ولذلـــك كـــان هـــرم بن حيان يخرج في بعض الليالي وينادي بأعلى صوته : عجبت من الجنة كيف نام طالبها وعجبت من النار كيف نام هاربها [١] .

وقـــال مالك بن دينار : لو وجدت أعواناً لناديت في منار البصرة بالليل الـــنار النار . ثم قال : لو وجدت أعواناً لفرقتهم في منار الدنيا ينادون : يا أيها الناس : النار النار [٢] .

فالجـــنة هـــي بغـــية كل مسلم والهرب من النار أمل كل مسلم وأفضل الأعمـــال علـــى الإطـــلاق هـــي المنجية من النار المقربة من الجنة والأعمال الصـــالحة هي سبب دخول الجنة كما قال تعالى ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ [٣] .

وأما قول النبي ﷺ : " لن يدخل الجنة أحد منكم بعمله " [٤] .

فالمراد والله أعلم أن العمل بنفسه لا يستحق به أحد الجنة لولا أن الله ﷻ جعله بفضله ورحمته سبباً لذلك والعمل بنفسه من فضل الله ورحمته على عبده ، فالجنة وأسبابها كل من فضل الله ورحمته .

---

[١] **التخويف من النار (١ / ١٢) ، حلية الأولياء (٢ / ١١٩) .**

[٢] **حلية الأولياء (٢ / ٣٧١) ، التخويف من النار (١ / ١٣) .**

[٣] **سورة الزخرف (٧٢) .**

[٤] مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٤ / ٢١٦٩) رقم (٢٨١٦) .

القضية السادسة

تعبد الله لا تشرك به شيئاً .

أصـــل العبادة في اللغة هي : الخضوع والذل والاستكانة ومنه قولهم : طـريق معـبد أي مذلـل بكثرة الوطء عليه وبعير معبد أي : مذلل ومنه أخذ (العبد) لذله مولاه .

وأمـا العبادة في الشرع : فأصلها الخضوع والحب . يقول ابن تيمية : الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال : دنته فدان أي : أذللته فذل . ويقال : يديـن الله وديـن لله : أي يعـبد الله ويطـيعه ويخضـع له ، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له والعبادة أصل معناها : الذل أيضاً لكن العبادة المأمور بها تتضـمن معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة لـه ، فـإن آخر مراتب الحب هو التتيم وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ثم الصـبابة لانصـباب القلـب إليه ثم الغرام وهو الحب الملازم للقلب ثم العشق وآخرها التتيم يقال : تيم الله أي : عبد الله فالمتيم : المعبد المصوب ومن خضع لإنسـان مـع بغضه له لا يكون عابداً له ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عـابداً له كما قد يحب الرجل ولده وصديقه ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعـالى بـل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شئ وأن يكون الله أعظم عنده من كل شئ بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة وما عظم بغير أمر الله فتعظيمه باطل ، قال الله تعالى ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فـي**

سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ [١] .

ويقول ابن القيم : والعبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع والعرب تقول : طريق معبد أي : مذلل . والتعبد : التذلل والخضوع فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له لم تكن عابداً له ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محباً خاضعاً ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية والمنكرون لكونه محبوباً لهم بل هو غاية مطلوبهم – ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم – منكرين بكونه إلهاً وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم ، فهذا غاية توحيدهم وهو توحيد الربوبية [٢] .

ومن خلال التعريف اللغوي والشرعي للعبادة ندرك أن العبادة المشروعة لابد لها من شرطين :

الأول : الطاعة الكاملة لله والاستسلام لأمره والوقوف عند حدود شرعه أمراً ونهياً وتحليلاً وتحريماً .

الثاني : المحبة الكاملة لله تعالى فليس في الوجود من هو أجدر من الله تعالى أن يحب فالله هو صاحب الفضل والإحسان والنعم المتكاثرة **﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾** [٣] فمن يحب الإنسان إذا لم يحب الله وهو المتصف بصفات الجمال والجلال والكمال .

إن أساس محبة الله تعالى هو الشعور بفضله ونعمته وإحسانه ورحمته والإحساس بجماله وكماله ، فمن كان يحب الإحسان فالله هو واهبه وصاحبه ،

---

[١] سورة التوبة (٢٤) .

[٢] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم (١ / ٩٩) .

[٣] سورة إبراهيم (٣٤) .

ومـن كان يحب الجمال فالله هو مصدره ، ومن كان يحب الكمال فلا كمال في الحقـيقة إلا كمالـه ، ومن كان يحب ذاته فالله هو خالقه ، فمن عرف الله أحبه وبقـدر درجـته فـي المعرفة تكون درجته في المحبة ، ولهذا كان الرسول ﷺ أشـد الـناس حـباً لأنه كان أعرفهم بالله وكانت قرة عينه في الصلاة ، لأنها الصـلة المباشـرة بين قلبه وبين الله وكان في دعائه يسأل الله الشوق إلى لقائه ولـذة الـنظر إلـى وجهه سبحانه ولما خُيّر بين البقاء في الدنيا واللحوق بربه قال : أختار الرفيق الأعلى [١] .. فمحبة الله إذن ضرورية لكل من عرف نفسه وعرف ربه . ولكن الخطر إنما يكمن في ادعاء المحبة لله دون تحقيق العنصر الأول وهـو الاتـباع والانقياد لما جاءت به رسل الله كاليهود والنصارى الذين قـالوا : ﴿ **نحـن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ [٢] مع انحرافهم عما نزلت به كتب الله ودعا إليه رسله وحرفوا الكلم عن مواضعه فحادوا عن الصراط المستقيم .

لابد إذن في العبادة من العنصرين معاً غاية الخضوع لله وغاية المحبة لله ، كمـا قـال ابن تيمية وابن القيم . والعبادة ليست أمراً على هامش الحياة ، بـل إنهـا المـبدأ الأول الـذي أنزل الله كتبه وبعث رسله لدعوة الناس إليه ، وتذكـيرهم بـه إذا نسـوه أو ضـلوا عنه ولهذا خاطب خاتم رسله محمداً ﷺ بقولـه : ﴿ **ومـا أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعـبدون** ﴾ [٣] وكانـت الصـيحة الأولـى في كل رسالة ﴿ **أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ [٤] .

---

[١] العبادة في الإسلام للدكتور يوسف القرضاوي ص (٣٣ ، ٣٤) .

[٢] سورة المائدة

[٣] سورة الأنبياء (٢٥) .

[٤] سورة النحل (٣٦) .

﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ (١) .

ولما ختم الله كتبه بالقرآن وختم رسالاته بالإسلام وختم النبيين بمحمد ﷺ أكد هذه الحقيقة وأعلن في كتاب الخلود أن الغاية من خلق المكلفين أن يعرفوا الله ربهم ويوحدوه ويعبدوه ، فهذا سر خلق الإنسان **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾** (٢) .

وقال تعالى بعد أن ذكر قصص طائفة كبيرة من الأنبياء : **﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾** (٣) . وقد أمر الله نبيه بعبادته فقال له : **﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾** (٤) أي الموت .

وقال تعالى في شأن المسيح عيسى بن مريم الذي رفعه قومه إلى مرتبة الألوهية : **﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾** (٥) .

فالأديان كلها دعوة إلى عبادة الله وحده والأنبياء جميعاً أول العابدين لله تعالى ، وعبادة الله وحده هي مهمة الإنسان الأولى في الوجود كما بينت ذلك كل الرسالات .

ولقد أضاف النبي ﷺ في هذا الحديث بعد الأمر بعبادة الله وحده النهي عن الشرك ، لأن العرب كانوا يعترفون بأن الله هو خالقهم ورازقهم ومحييهم

---

(١) سورة الأعراف (٩) .
(٢) سورة الذاريات (٥٦ ، ٥٧) .
(٣) سورة الأنبياء (٩٢) .
(٤) سورة الحجر (٩٩) .
(٥) سورة النساء (١٧٢) .

ومميتهم ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** ﴾ (١) ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله** ﴾ (٢) ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون** ﴾ (٣) .

ومع اعترافهم بربوبية الله وأنه الخالق الرازق وهو توحيد الربوبية فإنهم لم يخرجوا بذلك عن الشرك وذلك لصرفهم ضروب العبادة إلى غير الله وجعلهم الواسطة بينهم وبينه وقالوا : ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ (٤) ، ولهذا يحتج عليهم به على توحيد الألوهية فيقال لهم : إنه لا ينبغي أن يعبد غيره لأنه لا رب سواه .

فليس عبداً ولا عابداً لله من رفض الاستسلام لأمره واستكبر عن اتباع نهجه والانقياد لشرعه وإن أقر بأن الله خالقه ورازقه فقد كان مشركو العرب يقرون بذلك ولم يجعلهم القرآن بذلك مؤمنين ولا عباداً لله طائعين ، فخضوع الإقرار بالربوبية لا يكفي ولابد من خضوع التعبد والانقياد والاتباع الذي هو حق الألوهية وبهذا يتحقق معنى ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الزخرف (٨٧) .

(٢) سورة العنكبوت (٦١) .

(٣) سورة المؤمنون (٨٤ ـ ٨٩) .

(٤) سورة الزمر (٣) .

(٥) الفاتحة (٥) .

القضية السابعة

العبادة هي مهمة الإنسان في هذه الحياة والصلاة هي غرة العبادات فهي من الإسلام بمنزلة الرأس من الجسد وهي عماده ودعامته وركنه وشعيرته والفارق بين الكفار والمسلمين وهي الصلة بين العبد والرب وهي قرة العين وراحة الضمير. وبياناً لأهميتها ومكانتها فرضت ليلة الإسراء والمعراج ، فالعبادات كلها فرضت في الأرض والصلاة هي العبادة الوحيدة التي فرضت في السماء بخطاب مباشر من رب العالمين إلى خاتم المرسلين ﷺ .

إن الحكومات تستدعي سفراءها في الأمور الهامة الحاسمة التي لا تغني فيها المراسلة عن المشافهة ، ومحمد ﷺ سفير الله إلى خلقه ، فإذا استدعاه الله سبحانه وعرج به إلى السماوات العلا ليخاطبه بفرض الصلوات ، كان ذلك برهاناً ناطقاً على سمو منزلة الصلاة وأهميتها عند الله ، وفي ذلك إشارة إلى حقيقة الصلاة ، وكأن أرواحنا تعرج في الصلاة إلى خالقها لتتزود بزاد الإيمان والتقوى .

فالصلاة عمود الدين ومفتاح الجنة ، وخير الأعمال وأول ما يُحاسب عليه المؤمن يوم القيامة يذكرها القرآن في دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام ﴿ **رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء** ﴾ [١] ، ويمدح بها الذبيح إسماعيل ﴿ **وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً** ﴾ [٢] ، ويأمر الله كليمه موسى بإقامتها أول ما يأمر به في ساعات الوحي الأولى : ﴿ **وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم**

---

[١] سورة إبراهيم (٤٠) .

[٢] سورة مريم (٥٥) .

الصلاة لذكري ﴾ [١] .

ويوحـــي إلـــيه وإلـــى أخـــيه هارون ﴿ **أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة ﴾** [٢] . وفي وصية لقمان لابنه ﴿ **يا بني أقم الصلاة ﴾** [٣] .

ويـــنطق المسيح عيسى في مهده ﴿ **وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حـــياً ﴾** [٤] . ويأمـــر خـــاتم أنبـــيائه ﷺ ﴿ **اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة ﴾** [٥] . وينذر بالويل والهلاك من يسهو عنها حتى يضيع وقتها ﴿ **فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾** [٦] .

ويدمـــغ بـــالذم واســـتحقاق الغي خلق سوء ﴿ **أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ﴾** [٧] .

ويجعلها الرسول قرة عين له فيقول" وجعلت قرة عيني في الصلاة "[٨] وإذا حضر وقتها يقول لبلال " أرحنا بها يا بلال " [٩] .

---

[١] سورة طه (١٤) .

[٢] سورة يونس (٨٧) .

[٣] سورة لقمان (١٧) .

[٤] سورة مريم (٣١) .

[٥] سورة العنكبوت (٤٥) .

[٦] سورة الماعون (٤ ، ٥) .

[٧] سورة مريم (٥٩) .

[٨] النسائي كتاب عشرة النساء باب حب النساء (٧ / ٦١) ، مسند أحمد (١١ / ٧٩) رقم (١٢٩٩١) .

[٩] أبو داود كتاب الأدب باب في صلاة العتمة (٤ / ٢٩٨) رقم (٤٩٨٥) ، المعجم الكبير للطبراني (٦ / ٢٧٧) رقم (٦٢١) .

ويجعلهـــا شــــعاراً فاصلاً بين المسلم والكافر فيقول : " العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمَن تركها فقد كفر " (١) .

وقال : " بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة " (٢) .

وذكـــر الصلاة يوماً فقال : " من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القـــيامة ومـــن لـــم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف " (٣) . فمن شغله المال عن الصـــلاة فهو مع قارون ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان ومن شغله عنها تجارته فهو مع أبي بن خلف ، وجعـــل " مـــن فاتـــته صـــلاة فكأنما وتر أهله وماله " (٤) . فكيف بمن فاتته الصلوات كلها .

والصلاة التي أمر بها الإسلام وحث عليها ورغب فيها وحذر من تركها ليســـت أقوالاً باللسان ولا حركات بالجوارح ، بلا تدبر من عقل ولا خشوع من قلب ليست تلك التي ينقرها صاحبها نقر الديكة ويخطفها خطف الغراب ويلتفت فيها التفات الثعلب ، كلا فالصلاة المقبولة هي التي تأخذ حقها من التأمل

---

(١) الترمذي كتاب الإيمان باب ما جاء في ترك الصلاة (٤ / ٢٨١) رقم (٢٦٣٠) وقال حديث حسن صحيح ، والنسائي كتاب الصلاة باب الحكم في تارك الصلاة (١ / ٢٣١) .

(٢) مسلم كتاب الإيمان باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (١ / ٨٨) رقم (٨٢) ، مسند أحمد (١٢ / ٩٢) رقم (١٥١٢١) .

(٣) صحيح ابن حبان كتاب الصلاة باب الوعيد على ترك الصلاة (٤ / ٣٢٩) رقم (١٤٦٧) ومسند أحمد (٦ / ١٥٠) رقم (٦٥٧٦) وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح .

(٤) النسائي كتاب الصلاة باب صلاة العصر في السفر (١ / ٢٣٧) ، ابن ماجه كتاب الصلاة باب ميقات الصلاة في الغيم (١ / ٢٢٧) رقم (٦٩٤) .

والخشية واستحضار عظمة المعبود جل جلاله . فغاية العبادات كلها ذكر الله ﷻ ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ [١] .

وأشار النبي ﷺ إلى روح الصلاة فقال : " إنما الصلاة تمسكن ودعاء وتضرع وتضع يديك فتقول اللهم اللهم فمن لم يفعل فهي خداج " [٢] أي ناقصة .

ولذلك قال النبي ﷺ يقيم الصلاة ولم يقل تؤدي الصلاة وإقامة الصلاة تعني إدامتها والمحافظة عليها في وقتها والإتيان بها على وجهها الصحيح .

---

[١] سورة طه (١٤) .

[٢] مسند أحمد (٢ / ٤٠١) رقم (١٧٩٩) ، الترمذي كتاب أبواب الصلاة باب ما جاء في التخشع في الصلاة (١ / ٣٩٤) رقم (٣٨٥) .

القضية الثامنة

الزكاة ركن من أركان الإسلام ودعامة من دعامة الإيمان ، وهي الركن المالـــي الاجتماعي من أركان الإسلام الخمسة ، وبها مع التوحيد وإقامة الصلاة يدخـــل المـــرء فـــي جماعة المسلمين ويستحق أخوتهم والانتماء إليهم كما قال تعالى ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين** ﴾ [١] .

والـــزكاة تطلق في الشرع على الحصة المقدرة من المال التي فرضها الله ســبحانه للمســتحقين وسمى الإخراج زكاة لأن الزكاة تزيد في المال الذي أخرجت منه وتوفره في المعنى ولأن نفس المتصدق تزكو ، قال سبحانه وتعالى **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ [٢] .

وفـــي الحديـــث أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن وقال له : " إنك تأتي قوماً أهل كتاب ... وأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد فـــي فقـــرائهم " [٣] . وهي فريضة لازمة يكفر من جحدها ويفسق من منعها ويُقاتل من تحدى جماعة المسلمين بتركها .

وحســـبنا أن الخلـــيفة الأول أبا بكر ﷺ جهّز أحد عشر لواءً لمقاتلة من امتنع عن أداء الزكاة وقال كلمته المشهورة : " والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه " [٤] .

---

[١] سورة التوبة (١١) .

[٢] سورة التوبة (١٠٣) .

[٣] البخاري كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة (٣ / ٣٠٧) رقم (١٣٩٥) . ومسلم كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١ / ٥٠) رقم (١٩) .

[٤] البخاري كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة (٣ / ٣٠٨) رقم (١٣٩٩) ، مسلم كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة (١ / ٥١) رقم (٢٠) .

وهي تجب على كل مسلم ومسلمة بلغ نصاباً خالياً من دين وحال عليه الحـول سواءٌ أكان كبيراً أم صغيراً عاقلاً أو مجنوناً على الصحيح . وقد حذر الإسلام من تركها ووعد بالعقوبة على ذلك في الدنيا والآخرة .

وفي الحديث " ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين " (١) .

ومن حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : " ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مـنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا " (٢) . وفي حديث آخر : " ما خالطت الصدقة – أو قال الزكاة – مالاً إلا أفسدته " (٣) .

وفي الجزاء الأخروي جاء حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " مـن أتـاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقـه يـوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه – يعني بشدقيه – ثم يقول : أنا مالك أنا كـنزك (٤) ثم تلا النبي ﷺ الآية **﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضـله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾** (٤) وقـد ثبتت فرضية الزكاة بالقرآن والسنة المتواترة وبإجماع الأمة كلها خلفاً عن سلف وجيلاً إثر جيل .

---

(١) **المعجم الأوسط للطبراني (٥ / ٢٦) رقم (٤٥٧٧) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣ / ٦٦) رجاله ثقات .**

(٢) **سنن ابن ماجه كتاب الفتن باب العقوبات (٢ / ١٣٣٢) رقم (٤٠١٩) ، والحاكم في المستدرك (٤ / ٥٨٣) رقم (٨٦٢٣) وصححه ووافقه الذهبي .**

(٣) **السنن الكبرى للبيهقي (٤ / ١٥٩) رقم (٧٤٥٥) ، مسند الحميدي (١ / ١١٥) رقم (٢٣٧) .**

(٤) **البخاري كتاب الزكاة باب إثم مانع الزكاة (٣ / ٣١٥) رقم (١٤٠٣) ، صحيح ابن خزيمة في صحيحه كتاب الزكاة باب ذكر أخبار رويت عن النبي في الكنز مفسرة (٤ / ١١) رقم (٢٢٥٥) .**

(٤) **سورة آل عمران (٨٠) .**

القضية التاسعة

حث الإسلام على صلة الرحم وأكثر النبي ﷺ من الأمر بها .

قـال القاضـي عياض : لا خلاف في أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعـتها مصيبة كبيرة وللصلة درجات فأدناها ترك المهاجرة وصلتها بالكلام ولـو بالسلام ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة فمنها واجب ومنها مستحب فلو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعاً .

واخـتلفوا فـي حد الرحم التي تجب صلتها فقيل : كل ذي رحم محرم بحيث لو كان أحدهما ذكراً والآخر أنثى حرمت مناكحتهما ، فعلى هذا لا يدخل أولاد الأعمام والأخوال .

وقـيل : هو عام في كل ذي رحم من ذوي الأرحام في الميراث قال : وهو الصواب (١) .

وقـال النووي : معناه أن تحسن إلى أقاربك ذوي رحمك بما تيسر على حسب حالك وحالهم من إنفاق أو سلام أو زيارة أو طاعة أو غير ذلك (٢) .

وخـص هـذه الخصلة من بين خلال الخير نظراً إلى حال السائل كأن النبي ﷺ علم أنه لا يصل رحمه فأمره به لأنه المهم بالنسبة إليه .

والله ﷻ عـدّ قطـيعة الأرحام عديل الإفساد في الأرض فقال : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ (٣) .

---

(١) إكمال المعلم (٨ / ٢٠) .

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي (١ / ١٧٣) .

(٣) سورة محمد ﷺ (٢٢) .

وأوصى الإنسان بالإحسان إلى ذوي قرباه فقال ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ (١) .

وقال : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى** ﴾ (٢) .

وقال ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين** ﴾ (٣) .

وقال الله تعالى [أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته] (٤) .

وفي الحديث : " إن الرحم شجنة من الرحمن فقال الله : من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته " (٥) .

وفي الحديث : " الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله " (٦) .

وهدد النبي ﷺ قاطع الرحم فقال : " لا يدخل الجنة قاطع رحم " (٧) .

---

(١) سورة الإسراء (٢٦) .

(٢) سورة النحل (٩٠) .

(٣) سورة النساء (٣٤) .

(٤) أبو داود كتاب الزكاة باب في صلة الرحم (٢ / ١٣٦) رقم (١٦٩٤) ، الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في قطيعة الرحم (٣ / ٣٦٣) رقم (١٩١٤) وقال حديث صحيح .

(٥) البخاري كتاب الأدب باب من وصل وصله الله (١٠ / ٤٣٠) رقم (٥٩٨٨) ، الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في رحمة المسلمين (٣ / ٣٧١) رقم (١٩٣١) وقال : حديث حسن صحيح .

(٦) مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٤ / ١٩٨١) رقم (٢٥٥٥) ، صحيح ابن حبان كتاب البر والإحسان باب صلة الرحم وقطعها (٢ / ١٨٨) رقم (٤٤٥) .

(٧) البخاري كتاب الأدب باب إثم القاطع (١٠ / ٤٢٨) رقم (٥٩٨٤) ، مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٤ / ١٩٨٨) رقم (٢٥٥٦) .

وقــال : " ما من ذنب أجدر من أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم " (١) .

وقــال : " إن أعمــال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم " (٢) .

والصــلة المــأمور بهــا تكون حسب الظروف بالهبة والهدية والزيارة والسلام والصدقة والرسالة .. الخ .

ويزداد ثواب الواصل إذا قطعت رحمه ونفرت " ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها " (٣) .

وجــاء رجــل إلــى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونــي وأحسن إليهم ويسيئون إليّ وأحلم عنهم ويجهلون عليّ قال : " لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ (٤) ولن يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك " (٥) .

---

(١) أبو داود كتاب الأدب باب في النهي عن البغي (٤ / ٢٧٧) رقم (٤٩٠٢) ، الترمذي كتاب صفة القيامة (٤ / ٢٢٩) رقم (٢٥١٩) وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) مسند أحمد (٩ / ٤٣٣) رقم (١٠٢٢١) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ١٥١) وقال : رواه أحمد ورجاله ثقات .

(٣) البخاري كتاب الأدب باب ليس الواصل بالمكافئ (١٠ / ٤٣٧) رقم (٥٩٩١) ، أبو داود كتاب الزكاة باب في صلة الرحم (٢ / ١٣٧) رقم (١٦٩٧) .

(٤) الملُّ والملّة : الرماد الحار الذي يُحمى ليدفن فيه الخبز لينضج أراد : إنما تجعل الملة لهم سفوفاً يستفونه يعني : أن عطاءك إياهم حرام عليهم ونار في بطونهم . النهاية في غريب الحديث (٤ / ٣٠٨) .

(٥) صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٤ / ١٩٨٢) رقم (٢٥٥٨) ، صحيح ابن حبان كتاب البر والإحسان باب صلة الرحم وقطعها (٢ /١٩٥) رقم (٤٥٠) .

وإذا كان الإحسان إلى الخلق مطلوباً ويؤجر الإنسان عليه فإن الإحسان إلى الأقارب والأرحام تضاعف فيه الحسنات .

وفي الحديث : " الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة رحم " (١) .

ووعد الله واصل الرحم بطول العمر وكثرة المال فقال النبي ﷺ : " من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه " (٢) .

---

(١) الترمذي كتاب الزكاة باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة (٢ / ١٤٢) رقم (٦٥٨) ، صحيح ابن خزيمة كتاب الزكاة باب استحباب إيثار المرء بصدقته قرابته دون الأباعد (٤ / ٧٧) رقم (٢٣٨٥) .

(٢) البخاري كتاب الأدب باب من بُسط له في الرزق بصلة الرحم (١٠ / ٤٢٩) رقم (٥٩٨٥) ، مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٤ / ١٩٨٢) رقم (٢٥٥٧) .

بيان أركان الإسلام

قال الإمام مسلمٌ رحمه الله : حدثنا قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف بن عبد الله الثقفي عن مالك بن أنس فيما قُرِئَ عليه عن أبي سهيل عن أبيه أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول : جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ من أهل نجدٍ ثائر الرأس نسمع دويَّ صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : " خمس صلواتٍ في اليوم والليلة " فقال : هل عليَّ غيرهن ؟ قال : " لا إلا أن تطوَّع وصيام شهر رمضان " فقال : هل عليَّ غيره ؟ . فقال : " لا إلا أن تطوع " وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة فقال : هل عليّ غيرها ؟ قال : " لا إلا أن تطوَّع " ، قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه ، فقال رسول الله ﷺ : " أفلح إن صدق " .

وفي رواية : قال رسول الله ﷺ : " أفلح وأبيه إن صدق " أو " دخل الجنة وأبيه إن صدق " .

أولاً : تخريج الحديث

هذا الحديث أخرجه :

أ – البخاري كتاب الإيمان باب الزكاة من الإسلام ١٣٠/١ رقم : ٤٦ .

ب – مسلم كتاب الإيمان باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ٤٠/١ رقم : ١١ .

ج – أبو داود كتاب الصلاة ١٠٤/١ رقم : ٣٩١ .

د – النسائي كتاب الصلاة باب كُم فرضت في اليوم والليلة ١٠٢ / ٢٢٦ .

هـ - مالك في الموطأ كتاب قصر الصلاة في السفر باب جامع الترغيب في الصلاة ص ١٥٩ .

و - أحمد في المسند ٢/١٧٥ رقم : ١٣٩٠ .

ز - الدارمي في سننه كتاب الصلاة باب في الوتر ١ / ٤٤٧ رقم ١٥٧٨

ثانياً : إسناد الحديث

شيخ الإمام مسلم في هذا الحديث هو :

قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف بن عبد الله الثقفي أبو رجاء البغلاني ثقة ثبت روى له الجماعة ، توفي سنة أربعين ومائتين .

وشيخه هو : الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي أبو عبد الله المدني الفقيه ، إمام دار الهجرة رأس المُتقنين وكبير المُتثبّتين روى له الجماعة، توفي سنة تسعٍ وسبعين ومائة .

وأبوه هو : مالك بن أبي عامر أبو أنس الأصبحي جد مالك بن أنس الفقيه ثقة روى له الجماعة ، توفي سنة أربعٍ وسبعين .

والصحابي راوي الحديث هو :

طلحة بن عبيد الله بن عثمان القرشي التيمي أبو محمد المكي [1] المعروف بطلحة الخير وطلحة الفياض لكرمه وكثرة جوده ، أسلم قديماً على يد أبي بكر الصديق فكان المشركون يشدُّونهما معاً في حبلٍ واحد ، ولذلك كان يقال لأبي بكر وطلحة : القرينان ، أوذي كثيراً من أجل إسلامه ثم هاجر إلى المدينة وآخى النبي ﷺ بينه وبين أبي أيوب الأنصاري ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا بدراً ، فإنه كان غائباً عنها في تجارةٍ له إلى الشام أو لرسالة ، ولهذا

[1] راجع ترجمته في : الطبقات الكبرى لابن سعد (١١٤/٣) ، سير أعلام النبلاء (٢٣/١) ، البداية والنهاية (٢٣٤/٧) ، الإصابة (٤٣٠/٣) .

ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره من بدر وشهد أُحُداً وكانت له اليد البيضاء فيها وقى النبي ﷺ بيده وصدّ عنه سهام المشركين حتى شُلّت يده فقال رسول الله ﷺ : " أوجب طلحة " [١] أي : استحق الجنة ، وكان الصدّيق إذا حدّث عن يوم أحد يقول : ذاك اليوم كان كله لطلحة [٢] .

وطلحة أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الثمانين الذين سبقوا إلى الإسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق وأحد الستة أصحاب الشورى .

صحب رسول الله ﷺ فأحسن صحبته وتُوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ حضر وقعة الجمل فاجتمع به الإمام علي ووعظه فتأخّر حتى وقف في بعض الصفوف فجاءه سهم غرب فوقع في ركبته فمات ، وكان ذلك سنة ستٍ وثلاثين وهو ابن اثنتين وستين سنة .

ومناقبه وفضائله كثيرة : قال أبو هريرة : كان رسول الله ﷺ على جبل حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فتحرّكت الصخرة فقال رسول الله ﷺ : " اهدأ فما عليك إلا نبيّ أو صدّيقٌ أو شهيد " [٣] .

كان طلحة مشهوراً بالجود والكرم ، حدّث ابنه موسى عن أبيه أنه أتاه مال من حضرموت سبعمائة ألف فبات ليلته يتململ فقالت له زوجته : مالك ؟ قال : تفكّرتُ منذ الليلة فقلت ما ظن رجلٍ بربه يبيت وهذا المال في بيته ؟ قالت : فأين أنت عن بعض أخلائك فإذا أصبحت فادع بجفانٍ وقصاعٍ فقسّمه

---

[١] الترمذي كتاب المناقب باب مناقب طلحة بن عبيد الله (٥ / ٤١٢) ، وقال : حديث حسن صحيح غريب ، وأحمد في مسنده (٢ / ١٩٤) رقم : ١٤١٧ قال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

[٢] تهذيب الكمال (١٣ / ٤١٣) .

[٣] مسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل طلحة والزبير (٤ / ١٨٨٠) رقم : ٢٤١٧ .

فقال لها : رحمك الله إنك موفَّقة بنت مُوفَّق – وهي أم كلثوم بنت الصـــديق – فلما أصبح دعا بجفانٍ فقسمها بين المهاجرين والأنصار فقالت له زوجته : أبـــا محمد أما كان لنا في هذا المال من نفس ؟ قال : فأين كنتِ منذ اليوم ؟ فشـــأنك بما بقي قالت : فكانت صرةٌ فيها نحو ألف درهم (١) .

روى طلحة عن النبي ﷺ ثمانيةً وثلاثين حديثاً اتفق البخاري ومسلم على حديثين منها وانفرد له البخاري بحديثين ومسلم بثلاثة أحاديث .

وروى عنه بنوه : يحيى وموسى وعيسى وروى عنه أيضاً : قيس بن أبي حازم والأحنف بن قيس والسائب بن يزيد ومالك بن أبي عامر الأصبحـــــي وأبو عثمان النهدي وأبو سلمة بن عبد الرحمن وغيرهم .

حدث بينه وبين علي بن أبي طالب خلافٌ مبني على الاجتهاد فلما وعظه عليّ تاب وعزم على العودة وعدم محاربته ولكنه قُتل قبل ذلك .

قال علي بن أبي طالب : إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان ممن قال الله فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (٢)

وعن سعيد بن المسيب أن رجلاً كان يقع في طلحة والزبير وعثمـــان وعلـــي رضي الله عنهم فجعل سعد بن أبي وقاص ينهاه ويقول : لا تقع في إخواني فأبى فقام سعد فصلَّى ركعتين ثم قال : اللهم إن كان مُسخِطاً لك فيما يقول فأرني فيه اليوم آية واجعله للناس عبرة ، فخرج الرجل فإذا ببختى (٣) يشق الناس فأخـــذه بالبلاط (٤) فوضعه بين كركرته (٥) والبلاط فسحقه حتى قتله .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١ / ٣١) .

(٢) سورة الحجر الآية : ٤٧ .

(٣) هو نوعٌ من الإبل الخراسانية .

(٤) هي الحجارة المفروشة في الدار وغيرها .

(٥) الكركرة بكسر الكاف : رحى زور البعير أو صدر كل ذي خف .

قال سعيد بن المسيب : فأنا رأيت الناس يتبعون سعداً فيقولون له : هنيئاً لك أبا إسحاق أجيبت دعوتك [١].

بعد وفاة طلحة ببضعٍ وثلاثين سنة رأته عائشة ابنته في المنام فقال لها : حوّلوني من هذا المكان فإن الترقُد آذاني فركبت في حشمها فضربوا عليه بناءً واستثاروه فوجدوه كهيئتة يوم دُفن لم يتغير منه إلا شُعيراتٍ في إحدى شقي لحيته فاشتروا داراً من دور أبي بكرة فدفنوه فيها [٢] .

ثالثاً : ملاحظات على الإسناد

[١] تنوَّعت صيغ الأداء في هذا الإسناد بين التحديث والقراءة والسماع والعنعنة وهي محمولة على الاتصال إذا لم يكن الراوي مدلِّساً مع إمكان المعاصرة .

[٢] روى قتيبة بن سعيد هذا الحديث عن مالك قراءةً عليه ، وقد بيّن قتيبة أنه سمع الحديث قراءةً على مالك فلم يكن قتيبة هو القارئ والقراءة على الشيخ هي إحدى طرق تحمُّل الحديث والرواية بها صحيحة بلا خلافٍ بين العلماء .

[٣] فيه رواية مالك بن أنس عن عمه نافع بن مالك الأصبحي وهذا من لطائف الإسناد لأنه من رواية الأقران .

[٤] فيه رواية نافع بن مالك أبي سهيل عن أبيه وهذا من لطائف الإسناد لأنه من رواية الأبناء عن الآباء .

---

[١] البداية والنهاية (٧ / ٢٣٥) .

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد (٣ / ١٢٧) ، سير أعلام النبلاء (١ / ٤٠) .

[٥] أبو سهيل يُعدُّ من الطبقة التي تلي الوسطى من التابعين وأبوه يُعدُّ من كبَار التابعين فهما معدودان من طبقة واحدة وهي طبقة التابعين وهذا من لطائف الإسناد لأنه من رواية الأقران .

[٦] رجال هذا الإسناد كلهم مَدنيون عدا قتيبة بن سعيد فإذا استثنينا قتيبة كان إسناد هذا الحديث مسلسلاً بالمدنيين وقد روى البخاري هذا الحديث عن إسماعيل بن أبي أويس عن مالك وإسماعيل مدني فالإسناد عند البخاري مسلسل بالمدنيين .

[٧] أبو سهيل عم الإمام مالك وهو يروي عن أبيه مالك بن أبي عامر ومالك هذا حليف طلحة بن عبيد الله وعند البخاري الراوي عن مالك هو إسماعيل بن أبي أويس وهو ابن أخت الإمام مالك ، فبهذا يصير الإسناد مسلسلاً بالأقارب ، لأنه من رواية إسماعيل عن خاله عن عمه عن أبيه عن حليفه .

رابعاً : المباحث اللغوية

نجد : بفتح النون وسكون الجيم والنجد هو : ما ارتفع من الأرض وهو اسمٌ خاصٌ للناحية الواقعة بين الحجاز والعراق والجمع نِجاد ونُجُود وأَنْجُد .

ثائر الرأس : يجوز فيه الرفع والنصب أما الرفع فعلى أنه صفة لرجل ويجوز نصبه على الحال والمراد أن شعره متفرِّقٌ من ترك الرفاهية ، فشعره منتفشٌ منتشر يقال : ثار الغبار أي : انتفش وانتشر وفي هذا إشارة إلى قرب عهده بالوفادة .

وأوقع الرسول ﷺ اسم الرأس على الشعر لأنِ المراد : ثائر شعر الرأس إما مبالغةً كأنه جعل نفس الرأس ذا ثوران على طريق المبالغة ، وإما لأن الشعر منه ينبُت كما يُطلق اسم السماء على المطر لأنه من السماء ينزل أو يكون من باب حذف المضاف بقرينة عقلية .

نسمع : بالنون المفتوحة للجمع وعند البخاري وغيـره يُسـمع باليـاء المضمومة على البناء للمجهول وكذا في نفقه .

دوي صوته : بفتح الدال وكسر الواو وتشديد الياء المفتوحة مفعول نسمع والدوي هو : صوتٌ مرتفعٌ مُتكرِّر غير مفهوم فهو صوتٌ شديد لا يُفهـم منـه شيء كدوي النحل وإنما كان السبب في ذلك أن هذا الرجل نادى من بعيد فلمـا اقترب فُهِم كلامه .

ولا نفقه : أصل الفقه : الفهم وهو مُشتقٌ مـن الشـق والفـتح يقـال : فقِه – بكسر القاف – الرجل يفقه فقهاً إذا فهم وعلم ، وفقُه – بضم القاف – يفقه إذا صار فقيهاً عالماً وقد جعله العرف خاصاً بعلم الشريعة وتخصيصـاً بعلـم الفروع منها .

ما يقول : ما موصولة بمعنى الذي وصلِتها : جملة يقول والعائد محذوف تقديره ما يقوله .

حتى : المراد بها هنا الانتهاء إلى الغاية بمعنى إلى أن دنا .

دنا : من الدنو وهو القرب .

فإذا هو يسأل عن الإسلام : إذا للمفاجأة وهو مبتدأ ويسأل عن الإسـلام خبره .

خمس : برفع خمس على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هي أو بنصبها على تقدير فعل محذوف مثل : خذ خمس صلوات أو هاك أو نحوهما أو بجرها على أنه بدل من الإسلام وفيه حذفٌ تقديره : إقامة خمس صـلوات لأن عـين الصلوات الخمس ليست عين الإسلام ، بل إقامتها من شرائع الإسلام .

صلوات : أصل الصلاة في كلام العرب : الدعاء مأخوذ من صلّى يُصلّي إذا دعا ثم استعملها الشرع في : القيام والركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة .

قال ابن جرير : أرى أن الصلاة سُمِّيت صلاةً لأن المصلّي يتعرض لاستنجاح طُلبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربه من حاجاته .

وقيل : هي مشتقة من الصلَوين إذا تحركا في الصلاة عند الركوع والسجود وهما : عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتنفان عُجب الذَنَب ومنه سُمّي المصلي وهو : التالي للسابق في حلبة الخيل وفيه نظر .

وقيل : هي مشتقة من الصلى وهو الملازمة للشيء من قوله تعالى : ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ ﴾ أي لا يلزمها ويدوم فيها ﴿ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ [1] .

وقيل : مشتقة من تصلية الخشبة في النار لتُقوَّم كما أن المصلي يُقوِّم عوجه بالصلاة قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [2] واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر والله أعلم [3]

هل عليّ غيرها : هل للاستفهام وعليّ خبر مقدم وغيرها بالرفع مبتدأ مؤخر .

تطوع : بتشديد الطاء والواو وأصله تتطوع بتاءين فأُدغمت إحداهما في الطاء ويجوز تخفيف الطاء على حذف إحداهما ويجوز إظهار التاءين من غير إدغام والمشهور التشديد ومعناه : إلا أن تفعله بطواعيتك .

---

[1] سورة الليل (١٥) .

[2] سورة العنكبوت (٤٥) .

[3] راجع : تفسير ابن كثير (١ / ٤٣) .

رمضان : رمضان مصدر رمض إذا احترق من الرمضاء فأضيف إليه الشهر وجُعل عَلَماً وهو ممنوع من الصرف للتعريف والألف والنون وجمعه رمضانات وأرمضاء بوزن أصفياء والرمض بفتحتين : شدة وقع الشمس على الرمل وغيره يقال : رمض اليوم إذا اشتدَّ حره ورمضت قدمه أي : احترقت . سُمِّي شهر رمضان بهذا الاسم : لأنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سمُّوها بالأزمنة التي وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسُمِّي بذلك.

وقيل : هو مشتقٌ من رمض الصائم أي اشتد حر جوفه .

وقيل : لارتماضهم فيه من حر الجوع ومقاساة شدته .

أو لأنه يحرق الذنوب .

الزكاة : الزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد .

يُقال : زكا الزرع والمال يزكو إذا كثر وزاد ، ورجلٌ زكي أي : زائد الخير وسُمِّي الإخراج من المال زكاةً وهو نقصٌ منه من حيث ينمو بالبَرَكة وبالأجر الذي يثاب به المزكي . ويقال : زرعٌ زاكٍ بيِّن الزكاة وزكأت الناقة بولدها تزكأ به : إذا رمت به من بين رجليها .

فأدبر الرجل : من الإدبار وهو التولي .

أفلح : أي الرجل وأصل الفلاح : البقاء والفوز والظفر من الإفلاح .

وقيل : هو الظفر وإدراك البُغية .

وقيل : الفلاح عبارة عن أربعة أشياء بقاء بلا فناء وغنىً بلا فقر وعز بلا ذل وعلم بلا جهل ، ولا توجد كلمة في اللغة أجمع للخيرات من هذه الكلمة ، والعرب تقول لكل من أصاب خيراً : مفلح .

إن صدق : أي في كلامه وجواب إن محذوف والصدق هو : مطابقة الخبر للواقع .

الجنة : الحديقة ذات الشجر والنخل ولا تُطلق الجنة في كلام العرب إلا إذا كان فيها نخلٌ وعنب فإن لم يكن فيها نخل وعنب وكانت ذات شجر فهي الحديقة وليست بجنة .

والجنة هي دار النعيم في الدار الآخرة .وهي مأخوذة من الاجتنان وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها وسُميت بالجنة وهي المرة الواحدة من مصدر جنّه جناً إذا ستره ، فكأنها سترة واحدة لشدة التفافها وإظلالها وتجمع على جِنان وجنَّات .

خامساً : قضايا الحديث

القضية الأولى

اختلف العلماء في تحديد اسم هذا الرجل السائل في هذا الحديث على رأيين :

الأول : قال ابن عبد البر والقاضي عياض وابن بطال وابن التين وابن بشكوال وابن الطاهر والمنذري وغيرهم : السائل هو: ضمام بن ثعلبة وافد بني سعد بن بكر ، وقد استدلُّوا لصحة هذا القول بعدة أدلة منها :

١. أن الإمام مسلم أورد قصة ضمام عقب حديث طلحة مما يُشعر أنهما عنده واحد خاصةً وبينهما تشابه واضح .
٢. لأن في آخر حديثه : لا أزيد على هذا ولا أنقص .

وهذه رواية مسلم لحديث ضمام لتقف على التشابه بينهما .

عن أنس بن مالك قال : نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يُعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجلٌ من البادية فقال : يا محمد أتانا رسولك ، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ؟ قال : " صدق " : فمن خلق السماء ؟ قال : " الله " قال : فمن خلق الأرض ؟

قال : " الله " قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : " الله " قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك ؟ قال : " نعم " قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ؟ قال : " صدق " قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : " نعم " قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا قال : " صدق " قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : " نعم " قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا قال : " صدق " قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : " نعم " قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً قال : " صدق " قال : ثم ولَّى قال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن ، فقال النبي ﷺ : " لئن صدق ليدخلن الجنةِ " [1] .

الثاني : قال الإمام القرطبي وغيره السائل ليس ضماماً ولم يحددوا اسم هذا الأعرابي السائل وقد استدلوا على ذلك بعدة أدلة ، منها :

١. أن سياق الحديثين مختلف .
٢. أن أسئلتهما مختلفة وألفاظهما متباينة .

قال الإمام القرطبي : ودعوى أنهما قصة واحدة دعوى فرط وتكلف شطط من غير ضرورة نقلية ولا عقلية [2] .

٣. أن من ترجم لضمام بن ثعلبة كابن إسحاق وابن عبد البر وابن سعد وغيرهم لم يذكروا لضمام غير حديث واحد فأشعر هذا بأنه ليس السائل في هذا الحديث . قال ابن حجر : وهذا غير لازم [3] .

---

[1] مسلم كتاب الإيمان باب السؤال عن أركان الإسلام (١ / ٤١) رقم : ١٢ .
وأخرجه : البخاري كتاب العلم باب القراءة والعرض على المحدث (١ / ١٧٩) رقم : ٦٣ .
[2] المفهم (١ / ١٥٧) .
[3] فتح الباري (١ / ١٣١) .

والظاهر أنهما قضيتان مختلفتان والسائل مختلف وقضية تشابه الأسئلة أو اتحادها أحياناً مع اختلاف السائل كثيرة في السنة .

القضية الثانية

جاء هذه الأعرابي من نجد ليسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام أي عن شرائع الإسلام ولو كان السؤال عن نفس الإسلام لكان الجواب غير هذا ، فلقد سُئل رسول الله ﷺ عن الإسلام أي عن حقيقته فقال : " الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ﷺ وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً " (١) ، وإنما قلنا ذلك لأن الجواب ينبغي أن يكون مطابقاً للسؤال ، فلما أجاب النبي ﷺ بقوله : خمس صلوات عرفنا أن سؤاله عن أركان الإسلام وشرائعه وليس عن حقيقته فوقعت الإجابة مطابقة للسؤال .

وقد أورد البعض عدة إشكالاتٍ على هذا الحديث :

الإشكال الأول :

إذا كان السؤال عن شرائع الإسلام فلماذا لم يذكر له رسول الله ﷺ الشهادتين وما بعدها لا يصلح إلا بها وقد أُجيب على ذلك بعدة أجوبة :

١. لم يذكر له الشهادتين لأنه علم أنه يعلمها فأخبره بما يجهل .
٢. لم يخبره بها لأنه كان مسلماً وإنما كان سؤاله عن الفروع بدليل قوله في إحدى الروايات : أخبرني بما فرض الله عليّ من الصيام ؟ (٢) .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (١٤٠/١) رقم ٥٠ ، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١ / ٣٦) رقم ٨ .

(٢) البخاري كتاب الصوم باب وجوب صوم رمضان (٤ ـ ١٢٣) رقم ١٨٩١ .

٣. لأن النبي ﷺ علم أنه إنما يسأل عما تعيَّن عليه فعله من شرائع الإسلام الفعلية دون القولية .

٤. أن النبي ﷺ ذكرها فلم يذكرها الراوي لشهرتها .

٥. أن يكون النبي ﷺ ذكرها فلم يسمعها طلحة لبعد موضعه منه ، وهذا وما قبله ضعيف لأن فيه نسبة التقصير في إبلاغ كلام النبي ﷺ إلى الراوي أو الصحابي وقد ندب النبي ﷺ إلى ضبط كلامه وحفظه وتبليغه على الطريقة التي سُمعت منه فقام الصحابة والرواة -خاصةً رواة الصحيحين- بذلك أتمَّ قيام .

الإشكال الثاني :

إذا كان السؤال عن شرائع الإسلام وقد ذكر له النبي ﷺ الصلاة والزكاة والصيام فلماذا لم يذكر له الحج وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ؟

وقد أجاب العلماء على ذلك بعدة أجوبة منها :

١. أن الحج لم يكن قد فُرض بعد وقد اختلف العلماء في وقت فرض الحج فقيل سنة تسع وقيل سنة خمس ، قال القاضي عياض : والأول أصح ووفادة ضمام كانت سنة خمس [1] .

٢. أن النبي ﷺ ذكره ولكن الراوي اختصره والدليل على هـذا ما ذكره البخاري في إحدى روايات الحديث أن رسول الله ﷺ أخبره بشرائع الإسلام [2] فدخل فيه باقي المفروضات بل والمندوبات [3] .

---

[1] إكمال المعلم (١ / ٢١٣) .

[2] البخاري كتاب الصوم باب وجوب صوم رمضان (٤ / ١٢٣) رقم : ١٨٩١ .

[3] فتح الباري (١ / ١٣١) .

٣. قيل إن هذا الرجل إنما جاء ليسأل رسول الله ﷺ عن حاله وعما يناسبه من شرائع الإسلام فأجابه النبي ﷺ بما عرف من حاله وبما علم أنه يقدر عليه ، قال القرطبي : لعله ممن لم يكن الحج واجباً عليه لأنه غير مستطيع [١] .

٤. لم يذكر له رسول الله ﷺ الحج لأنه واجبٌ على التراخي فأخبره بما يجب عليه فعله حالاً .

الإشكال الثالث :

وقع في هذه الرواية أن رسول الله ﷺ قال للرجل بعد أن ولّى : أفلح وأبيه إن صدق أو دخل الجنة وأبيه إن صدق .

وقد جاء النهي عن الحلف بالآباء في أحاديث كثيرة .

فعن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : " إن الله ﷻ ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم " [٢] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " لا تحلفوا بآبائكـــم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد – أي الأصنام – ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون " [٣] .

وعن عبد الرحمن بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : " لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم " [٤] .

---

[١] المفهم (١ / ١٥٨) .

[٢] البخاري كتاب الأيمان والنذور باب لا تحلفوا بآبائكم (١١ / ٥٣٨) رقم : ٦٦٤٧ ، مسـلم كتـاب الأيمان باب النهي عن الحلف بغير الله (٣ / ١٢٦٦) رقم : ١٦٤٦ .

[٣] أبو داود كتاب الأيمان والنذور باب في كراهية الحلف بالآباء (٣ / ٢١٩) رقم : ٣٣٤٨ ، النسائي في كتاب الأيمان والنذور باب الحلف بالأمهات (٧ / ٥) ورجاله ثقات .

[٤] مسلم كتاب الأيمان باب من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله (٣ / ١٢٦٨) رقم : ١٦٤٨ .

فكيف نجمع بين هذه الأحاديث والأحاديث الأخرى الصحيحة والتي جاء فيها أن رسول الله ﷺ حلف بأبيه .

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : أيّ الصدقة أعظم أجراً ؟ فقال : " أما وأبيك لتنبأنه أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان " [١] .

وفي حديثٍ اخر عن أبي هريرة قال : جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله نبئني ما أحق الناس مني بحسن الصحبة ؟ فقال : " نعم وأبيك لتنبأن ... الحديث [٢] .

وقد ورد أن أبا بكر ﷺ حلف بأبيه أيضاً فعن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه أن رجلاً من أهل اليمن أقطع اليد والرجل قدم فنزل على أبي بكر الصديق فشكا إليه أن عامل اليمن قد ظلمه فكان يُصلِّ من الليل فيقول أبو بكر : وأبيك ما ليلك بليل سارق ثم إنهم فقدوا عقداً لأسماء بنت عميس امرأة أبي بكر الصديق فجعل الرجل يطوف معهم ويقول : اللهم عليك بمن بيّت أهل هذا البيت الصالح فوجدوا الحُليّ عند صائغٍ زعم أن الأقطع جاءه فاعترف به الأقطع أو شهد عليه به فأمر به أبو بكر الصديق فقطعت يده اليسرى ، وقال أبو بكر : والله لدعاؤه على نفسه أشد عندي عليه من سرقته [٣] إلى غير ذلك مما ورد عن رسول الله ﷺ أو بعض صحابته من الحلف بالآباء مع علمهم بالنهي عنه .

---

[١] مسلم كتاب الزكاة باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح ٢/٧١٦رقم :٢٣٠١.

[٢] مسلم كتاب البر والصلة باب بر الوالدين وأنهما أحق به ٤ / ١٩٧٤ رقم : ٢٤٥٨ .

[٣] موطأ مالك كتاب الحدود باب جامع القطع ص ٦٣٧ .

وقد أجاب العلماء على ذلك بَعدَّة أجوبة منها :

[١] أن هذه اللفظة غير ثابتة في الحديث وأنها قد صُحِّفت على بعض الرواة من قولــه " والله " . وهذا وجهٌ ضعيف لثبوت هذا اللفظ في أكثر من حديثٍ صحيح كما سبق بيانه وأن هذا الرد مبني على الاحتمال والأحاديث الصحاح لا تُردُّ بالاحتمال إضافةً لما فيه من اتهامٍ للراوة وهم ثقاتٌ ضابطون .

[٢] قال البيهقي : في القَسَم حذفٌ تقديره : ورب أبيه .

[٣] أن ذلك خاصٌ بالشارع دون أمته وأُجيب على ذلك : بوروده عن أبي بكر أيضاً وبأن الخصائص لا تثبُت بالاحتمال بل لابد من وجود نصٍ يُفيد ذلك ولا نصّ في المسألة .

[٤] قال السهيلي : المراد بهذا الحلف : التعجب واستُدلَّ على ذلك بأنه لم يرد بلفظ أبي وإنما ورد بلفظ وأبيه أو وأبيك بالإضافة إلى ضمير المخاطب حاضراً أو غائباً .

[٥] قال الماوردي : إن الحلف بغير الله كان مباحاً وجائزاً ثم نُسخ بعد ذلك .

قال السبكي : وأكثر الشراح عليه . وهذا يحتاج إلى دليل .

وقال ابن العربي : روي أنه ﷺ كان يحلف بأبيه حتى نُهي عن ذلك .

وقال المنذري : دعوى النسخ ضعيفة لإمكان الجمع ولعدم تحقق التاريخ .

وقال السهيلي : لا يصح لأنه لا يُظن أنه يحلف بغير الله و يُقسم بكافر تالله إن ذلك لبعيدٌ من شيمته .

[٦] أن القسم بالأب كان يقع في كلامهم للتعظيم تارةً وللتأكيد تارةً أخرى والنهي إنما وقع عن الحلف تعظيماً أما الحلف لمطلق التأكيد فهو مباح ومن أمثلة ما وقع في كلام العرب للتأكيد لا للتعظيم قول الشاعر:

فإن تك ليلى استودعتني أمانة ** فلا وأبـــي أعـــدائها لا أذيعهـــا

فلا يُظن أنه يقصد تعظيم والد أعدائها وإنما أراد توثيق الكلام وتأكيده .

قال البيضاوي : وهذا اللفظ من جملة ما يُزاد في الكلام لمجرد التقرير والتأكيد ولا يُراد به القسم .

ورُدّ على هذا الجواب بأن في بعض طرق حديث عمر أنه كـــان يقول: لا وأبي فقال له النبي ﷺ : " لا تحلفوا بآبائكم " فلولا أنه أتى بصيغة يقصد بها الحلف ما قال له النبي ﷺ ذلك .

[٧] أن هذا اللفظ كان يجري على ألسنتهم ولا يُراد به حقيقته كما يجري في لغو اليمين مثل لا والله وبلى والله وهذا كثيرٌ شائعٌ في كلامهم مثل : عقرى (١) ، حلقى (٢) ، ثكلتك أمك (٣) ، تربت يداك (٤) وما شابهها وإنما ورد النهي فيمن أراد حقيقة القسم وهذا ما اختاره البيهقي ، وقال النووي : إنه الجواب المرضي (٥) وأشعر كلام ابن حجر باختياره (٦) وهو الصحيح.

---

(١) البخاري كتاب الحج باب التمتع والإقران والإفراد بالحج ٣ / ٤٩٢ رقم : ١٥٦١، مسلم كتاب الحـــج باب بيان وجوه الإحرام ٢ / ٨٧٧ رقم : ١٢١١ .

(٢) البخاري كتاب الحج باب التمتع والإقران والإفراد بالحج ٣ / ٤٩٢ رقم : ١٥٦١، مسلم كتاب الحـــج باب بيان وجوه الإحرام ٢ / ٨٧٧ رقم : ١٢١١ .

(٣) راجع : البخاري كتاب الأذان باب التكبير إذا قام من السجود ٢ / ٣١٧ رقم : ٧٨٨ ، وكتاب المغازي باب غزوة الحديبية ٧ / ٥١١ رقم : ٤١٦٠ .

(٤) البخاري كتاب النكاح باب الأكفاء في الدين ٩ / ٣٥ رقم : ٥٠٩٠ ، مسلم كتاب الحيض باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها ١ / ٢٥٠ رقم : ٣١٠ .

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (١ / ١٦٨) .

(٦) فتح الباري (١١ / ٥٤٢) .

الإشكال الرابع :

قال البعض : كيف أثبت النبي ﷺ الفلاح لهذا الأعرابي السائل بمجرد فعل الواجبات المذكورة في الحديث دون أن يذكر له شيأ من المنهيات ؟

وقد أجاب العلماء على ذلك بإجاباتٍ عدة :

أولها : أجاب ابن بطال باحتمال أن يكون ذلك وقع قبل ورود فرائض النهي . قال ابن حجر : وهو عجيب منه لأنه جزم بأن السائل هو ضمام وأقدم ما قيل في تاريخ وفوده على المدينة أنه وفد سنة خمسٍ وقيل بعد ذلك وقد كان أكثر المنهيات واقعاً قبل ذلك [(١)] .

ثانيها : قال النووي الجواب أنه جاء في رواية البخاري في آخر هذا الحديث زيادة توضح المقصود قال : فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد ولا أنقص مما فرض الله تعالى عليّ شيئاً فعلى عموم قوله : بشرائع الإسلام ، وقوله : مما فرض الله عليّ يزول الإشكال في الفرائض .

وأما النوافل فقيل يُحتمل أن هذا كان قبل شرعها .

وقيل : يُحتمل أنه أراد : لا أزيد في الفرض بتغيير صفته كأنه يقول : لا أصلي الظهر خمساً وهذا تأويل ضعيف .

ويُحتمل أنه أراد أنه لا يُصلي النافلة مع أنه لا يُخلُّ بشيءٍ من الفرائض وهذا مفلح بلا شك وإن كانت مواظبته على ترك السنن مذمومة وتُردُّ بها الشهادة إلا أنه ليس بعاصٍ بل هو مفلحٌ ناج والله أعلم [(٢)] .

---

(١) فتح الباري (١ / ١٣٣) .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (١ / ١٦٧) .

وقال ابن حجر : الصواب أن ذلك داخلٌ في عموم قول النبي ﷺ في بعض روايات الحديث فأخبره بشرائع الإسلام وذلك يشمل الفرائض والنواهي [١] .

الإشكال الخامس :

جزم النبي ﷺ بالفلاح لهذا الأعرابي في حالة عدم النقصان وهذا واضح ، فكيف جزم له بالفلاح في حالة الزيادة مع أن هذا مشعرٌ بانتفاء الفلاح عنه عند الزيادة وهذا باطل .

إذ يُقال كيف أقرَّه النبي ﷺ على ترك الزيادة والتمادي في ترك سائر السنن مذموم ويوجب الأدب عند بعض أهل العلم ؟

قال المازري : لعله قال هذا ولم تُسن السنن حينئذٍ أو يكون فهم منه أنه لا يُغيّر الفروض التي ذكرها بزيادةٍ ولا نقصان وأن ذلك مراده بهذا القول [٢] .

وقال النووي : أثبت له النبي ﷺ الفلاح إذا أتى بما عليه وليس في الحديث أنه إذا أتى بزائدٍ على ذلك لا يكون مفلحاً لأنه إذا أفلح بالواجب ففلاحه بالواجب مع المندوب أولى [٣] .

الإشكال السادس :

أخبر النبي ﷺ هذا الأعرابي بما يجب عليه فحلف هذا الأعرابي أن لا يزيد على هذه الفرائض ولا ينقص فكيف أقرَّ النبي ﷺ هذا الأعرابي على الحلف على أن لا يزيد من فعل الخير ؟

---

[١] فتح الباري (١ / ١٣٣) .
[٢] المعلم (١ / ١٨٨) .
[٣] المنهاج للنووي (١ / ١٦٧) .

وقد ورد النكير على من حلف أن لا يفعل خيراً وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمع رسول الله ﷺ صوت خصومٍ بالباب عالية أصواتهما وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء وهو يقول : والله لا أفعل فخرج عليهما رسول الله ﷺ فقال : " أين المتألِّي على الله لا يفعل المعروف " فقال : أنا يا رسول الله فله أيُّ ذلك أحب [1] .

وقد أجاب العلماء على ذلك بأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص وهذا جارٍ على الأصل وهو : أنه لا إثم على غير تارك الفرائض ، فهو مفلحٌ إن أدَّاها وهذا لا يمنع أن يكون غيره أكثر فلاحاً منه لأنه يُؤدِّي الفرائض والسنن .

الإشكال السابع :

كيف أقرَّ النبي ﷺ هذا الرجل على الحلف بأن لا يزيد على فعل الفرائض ولا ينقص منها مع أن الزيادة في الخير مطلوبة ، وقد أجاب العلماء على ذلك بعدة أجوبة :

١. قال الطيبي : يُحتمل أن يكون هذا الكلام صدر من الرجل على طريق المبالغة في التصديق والقبول فكأنه قال : قبلت كلامك قبولاً لا مزيد عليه من جهة السؤال ولا نقصان من طريق القبول .

٢. قال ابن المنير : يُحتمل أن تكون الزيادة والنقص متعلِّقة بالإبلاغ لأنه كان وافد قومه ليتعلَّم ويُعلِّمهم .

---

[1] البخاري كتاب الصلح باب هل يُشير الإمام بالصلح (٥ / ٣٦٢) رقم : ٢٧٠٥ ، ومسلم كتاب المساقاة باب استحباب الوضع من الدين (٣ / ١١٩٢) رقم : ١٥٥٨ .

قال ابن حجر [١] : والاحتمالان مردودان بما جاء في رواية إسماعيل بن جعفر فإن نصَّها : " لا أتطوع شيئاً ولا أنقص مما فرض الله عليّ شيئاً " [٢] .

٣. قال المازري : مراده بقوله : لا أزيد ولا أنقص أي : لا أُغيِّر صفة الفرض بزيادةٍ ولا نقصان كمن ينقص الظهر مثلاً ركعة أو يزيد المغرب ركعة [٣] . وهذا ضعيف أيضاً لمخالفته لظاهر نص الحديث ، ويُعكِّر عليه أيضاً لفظ التطوع في رواية إسماعيل بن جعفر [٤] .

٤. قيل : يُحتمل أن يكون هذا القول صدر من الرجل قبل أن تُسنَّ السنن [٥]

٥. قيل : يُحتمل أن يكون الرجل أراد أنه لا يُصلي النوافل بل يُحافظ على كل الفرائض وهذا مفلح بلا شك وإن كانت المواظبة على ترك النوافل مذمومة .

٦. يُحتمل أن يكون المراد : لا أزيد على شرائع الإســـــلام ولا أنقص منها شيئاً وهو الأقرب والدليل على ذلك رواية البخاري التي قال فيها الرجل : والذي أكرمك لا أتطوع شيئاً ولا أنقص مما فرض الله تعالى عليّ شيئاً .

القضية الثالثة

بدأ رسول الله ﷺ يُعلِّم الأعرابي شرائع الإسلام وشعائره فبدأ بذكر الصلاة ، وقد جاء في رواية البخاري أن الرجل قال في سؤاله : أخبرني ماذا

---

[١] فتح الباري (١ / ١٣٣) .

[٢] البخاري كتاب الصوم باب وجوب صوم رمضان (٤ / ١٢٣) رقم : ١٨٩١ .

[٣] المعلم (١ / ١٨٨) .

[٤] راجع : فتح الباري (١ / ١٣٣) .

[٥] راجع : المعلم (١ / ١٨٨) .

فرض الله عليّ من الصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ : الصلوات الخمس فتبين بهذا مطابقة الجواب للسؤال ، وقد بدأ رسول الله ﷺ ذكر الشرائع بالصلاة بياناً لأهميتها ، فالصلاة هي غُرَّة العبادات وهي من الإسلام بمنزلة الرأس من الجسد وقد سبق بيان أهميتها .

ويُستفاد من سياق هذا الحديث أن الصلوات المفروضة هي الخمس فقط وأنه لا يجب شيء من الصلوات في اليوم والليلة غير الخمس .

ففيه ردّ على أبي حنيفة الذي قال بوجوب الوتر وهو لا يُسمِّيه فرضاً ، لأن الفرض عنده ما كان مقطوعاً بلزومه كالصلوات الخمس [١] والوتر سنة عند جمهور العلماء .

قال الخطابي : الحديث فيه دليل على أن الوتر غير مفروض ولا واجب وجوب حتم ولو كان فرضاً مفروضاً لكانت الصلاة ستاً لا خمساً [٢] .

وفي الحديث ردّ على من أوجب غير الصلوات الخمس كركعتَي الفجر أو صلاة الضحى أو صلاة العيد أو الركعتين بعد المغرب وغيرها .

القضية الرابعة

في الحديث أن رسول الله ﷺ قال للسائل عن شرائع الإسلام ، وصيام شهر رمضان .

وقد اختلف العلماء في حكم إطلاق لفظة رمضان غير مسبوقةٍ بشهر على ثلاثة مذاهب :

---

[١] المفهم (١ / ١٥٨ ، ١٥٩) .

[٢] عون المعبود (٢ / ٣٩) .

[١] المذهب الأول وهو للمالكية : قالوا بعدم جواز قول رمضان على انفراده وإنما يُقال : شهر رمضان مع كراهة إفراده ، واستدلوا لمذهبهم بعدة أدلة منها :-

(أ) أنه ورد ذكره في القرآن مُقيَّداً بشهر حيث قال الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [١] مع احتمال أن يكون حذف لفظ شهر من الأحاديث من تصرُّف الرواة .

قال ابن حجر : وكأن هذا هو السر في عدم جزم البخاري بالحكم [٢] حيث قال في ترجمته للحديث : هل يُقال رمضان أو شهر رمضان ؟ .

(ب) أن رمضان اسمٌ من أسماء الله تعالى فلا يُطلق على غيره إلا بقيد ، وكان عطاء ومجاهد يكرهان أن يقولا رمضان وإنما كانا يقولان نقول كما قال الله تعالى : شهر رمضان لأنا لا ندري لعل رمضان اسمٌ من أسماء الله تعالى . وحكاه البيهقي عن الحسن أيضاً .

[٢] المذهب الثاني : لابن الباقلاني من المالكية وأكثر الشافعية وهو جواز إفراده إن كانت هناك قرينة تصرف معناه إلى الشهر كأن يُقال : صُمنا رمضان ، وقُمنا رمضان ، ورمضان أفضل الشهور ، ويُندب طلب ليلة القدر في أواخر رمضان وأشباه ذلك ولا كراهة في هذا كله . وإنما يُكره إفراده إذا خِيف عليه الالتباس كأن يُقال : جاء رمضان ، وذهب رمضان، وأحب رمضان ونحو ذلك .

---

[١] سورة البقرة : ١٨٥ .

[٢] فتح الباري [٤/١٣٦] .

[٣] **المذهب الثالث** : هو مذهب البخاري والمحققين من العلماء والجمهور والقرطبي من المالكية والنووي من الشافعية وغيرهم أنه لا كراهة في إطلاق رمضان بقرينة وبغير قرينة وهذا هو المذهب الصحيح الذي تؤيده الأدلة ومنها :

(أ) أن الكراهـــة إنما تثبُت بنهي الشرع ولم يثبت في ذلك نهي وأما تقييده في القرآن بالشهر فهذا لا يمنع جواز إفراده لأن مجرد ذكره مقيداً لا يدل على منع ما عداه والأحاديث التي أفردته كثيرة ومتعددة والقول بأنها تصرُّفٌ من الرواة مع اختلاف رواتها ومخارجها قولٌ بلا برهان ورمي للرواة بالتساهل وهم المعروفون بالثقة وكمال الضبط .

وقد احتج البخاري لجواز ذلك بعدة أحاديث ، وقد ترجم النسائي في سننه لذلك أيضاً فقال : باب الرخصة في أن يُقال لشهر رمضان : رمضان [(١)] .

ثم أورد حديث أبي بكرة مرفوعاً : " لا يقولن أحدكم صمت رمضان ولا قمته كله " [(٢)] .

وحديث ابن عباس " عمرةٌ في رمضان تعدل حجة " [(٣)] .

وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة تُؤكِّد جواز إطلاق اللفظ دون تقييده بشهر .

---

(١) سنن النسائي كتاب الصيام باب الرخصة في أن يُقال لشهر رمضان : رمضان (٤ /١٣٠) .

(٢) أبو داود كتاب الصوم باب من يقول صمت رمضان كله (٢ / ٣٣٠) رقم : ٢٤١٥ ، النسائي كتاب الصيام باب الرخصة في أن يُقال لشهر رمضان : رمضان (٤ / ١٣٠) ، أحمد في المسند (١٥ / ٢٢٩) رقم : ٢٠٣٦٨ وإسناده صحيح .

(٣) البخاري كتاب جزاء الصيد باب حج النساء (٤ /٨٦) رقم : ١٨٦٣ ، مسلم كتاب الحج باب فضـــل العمرة في رمضان (٢ / ٩١٧) رقم : ١٢٥٦ .

وأما قولهم : إنه اسمٌ من أسماء الله تعالى وحكايتهم ذلك عن عطاء ومجاهد والحسن فقد ضعَّف البيهقي الطريق إلى الحسن وإلى مجاهد وعلى فرض ثبوت القول عنهم فالذي يُحتكم إليه هو كلام الله ورسوله ﷺ وكل أحدٍ يُؤخذ من كلامه ويُردُّ عليه إلا المعصوم ﷺ ولا عبرة بقول أحدٍ يُخالف حديث رسول الله ﷺ .

والحديث الذي استدلوا به على أن رمضان اسمٌ من أسماء الله تعالى هو ما رواه أبو معشر نجيح المدني عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسمٌ من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان " [١] .

قال أبو حاتم : هذا خطأ وإنما هو قول أبي هريرة وفيه : أبو معشر نجيح المدني . وضعفه ابن عدي الذي خرجه .

وقال الشوكاني : فيه محمد بن أبي معشر وهو ضعيف ورواه تمام في فوائده من حديث ابن عمر من غير طريق أبي معشر وهو منقطعٌ أيضاً . وكذلك أخرجه ابن النجار من حديث عائشة وسنده مظلم . ثم قال : والحديث موضوعٌ بلا ريب [٢] .

فالحديث يدور بين الضعف والوضع ومثل هذا الحديث لا تُردُّ به الأحاديث الصحيحة .

---

[١] أخرجه : البيهقي في السنن الكبرى (٤ / ٢٠١) رقم : ٧٦٩٣ وضعفه ، وابن عدي في الكامل (٥٣/٧) وضعفه ، والديلمي في مسند الفردوس (٥ / ٢٥) رقم : ٧٣٣٩ .

[٢] الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص ٨٧ .

قال النووي : قولهم إنه اسمٌ من أسماء الله تعالى ليس بصحيح ولم يصح فيه شئ وإن كان قد جاء فيه أثرٌ ضعيف وأسماء الله تعالى توقيفية لا تُطلق إلا بدليلٍ صحيح ولو ثبت أنه اسمٌ لم تلزم منه كراهة .

وهذا الحديث المذكور في الباب صريحٌ في الرد على المذهبين ولهذا الحديث نظائر كثيرة في الصحيح في إطلاق رمضان على الشهر من غير ذكر الشهر [١] .

والصوم أحد أركان الإسلام الخمسة ودعائمه العظيمة وفيه إعلاءٌ للجانب الروحي على الجانب المادي والخروج من أسْر الجسد وفيه تربيةٌ للإرادة وجهادٌ للنفس وتعويدٌ لها على الصبر وترك مألوفاتها والبعد عن شهواتها والحد من تأثير الغريزة الجنسية ، ولهذا وُصف للشباب غير القادر على الزواج .

يقول ابن القيم [٢] : " وللصوم تأثيرٌ عجيبٌ في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة وحمايتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها ، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ويُعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات فهو من أكبر العون على التقوى كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [٣] .

---

[١] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي [٧ / ١٨٨] .

[٢] فقه الصيام للدكتور القرضاوي (ص١٤) .

[٣] سورة البقرة (١٨٥) .

القضية الخامسة

ذكر رسول الله ﷺ أن من شرائع الإسلام الزكاة وهي إخراج قدرٍ مخصوصٍ من المال إذا بلغ نصاباً بشروطٍ مخصوصة ، وقد جاء في إحدى روايات الحديث أن الأعرابي قال : يا رسول الله أخبرني بما فرض الله عليّ من الزكاة قال الراوي فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام [١].

وقد تضمَّنت هذه الرواية أن في القصة أشياءً قد أُجملت واختُصرت منها : بيان نُصُب الزكاة فإنها جاءت في الحديث غير مفسَّرة ، وكذا أسماء الصلوات وهذا يؤذِن بأن مراعاة ألفاظ الرواية مشروطة فإذا التبس اللفظ على الراوي فإنه يُشير في اللفظ إلى ما ينبئ عنه كما فعل الراوي هنا .

وقد أرجع العلماء السبب في هذا الاختصار إلى أحد أمرين :

١. شهرة هذه الأشياء عندهم ومعرفة الخاصة والعامة بها .
٢. بيان أن القصد من القصة : أن المُتمسِّك بالفرائض ناجٍ وإن لم يفعل النوافل فكأن الراوي قصد إلى ما اعتقده الفائدة من الحديث واختصر ما عداها .

والزكاة ركنٌ من أركان الإسلام الخمسة وقد سبق بيان فضلها وفائدتها .

القضية السادسة

أخبر رسول الله ﷺ الأعرابي السائل بما يجب عليه من الفرائض ، فأقسم الأعرابي أن يلتزم بها من غير زيادةٍ ولا نقصان ، ويُستفاد من هـذا : جـواز الحلف في الأمور المهمة من غير استحلاف بل قد يُستحب الابتداء بـالحلف إذا كان القصد منه تفخيم أمرٍ من أمور الدين أو حث عليه أو تنفير من محذور وقد

---

[١] البخاري كتاب الصوم باب وجوب صوم رمضان (٤ / ١٢٣) رقم : ١٨٩١ .

جاء الحلف في أحاديثٍ كثيرة من غير استحلافٍ لتعظيم الأمر وتفخيمه وبيان أهميته منها :

١. قول رسول الله ﷺ : " يا أمة محمد والله ما من أحدٍ أَغْيَرُ من الله أن يزني عبده أو تزني أمته يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً " (١) .

٢. قول رسول الله ﷺ : " إني فرطٌ لكم وأنا شهيدٌ عليكم وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن وإني أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها " (٢) .

٣. قول رسول الله ﷺ : " والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن " قيل : من يا رسول الله ؟ قال : " الذي لا يأمن جاره بوائقه " (٣) .

القضية السابعة

حكم الرسول ﷺ لهذا الرجل بالفلاح إن صدق فيما التزم به من أداء الفرائض فإذا لم يصدُق فيما التزم به فإنه لا يُفلح ، وهذا بخلاف قول المرجئة الذين قالوا بإثبات الفلاح للمسلم بمجرد إيمانه بلسانه وإن لم يُصدِّق ذلك بقلبه وجوارحه لأن الإيمان عندهم قول بلا عمل .

---

(١) البخاري كتاب الجمعة باب الصدقة في الكسوف (٢ / ٦١٥) رقم : ١٠٤٤ ، ومسلم كتاب الكسوف باب صلاة الكسوف (٢ / ٦١٨) رقم : ٩٠١ .

(٢) البخاري كتاب الجنائز باب الصلاة على الشهيد (٣ / ٢٤٨) رقم : ١٣٤٤ ، ومسلم كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٤ / ١٧٩٥) رقم : ٢٢٩٦ .

(٣) البخاري كتاب الأدب باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (١٠ / ٤٥٧) رقم : ٦٠١٦ .

والإيمان الذي يجلب الفلاح لصاحبه عند أهل السنة هو التصديق بالقلب والعمل بالأركان .

قال الإمام النووي : اتَّفق أهل السنة من المحدِّثين والفقهاء المتكلمين على أن المؤمن الذي يُحكم بأنه من أهل القبلة ولا يُخلَّد في النار لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك ونطق بالشهادتين فإن اقتصر على إحداهما لم يكن من أهل القبلة أصـــلاً إلا إذا عجز عن النطق لخللٍ في اللسان أو لعدم التمكُّن منه لمعاجلة المنية أو لغير ذلك فإنه يكون مؤمناً (١) .

فمدار الفلاح هو : التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين وفعل الفرائض وترك المحرمات وأما السنن وغيرها فهي تكميلاتٌ لا يفوت أصل الفلاح بها .

فكل من دخل الجنة فهو مفلح وإن تفاوتت مراتب الفلاح حسب تفاوت درجات المؤمنين في الجنة .

القضية الثامنـة

استدل الأحناف والمالكية بهذا الحديث على أن من شرع في صلاة نفلٍ أو صوم نفلٍ وجب عليه إتمامه فإذا أفسده وجب القضاء عليه ، وحكى ذلك الترمذي عن قومٍ من أصحاب النبي ﷺ (٢) .

وقد استدلوا على صحة قولهم بعدة أدلة ، منها :

١. قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ (٣) وإفساد التطوع بعد الشروع فيه إبطالٌ له فوجب قضاؤه .

---

(١) المنهاج (١ / ١٤٩) .

(٢) سنن الترمذي (٢ / ١٨١) .

(٣) سورة محمد : ٢٣ .

٢. قال ابن المنير : ليس في تحريم الأكل في صوم النفل من غير عذرٍ إلا الأدلة العامة كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ .

ثم ذكر رد الجمهور على هذا الدليل فقال : إلا أن الخاص يُقدَّم على العام [١] .

قال الإمام القرطبي : احتجَّ علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلُّل من التطوع – صلاةً كانت أو صوماً – بعد التلبُّس به لا يجوز لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه .

وقال من أجاز ذلك – وهو الإمام الشافعي وغيره :-

المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض فنُهي الرجل عن إحباط ثوابه، فأما ما كان نفلاً فلا لأنه ليس واجباً عليه فإن زعموا أن اللفظ عامٌ فالعام يجوز تخصيصه ووجه تخصيصه أن النفل تطوعٌ والتطوع يقتضي تخييراً [٢] .

وقال ابن عبد البر : من احتجَّ في هذا بقوله تعالى " ولا تُبطلوا أعمالكم " فهو جاهلٌ بأقوال أهل العلم فإن الأكثر على أن المراد بذلك : النهي عن الرياء كأنه قال : لا تُبطلوا أعمالكم بالرياء بل أخلصوها لله .

وقال آخرون : لا تُبطلوا أعمالكم بارتكاب الكبائر ولو كان المراد بذلك النهي عن إبطال ما لم يفرض الله عليه ولا أوجب على نفسه بنذرٍ أو غيره لامتنع عليه الإفطار إلا بما يُبيح الفطر من الصوم الواجب وهم لا يقولون بذلك [٣] .

---

[١] نيل الأوطار (٤ / ٢٥٩) .

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩ / ٦٠٧٥) .

[٣] نيل الأوطار (٤ / ٢٥٩) .

قال الشوكاني : ولا يخفى أن الآية عامة والاعتبار بعموم اللفـظ لا بخصوص السبب كما تقرَّر في الأصول فالصواب ما قال ابن المنير. [١]

٢- الحديث الذي نشرحه على اعتبار أن الاستثناء فيه متصل لأنه الأصل في الاستثناء فيكون المعنى : ليس عليك إلا الصلوات الخمس إلا إذا شرعت في التطوع فيصير واجباً عليك .

قال أحمد بن عمر القرطبي : لأنه نفى وجوب شيءٍ آخر إلا ما تطوع به والاستثناء من النفي إثبات ولا قائل بوجوب التطوع لاستحالته وتناقضه فيتعين أن يكون المراد إلا أن تشرع في تطوع فيلزمك إتمامه فالشروع فيه التزامٌ له ، وحينئذٍ يكون معنى قوله : إلا أن تطوع : أن تشرع فيه وتبتدئه [٢] .

وقد أجاب الجمهور على ذلك بأن الاستثناء في هذا الحديث منقطع بمعنى لكن والمعنى المقصود : لكن أستحب لك أن تطوع .

قال الطيبي : ما تمسَّك به القرطبي مغالطة لأن الاستثناء في هذا الحديث من غير الجنس لأن التطوع لا يُقال فيه : " عليك " فكأنه قال : لا يجب عليك شيء إلا إن أردت أن تطوع فذلك لك وقد عُلم أن التطوع ليس بواجبٍ فلا يجب شيءٌ آخرٌ أصلاً [٣] .

قال ابن حجر : وأصل المسألة دائرٌ على الاستثناء فمن قال إنه متصل فقد تمسَّك بالأصل ومن قال إنه منقطع احتاج إلى دليل [٤] .

---

[١] نيل الأوطار (٤ / ٢٥٩) .

[٢] المفهم (١ / ١٥٩) .

[٣] فتح الباري (١ / ١٣٢) .

[٤] فتح الباري (١ / ١٣٢) .

٣- حديث عائشة رضي الله عنها قالت : أُهدي لحفصةٍ طعامٌ وكنا صائمتين فأفطرنا ثم دخل رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله إنا أُهديت لنا هدية واشتهيناها فأفطرنا فقال رسول الله ﷺ : " لا عليكما صوما مكانه يوماً آخر " [١] وفي رواية أنه قال لهما " اقضيا يوماً آخر مكانه " [٢] ، قالوا : والأمر بالقضاء يُفيد الوجوب ، فدل ذلك عن أن الشروع في التطوع يجعله لازماً وأنه يجب القضاء عند إفساده .

قال الجمهور : هذا الأمر يُفيد الندب بقرينة قوله : لا عليكما .

٤- استدلوا لصحة مذهبهم باتفاق العلماء على أن من شرع في حج التطوع لزمه إتمامه بمجرد الشروع فيه .

وقد أجاب الجمهور عن ذلك بأن الحج امتاز عن غيره بلزوم المُضي في فاسدة فكيف في صحيحه وكذا امتاز بلزوم الكفارة في نفله كفرضه [٣] .

وقد ذهب جمهور العلماء من الشافعية والحنابلة وغيرهم إلى أن النوافل لا تجب بالشروع فيها ولكن يُستحب لمن شرع فيها أن يُتِمَّها ويجوز له أن يقطعها لعارضٍ يطرأ له .

وقد ردُّوا على أدلة الأحناف والمالكية ثم استدلوا لصحة مذهبهم بأدلةٍ كثيرة ، منها :

١- حديث جويرية بنت الحارث أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة فقال لها : " أصمت أمس ؟ " قالت : لا . قـــال : " تريدين أن تصومي

---

(١) أبو داود كتاب الصوم باب من رأى عليه القضاء (٢ / ٣٤٢) رقم : ٢٤٥٧ .

(٢) الترمذي كتاب الصوم باب ما جاء في إيجاب القضاء عليه (٢ / ١٨١) رقم : ٧٣٥ ، ومالك في الموطأ كتاب الصيام باب قضاء التطوع ص ٢٥٣ .

(٣) فتح الباري (١ / ١٣٢) .

غداً ؟ " قالت : لا . قال : " فأفطري " [١] .

فالنبي ﷺ أمرها بالإفطار ولم يأمرها بالقضاء ، فأفاد ذلك أنه لا يجب عليها ، قال الأحناف : حديث جويرية يُفيد أن النبي ﷺ أمرها بالإفطار عند تحقُّق العذر [٢] .

٢- حديث أبي جحيفة قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذِّلة فقال لها : ما شأنك ؟ قالت أخوك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً ، فقال : كُلْ فإني صائم ، فقال : ما أنا بآكِل حتى تأكُل فأكَل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال : نم فنام ثم ذهب يقوم فقال : نم فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قُم الآن فصلَّيا فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حقٍ حقه فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ : " صدق سلمان " [٣] .

فهذا دليلٌ على جواز الإفطار من التطوع وعدم وجوب القضاء ، لأن النبي ﷺ أقرَّ سلمان على كلامه ولم يأمر أبا الدرداء بالقضاء وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز [٤] .

٣ – حديث عائشة قالت : قال لي رسول الله ﷺ ذات يوم : " يا عائشة : هل عندكم شيء ؟ " قالت : فقلت : يا رسول الله ما عندنا شيء ، قالت فخرج

---

[١] البخاري كتاب الصوم باب صوم يوم الجمعة فإذا أصبح صائماً يوم الجمعة فعليه أن يُفطر (٤ / ٢٧٣) رقم : ١٩٨٦ ، وأبو داود كتاب الصوم باب الرخصة في ذلك (٢ / ٣٣٣) رقم : ٢٤٢٢ .

[٢] عمدة القاري للعيني (١ / ٢٦٨) .

[٣] البخاري كتاب الصوم باب من أقسم على أخيه ليُفطر في التطوع ولم ير عليه قضاءً إذا كان أوفق له (٤ / ٢٤٦) رقم : ١٩٦٨ .

[٤] نيل الأوطار (٤ / ٢٥٩) .

رسول الله ﷺ فأهديت لنا هدية أو جاءنا زورٌ قالت : فلمَّا رجع رسول الله ﷺ قلت : يا رسول الله ، أُهديت لنا هدية أو جاءنا زورٌ وقد خبَّأتُ لك شيئاً ، قال : " ما هو ؟ " قلت : حيس – هو التمر مع السمن والأقط – قال : " هاتيه " فجئتُ به فأكل ثم قال : " قد كنتُ أصبحتُ صائماً " .

قال طلحة بن يحيى أحد رواة الحديث : فحدثتُ مجاهداً بهذا الحديث فقال: " ذاك بمنزلة الرجل يُخرج الصدقة من ماله فإن شاء أمضاها وإن شاء أمسكها " [١] .

فالنبي ﷺ قد شرع في صيام تطوعٍ ثم بدا له أن يُفطر فأفطر دون أن يبيِّن أنه سيقضي .

قال الأحناف والمالكية : إفطاره ربما كان لعذر[٢] .

والأحاديث الصحيحة لا تُردُّ بمثل هذه الاحتمالات .

٤ – حديث أم هانئ أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بشرابٍ فشرب ثم ناولها فشربت فقالت : يا رسول الله أما إني كنت صائمة ، فقال رسول الله ﷺ : " الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر " [٣] ، وفي رواية أن رسول الله ﷺ شرب شراباً فناولها لتشرب فقالت : إني صائمة ولكني كرهت أن أردَّ سؤرك فقال : " إن كان قضاء رمضان فاقضي يوماً مكانه وإن

---

[١] مسلم كتاب الصيام باب جواز صوم النافلة بنيةٍ من النهار قبل الزوال وجواز فطر الصائم نفلاً من غير عذر (٢ / ٨٠٨) رقم : ١١٥٤ .

[٢] عمدة القارئ (١ / ٢٦٨) .

[٣] أبو داود كتاب الصوم باب الرخصة في ذلك (٢ / ٣٤٢) رقم : ٢٤٥٦ ، الترمذي كتاب الصوم باب ما جاء في إفطار الصائم المتطوع (٢ / ١٧٩) رقم : ٧٣٢ .

كان تطوعاً فإن شئتي فاقضي وإن شئتي فلا تقضي "[١] .

٥ – حديث أبي سعيد الخدري قال : صنعتُ للنبي ﷺ طعاماً فلما وُضع قال رجلٌ : أنا صائم فقال رسول الله ﷺ " دعاك أخوك وتكلَّف لك أفطر فصم مكانه إن شئت "[٢] .

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أنه يجوز لمن صام تطوعاً أن يُفطر لاسيَّما إذا كان في دعوةٍ إلى طعام أحدٍ من المسلمين ويُستحب له قضاء ذلك اليوم ، وتُحمل أحاديث الأمر بالقضاء على الندب وإعمال الأحاديث أولى من إهمالها .

سادساً : ما يُستفاد من الحديث

[١] فيه استحباب السفر إلى الأكابر والارتحال لطلب العلم ومجالسة العلماء وحسن السؤال .

[٢] الصلاة ركنٌ من أركان الإسلام الخمسة والمفروض منها خمسُ صلواتٍ في اليوم والليلة ولا يجب غيرها وفرضية صلاة الليل منسوخة .

[٣] الصوم ركنٌ من أركان الإسلام الخمسة والمفروض منه شهرٌ واحد في كل سنةٍ هو شهر رمضان .

[٤] الزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة وليس في المال حقٌ سوى الزكاة على من ملك نصاباً وحال عليه الحول .

[٥] من واظب على فعل الفرائض واجتنب النواهي كان مفلحاً بلا شك .

---

[١] أحمد في المسند (١٨ / ٣٦٢) رقم : ٢٦٧٨٩ ، الدارمي كتاب الصوم باب فيمن يُصبح صائماً تطوعاً ثم يُفطر (٢ / ٢٧) رقم : ١٧٣٥ .

[٢] سنن الدارقطني (٢ / ١٧٧) وقال : حديث مرسل .

[٦] جواز الحلف بالله تعالى من غير استحلافٍ ولا ضرورة إذا كانت هناك مصلحة تدعو لذلك .

[٧] في الحديث ردّ على المرجئة لأن النبي ﷺ أثبت الفلاح له إذا لم ينقص من الفرائض شيئاً .

الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام

قال الإمام مسلم رحمه الله : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب واسحق بن إبراهيم جميعاً عن وكيع قال أبو بكر : حدثنا وكيع عن زكرياء ابن اسحق قال : حدثني يحيى بن عبد الله بن صيفي عن أبي معبد عن ابن عباس عن معاذ بن جبل قال أبو بكر : ربما قال وكيع عن ابن عباس أن معاذاً قال : بعثني رسول الله ﷺ قال : " إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلواتٍ في كل يومٍ وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تُؤخذ من أغنيائهم فتُردُّ في فقرائهم فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " .

أولاً : تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث :

أ - البخاري كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة ٣ / ٣٠٧ رقم : ١٣٩٥

ب- مسلم كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١/ ٥٠ رقم : ١٩ .

ج - أبو داود كتاب الزكاة باب في زكاة السائمة ٢ / ١٠٧ رقم : ١٥٨٤ .

د- الترمذي كتاب الزكاة باب ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة ١٢٦/٢ رقم : ٦٢٥ وقال : حديث حسن صحيح .

هـ - النسائي كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة ٥ / ٢ .

و - ابن ماجة كتاب الزكاة باب فرض الزكاة ١ / ٥٦٨ رقم : ١٧٨٣ .

ز - أحمد في مسنده ٢ / ٥١٠ رقم : ٢٠٧١ .

ح – الدارمي كتاب الزكاة باب في فضل الزكاة ١ / ٤٦١ رقم : ١٦١٤ .

ثانياً : إسناد الحديث

أخرج الإمام مسلم هذا الحديث عن ثلاثةٍ من شيوخه :

أولهم : هو أبو بكر بن ابي شيبة واسمه : عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي أبو بكر الكوفي ثقة حافظ صاحب تصانيف روى له الجماعة سوى الترمذي توفي سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين .

والثاني هو : أبو كريب واسمه محمد بن العلاء بن كريب الهمداني أبو كريب الكوفي الحافظ ثقة حافظ روى له الجماعة توفي سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين .

والثالث هو : إسحاق بن إبراهيم بن مخلد أبو يعقوب الحنظلي المعروف بابن راهويه المروزي ثقة حافظ روى له البخاري ومسلم في المقدمة وأبو داود والترمذي والنسائي ، توفي سنة ثمانٍ وثلاثين ومائتين .

ثلاثتهم يروون عن وكيع وهو :

وكيع بن الجراح بن مليح أبو سفيان الكوفي ثقة حافظ عابد روى له الجماعة ، توفي سنة ستٍ وتسعين ومائة .

وشيخه هو : زكرياء بن إسحاق المكي ثقة رُمي بالقدر روى له الجماعة وهو من الطبقة السادسة .

وهو يروي عن : يحيى بن عبد الله بن محمد بن صيفي المكي مولى بني مخزوم ثقة روى له الجماعة من الطبقة السادسة .

وشيخه هو: أبو معبد وهو نافذ – بفاء مكسورة وذال معجمة – مولى ابن عباس ثقة روى لـه الجماعة توفي سنة أربعٍ ومائة ، وهو يروي عن ابن عباس

وهو : حبر الأمة وفقيه العصر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي أبو العباس المدني الصحابي روى له الجماعة توفي سنة ثمانٍ وستين .

والصحابي راوي الحديث هو : الصحابي الجليل والسيد الإمام معاذ بن جبل بن عمرو أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي المدني البدري صحابي جليل كبير القدر مقدَّمٌ في معرفة الحلال والحرام .

أسلم قديماً وله ثمان عشرة سنة وشهد العقبة وله عشرون سنة ولما هاجر الناس إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بينه وبين ابن مسعود ، شهد بدراً وما بعدها ، وكان طويلاً حسن الوجه جميل الملامح حسن الشعر والثغر برّاق الثنايا ، كان من أحسن الناس خلقاً وأسمحه كفاً أكحل العينين من أجمل الرجال ومن خير شباب قومه وكان لا يُسئل شيئاً إلا أعطاه فصيحاً بليغاً .

قال أبو بحرية : دخلت مسجد حمص فإذا بفتى حوله الناس جعد قطط إذا تكلم كأنما يخرج من فيه نور ولؤلؤ فقلت من هذا ؟ قالــــوا : معاذ بن جبل [1] . له مناقب جمة وفضائل كثيرة منها :

أن النبي ﷺ أردفه خلفه قال معاذ : كنت رديف رسول الله ﷺ على حمارٍ يقال له عفير [2] .

وكان أحد الصحابة الأربعة الذين جمعوا القرآن في عهد رسول الله ﷺ ، فعن أنس ﷺ قال : جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار : أبيّ بن كعب وزيد ومعاذ بن جبل وأبو زيد أحد عمومتي [3] .

---

[1] حلية الأولياء (١ / ٢٣١) .

[2] البخاري كتاب الجهاد والسير باب اسم الفرس والحمار (٦ / ٦٩) رقم : ١٨٥٦ ، ومسلم كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (١ / ٥٨) رقم : ٣٠ .

[3] البخاري كتاب المناقب باب مناقب زيد بن ثابت (٧ / ١٥٩) رقم : ٣٨١٠ ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أبيّ بن كعب وجماعة من الأنصار (٤ / ١٩١٤) رقم : ٢٤٥٦ .

ولذلك أوصى رسول الله ﷺ أصحابه أن يأخذوا عنه القرآن فقال : " خذوا القرآن من أربعة من : ابن مسعود وأُبيّ ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة " [١] .

واشتهر معاذ بالفقه ومعرفة الحلال والحرام حتى قال رسول الله ﷺ فيما رواه أنس بن مالك : " أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدها في دين الله عمر وأصدقُها حياءً عثمان وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ وأفرضهم زيد ولكل أمةٍ أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة " [٢] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " نِعم الرجل أبو بكر نِعم الرجل عمر نِعم الرجل معاذ بن جبل " [٣] .

أخذ النبي ﷺ بيده ثم قال له : " يا معاذ إني لأحبك في الله " فقال له معاذ : وأنا يا رسول الله أحبك في الله ، فقال رسول الله ﷺ " أفلا أعلّمك كلمات تقولهن دبر كل صلاة : رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك " [٤] .

أمّره رسول الله ﷺ على اليمن وقال له : كيف تقضي إن عرض لك قضاء ؟ " قال : أقضي بكتاب الله . فقال رسول الله ﷺ : " فإن لم تجد في كتاب الله ؟ " قال : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال : " فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا

---

[١] البخاري كتاب المناقب باب مناقب أبي بن كعب (٧ / ١٥٨) رقم : ٣٨٠٨ ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه (٤ / ١٩١٣) رقم : ٢٤٦٤ .

[٢] الترمذي كتاب المناقب باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وأبي عبيدة ابن الجراح (٥ / ٤٣٥) رقم : ٣٨١٦ وقال : حديث حسن صحيح ، وأحمد في مسنده (١١ / ٣٥) رقم : ١٢٨٣٩ .

[٣] الترمذي كتاب المناقب باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبيّ بن كعب (٥ /٤٣٧) رقم : ٣٨٢٠ وقال : حديث حسن ، وأحمد في مسنده (٩ /٢٠٦) رقم : ٩٣٩٤ .

[٤] أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار (٢ / ٨٧) رقم : ١٥٢٢ ، النسائي كتاب السهو باب نوعٌ آخر من الدعاء (٣ / ٥٣) .

في كتاب الله ؟ " قال : أجتهد رأيي ولا آلو فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : " الحمد لله الذي وفَّق رسول رسول الله لما يُرضي رسول الله " (١) .

وأوصاه رسول الله ﷺ عند خروجه إلى اليمن فقال له هو وأبو موسى الأشعري : يسِّرا ولا تعسِّرا وبشِّرا ولا تنفِّرا وتطاوعا ولا تختلفا " (٢) .

وخرج رسول الله ﷺ معه وظل يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته فلما فرغ قال له " يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري " ، فبكى معاذ ﷺ (٣) .

وكان معاذ أحد الصحابة القلائل الذين كانوا يُفتون في حياة رسول الله ﷺ، فعن سهل بن أبي حثمة قال : كان الذين يفتون على عهد رسول الله ﷺ ثلاثة من المهاجرين : عمر وعثمان وعلي وثلاثة من الأنصار أُبيّ ابن كعب ومعاذ وزيد (٤) .

ولقد عرف الصحابة لمعاذ قدره وفضله فأثنوا عليه بما يليق به ، فهذا عمر بن الخطاب يخطب بالجابية فيقول : من أراد الفقه فليأت معاذ ابن جبل (٥)

وكان يستشيره فيما يَعرِض له من قضايا ويقول : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ لولا معاذ لهلك عمر (٦) .

---

(١) أبو داود كتاب الأقضية باب اجتهاد الرأي في القضاء (٣ / ٣٠٢) رقم : ٣٥٩٢ ، والترمذي كتاب الأحكام باب ما جاء في القاضي يقضي (٣ / ٦٢) رقم : ١٣٣٢ .

(٢) البخاري كتاب الجهاد والسير باب ما يُكره من التنازع والاختلاف في الحرب (٦ / ١٨٨) رقم : ٣٠٣٨ ، مسلم كتاب الجهاد والسير باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير (٣ / ١٣٥٩) رقم : ١٧٣٣

(٣) أحمد في مسنده (١٦ / ١٨٠) رقم : ٢١٩٥٢ .

(٤) التمهيد لابن عبد البر (٩ / ٧٦) ، طبقات ابن سعد (٢ / ٤٨٩) .

(٥) الحاكم في المستدرك (٣ / ٣٠٤) رقم ٥١٨٧ وصححه ووافقه الذهبي ، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٢١٠) رقم : ١١٩٦٩ .

(٦) سنن الدارقطني (٣/٣٢٢)، البيهقي في السنن الكبرى (٧/٤٤٣)، ومصنف ابن أبي شيبة (٥/٥٤٣) .

وقال في آخر عمره : لو أدركت معاذاً ثم ولَّيتُه ثم لقيت ربي فقال : من استخلفت على أمة محمد ﷺ ؟ لقلت : سمعت نبيك وعبدك ﷺ يقول : " يأتي معاذ بن جبل بين يدي العلماء برتوة " [١] .

وقال ابن مسعود يوماً : إن معاذا كان أمةً قانتاً لله حنيفاً فقيل له يا أبا عبد الرحمن نسيتها : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [٢] فأعادها ثم قال : إن الأمة معلم الخير والقانت : المطيع وإن معاذاً ﷺ كان كذلك [٣]

وقال عبد الله بن عمرو : حدثونا عن العاقِلَيْن قيل من العاقلان ؟ قال : أبو الدرداء ومعاذ [٤] .

هاجر معاذٌ إلى الشام وظل بها حتى أصابه طاعون عمواس فاستشهد سنة ثمان عشرة وهو ابن أربعٍ وثلاثين سنة .

ثالثاً : ملاحظات على الإسناد

١ - تنوَّعت صيغ الأداء في هذا الإسناد بين التحديث والعنعنة وهي محمولةٌ على الاتصال عند جماهير العلماء بشرط أن لا يكون الراوي مدلساً مع إمكانية لقائه بشيخه .

٢ - قال الإمام مسلم : حدثنا وقال أبو بكر : حدثنا وهذا يُفيد أنهما سمعا هذا الحديث من شيوخهما بحضرة غيرهما وقال زكريا بن إسحاق : حدثني

---

(١) الآحاد والمثاني (٣ / ٤١٨) رقم : ١٨٣٣ ، سير أعلام النبلاء (١ / ٤٤٦) . والرتوة : سهم وقيل مد البصر .

(٢) سورة النحل : ١٢٠ .

(٣) طبقات ابن سعد (٢ / ٤٨٧) .

(٤) طبقات ابن سعد (٢ / ٤٨٨) ، سير أعلام النبلاء (٢ / ٣٤٣) .

وهذا يُفيد أنه سمع الحديث من شيخه منفرداً .

٣ – روى الإمام مسلم هذا الحديث عن ثلاثةٍ من شيوخه وساقهم جميعاً في مساقٍ واحد ثم أفرد رواية أبي بكر بالذكر لأنه روى الحديث عن شيخه بصيغة : حدثنا بينما روى غيره بصيغة : عن ورغم أن عنعنة غير المدلس محمولة على الاتصال وهما غير مدلسين إلا أن مسلماً ذكر اللفظ الذي سمعه من شيخه وهذا يدل على دقة الإمام مسلم وتحريه وأمانته في النقل .

٤ – زكريا بن إسحاق ثقة ولكنه رُمي بالقدر وقد وافقه على الرواية عن يحيى ابن عبد الله : إسماعيل بن أمية عند البخاري ومسلم وهو ثقة ثبت .

٥ – زكريا بن إسحاق ويحيى بن عبد الله ثقتان وهما من الطبقة السادسة كما قال ابن حجر فهذا من لطائف الإسناد لأنه من رواية الأقران .

٦ – في هذا الحديث رواية ابن عباس عن معاذ بن جبل وهذا من لطائف الإسناد لأنه من رواية الأقران لأنهما صحابيان .

٧ – ورد في كثيرٍ من طرق الحديث أن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن والحديث بهذه الصيغة من مسند ابن عباس وفي هذه الرواية عن ابن عباس عن معاذ وهذا من مسند معاذ ووجه الجمع بينهما : أن يكون ابن عباس سمع الحديث من معاذ فرواه عنه تارةً متصلاً وتارةً مرسلاً بدون ذكر معاذ وكلاهما صحيح لأن مرسل الصحابي إذا لم يُعرف المحذوف حجة فكيف وقد عرفنا أن المحذوف في هذا الحديث هو معاذ بن جبل .

والأصح أن الحديث ليس بمرسل لأن ابن عباس سمع الحديث من معاذ فرواه عنه وحضر بعث معاذ إلى اليمن لأن بعث معاذ كان في أواخر حياة

النبي ﷺ سنة عشر قبل حجة الوداع وابن عباس حينئذٍ مع أبويه بالمدينة ، فكان ابن عباس يروي الحديث تارةً عن معاذ وتارةً كما حضره وسمعه .

٨ – في هذا الإسناد قال الإمام مسلم رحمه الله : قال أبو بكر ربما قال وكيع عن ابن عباس أن معاذاً قال .

قال الإمام النووي : هذا الذي فعله مسلم رحمه الله نهاية التحقيق والاحتياط والتدقيق فإن الرواية الأولى قال فيها : عن معاذ ، والثانية : أن معاذاً وبين أن وعن فرق فإن الجماهير قالوا : أن كعن فيُحمل على الاتصال .

وقال جماعة : لا تلتحق أن بعن بل تُحمل أن على الانقطاع ويكون مرسلاً ولكنه هنا يكون مرسل صحابي له حكم المتصل على المشهور من مذاهب العلماء فاحتاط رحمه الله وبيّن اللفظين .

رابعاً : لغويات الحديث

بعثني رسول الله ﷺ : المبعوث إليه محذوف وقد صرح به ابن عباس في رواية أخرى فقال بعث معاذاً إلى اليمن .

إنك تأتي قوماً : المضارع هنا يُراد به الاستقبال وقد صرَّح بحرف الاستقبال في الرواية الثانية فقال : ستأتي .

أهل الكتاب : هو من أُنزِل على رسول قومه كتاب أو التزم أحكامه من غير المسلمين فيدخل فيهم من تهوَّد أو تنصَّر من المشركين ويخرج منه من فعل ذلك من المسلمين لأن المرتد لا يُقر .

فإن هم أطاعوا لذلك : أي للإتيان بالشهادتين يقال : أطاعه يُطيعه فهو مُطيع وأطاعوا أي اتبعوا الأمر ولم يخالفوه وهي متضمنة للشهادة والانقياد .

والتعبير بإن ليس لأن وقوع الشرط مشكوك فيه بل المراد بها مجرد التعليق وفي رواية أخرى فإذا .

افترض : افترض بمعنى فرض وأصل الفرض القطع وهو والواجب مترادفان عند المالكية والشافعية والحنابلة والفرض آكد من الواجب عند الأحناف فالفرض عندهم ما كان ثابتاً بدليل قطعي كالقرآن والحديث المتواتر والواجب ما كان ثبوته بدليلٍ ظني كأحاديث الآحاد .

تُؤخذ من أغنيائهم : الجملة صفة صدقة .

فتُرد في فقرائهم : استخدم لفظ الرد ولم يقل فتُعطى إشارة إلى أن المسلمين جميعاً فقراءهم وأغنياءهم جسدٌ واحد فما يُؤخذ من عضوٍ ويُعطى للآخر مردودٌ إليه في الجماعة وجعل الفقراء هنا ظرفاً للرد إشارة إلى تمكُّن الزكاة منهم وعدم خروجها عنهم وفي رواية : فترد على فقرائهم والتعبير بعلى فيه من التمكن ما ليس في إلى .

فإن هم أطاعوا لذلك : جواب الشرط محذوف وقد صرحت به رواية أخرى وفيها : فإن أطاعوا بها فخذ منهم .

كرائم : جمع كريمة يقال : ناقة كريمة أي : غزيرة اللبن وأصل الكريمة : كثيرة الخير وقيل للمال النفيس كريم لكثرة منفعته والكرائم هي : نفائس الأموال التي تتعلق بها نفس صاحبها ويخصُّ بها نفسه ويؤثرها على غيرها لأنها جامعة للكمال الممكن في حقها من غزارة اللبن أو جمال الصورة أو كثرة اللحم أو الصوف أو نحو ذلك .

أموالهم : المال في الأصل : هو كل ما يُملك من الذهب والفضة ثم أُطلق على كل ما يُقتنى ويُملك من الأعيان وأكثر ما يُطلق المال عند العرب على الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم يقال : مال الرجل وتموّل إذا صار ذا مال .

واتق دعوة المظلوم : أي : تجنَّب الظلم لئلا يدعو عليك المظلوم وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم والحكمة في ذكره عقب المنع من أخذ كرائم الأموال : الإشارة إلى أن أخذها ظلم وأصل الظلم : الجور ومجاوزة الحد .

فإنه : أي فإن الشأن وفي رواية فإنها أي فإن دعوة المظلوم .

ليس بينها وبين الله حجاب : أي أنها مسموعة مُجابة لا تُرد وليس المراد هنا أن لله حجاباً يحجبه عن شيء ولكن المقصود : أن دعوة المظلوم مقبولة لا مجالة فالكلام على سبيل التمثيل بتشبيه هيئة دعاء المظلوم وعدم وجود صارفٍ له أو مانعٍ من قبوله بهيئة من يقصد دار السلطان متظلماً فتُفتح له الأبواب ويُرفع من أمامه كل حجاب .

خامساً : قضايا الحديث

القضية الأولي :

بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن والياً أو قاضياً وزوَّده بوصيةٍ تُحدِّد له الخطوات التي يجب عليه أن يتبعها في مهمته الصعبة فأخبره أنه سيأتي قوماً أهل كتاب وإنما أخبره النبي ﷺ بذلك ليستعد لسماع الوصية ويستجمع همته لفهمها والعمل بها وذلك لأن أهل الكتاب أهل علمٍ في الجملة فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجُهَّال من عبدة الأوثان فيتهيأ لمناظرتهم ويُعد الأدلة اللازمة لإفحامهم ولأن دعوتهم تحتاج إلى حكمةٍ وسعة صدر وقوة حجة وتوقُّد فكرة .

وهذا لا يعني أن كل من يَقدُم عليهم معاذ من أهل الكتاب ، فإن اليمن كان يسكنها أهل الكتاب وغيرهم وإنما خصَّهم النبي ﷺ بالذكر تغليباً لهم ، أو تفضيلاً لهم على غيرهم ، ولأنهم أحوج إلى الاستعداد والمجادلة فأمر النبي ﷺ معاذاً أن يتدرَّج معهم في الدعوة فيبدأ بدعوتهم إلى الشهادتين فإذا قالوها وأقرُّوا

بها وعرفوا الله تعالى ووحّدوه وعرفوا رسوله وأقروا برسالته أعلمهم أن الله فرض عليهم خمس صلواتٍ في كل يومٍ وليلة وعرّفهم كيف يؤدُّونها وأمَّهم في صلاتهم ليتعلموها فإن قبلوا ذلك وصلُّوا أعلمهم أن الله فرض على أغنيائهم زكاةً تُؤخذ من أموالهم ثم تُفرَّق في إخوانهم الفقراء تطهيراً للمال وربطاً لأواصر المحبة والأخوة بين جميع أفراد المجتمع فإن استجابوا لذلك فخُذ من صدقاتهم الواجب عليهم وتجنَّب نفائس الأموال التي يحبونها ويختصون بها أنفسهم فإن الله لم يجعل مواساة الفقراء على حساب الإجحاف بالأغنياء وتجنب الظلم عامة وفي أخذ الصدقات خاصة واحرص على العدل واحذر دعوة المظلوم فإنها مستجابة ليس بينها وبين الله حجاب وقد حافظ معاذ على الوصية وظل قائما على اليمن إلى أن قدم المدينة في عهد أبي بكر ثم توجَّه إلى الشام فمات بها .

القضية الثانية :

أمر رسول الله ﷺ معاذاً أن يكون أول ما يدعوهم إليه هو : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وفي رواية : فأول ما تدعوهم إليه : عبادة الله فإذا عرفوا الله [١] . وفي رواية : إلى أن يوحّدوا الله فإذا عرفوا ذلك [٢] .

ويُجمع بين هذه الروايات بأن المراد بعبادة الله : توحيده ، والمراد بتوحيده : الشهادة له بالوحدانية والشهادة لنبيه ﷺ بالرسالة ، ولذلك استدل جمهور العلماء بهذا الحديث على أنه لا يكفي في الإسلام الاقتصار على شهادة أن لا إله إلا الله ، بل يجب أن يُضيف إليها الشهادة لمحمدٍ ﷺ بالرسالة .

---

[١] البخاري كتاب الزكاة باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة (٣ / ٣٧٧) رقم : ١٤٥٨ ، ومسلم كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشراع الإسلام (١ / ٥١) رقم : ١٩ .

[٢] البخاري كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (١٣ / ٣٥٩) رقم: ٧٣٧٢ .

وقال بعض العلماء : يصير بالأولى مسلماً ويُطالب بالثانية وفائدة الخلاف في هذا الأمر تظهر عند الحكم بالردة .

والراجح هو قول الجمهور وأن المطالبة تكون ابتداءً بالشهادتين فمن كان موحِّداً فهو مطالبٌ بالجمع بين الإقرار لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة .

ومن كان غير موحِّدٍ فهو مطالبٌ بالنطق بالشهادتين على التعيين والإقرار بهما .

ومن كان يدَّعي التوحيد ثم يعتقد ما يستلزم الإشراك أو يقتضيه كمن يُشبِّه الله بخلقه أو يعتقد بنوة العزير لله فهو مطالبٌ بالإقرار بالتوحيد لنفي ما يُخالفه من عقيدته وبالإقرار بالرسالة .

وهل يُشترط التبرؤ من كل دينٍ يخالف دين الإسلام ؟ أو هل يُشترط للحكم بإسلام من يعتقد التشبيه أو يعتقد بنوة عزير أن يقرَّ بترك هذا الاعتقاد ؟ أو يكفي للحكم بإسلامه أن يقرَّ بالشهادتين ؟

الصحيح الذي يُفهم من الحديث هو القول الثاني لأن اعتقاد الشهادتين يستلزم ترك اعتقاد ما ينافيهما .

القضية الثالثة :

أول ما يقوم به الداعية المسلم عند قيامه بدعوة غير المسلمين أن يدعوهم إلى توحيد الله ومعرفته ، وفي بعض روايات هذا الحديث : " فأول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم " .

وقد استدلَّ بعض العلماء بهذه الرواية على أن أهل الكتاب لا يعرفون الله وإن كانوا يعبدونه في الظاهر ويدَّعون معرفته .

قال القاضي عياض : قال حذَّاق المتكلمين : ما عرف الله من شبَّهة بخلقه أو جسَّمه من اليهود وأجاز عليه البداء وأضاف إليه الولد منهم أو أضاف إليه

الصاحبة أو أجاز عليه الحلول والانتقال والامتزاج من النصارى أو وصفه بما لا يليق به أو أضاف إليه الشريك والمعاند في خلقه وملكه من المجوس والثنوية.

فمعبودهم الذي عبدوه ليس بالله وإن سمُّوه به إذ أنه ليس موصوفاً بصفات الإله الواجبة له فإذاً ما عرفوا الله ولا عبدوه (١) .

القضية الرابعة :

استشكل البعض على الحديث ترتيب الدعوة إلى الزكاة على الإطاعة بالصلاة مع أنهما فريضتان منفصلتان ، وقد أجاب العلماء على ذلك بإجاباتٍ عدَّة من أصحها :

١ – أن الذي يُقرُّ بالتوحيد يصير بذلك مسلماً فإذا جحد الصلاة صار بذلك كافراً مرتداً عن الإسلام وصار ماله فيئاً فلا يُؤمر بالزكاة ، بل يُقتل .

٢ – قال الخطابي : أخَّر رسول الله ﷺ ذكر الصدقة عن ذكر الصلاة لأنها إنما تجب على قومٍ دون قوم – يعني الأغنياء دون الفقراء – وأنها لا تتكرر تكرار الصلاة .

٣ – قال ابن حجر : بدأ رسول الله ﷺ بالأهم فالمهم ، وذلك من التلطُّف في الخطاب لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن النفرة (٢) .

فالترتيب ترتيب بيانٍ واهتمام لا ترتيب إيجاب .

واستُشكل على الحديث أيضاً الاقتصار على ذكر الشهادتين والصلاة والزكاة دون ذكر الصوم والحج وهما من أركان الإسلام ، وقد أجاب العلماء على ذلك بإجاباتٍ عدة منها :

---

(١) إكمال المعلم (١ / ٢٣٩) .

(٢) فتح الباري (٣ / ٤٢١) .

١ – أنه يُحتمل أن يكون الصوم والحج لم يكونا حينئذٍ قد شُرعا وهذا جوابٌ باطلٌ مردود لأن بعث معاذٍ إلى اليمن كان في آخر الأمر سنة عشرٍ من الهجرة بعد أن شُرعت العبادات جميعاً .

٢ – أجاب ابن الصلاح بأن عدم ذكرهما تقصيرٌ من الرواة وهذا ضعيف لأنه يُفضي إلى ارتفاع الثقة بكثيرٍ من الأحاديث النبوية لاحتمال الزيادة والنقصان [١] ، والدارس لعلم الحديث يُدرك الدقة والأمانة التي كان يحرص عليها الرواة عند النقل فيتبين خطأ هذا الجواب .

٣ – وقال الكرماني : اهتمام الشارع بالصلاة والزكاة أكثر ولهذا كُرِّرا في القرآن فمن ثم لم يذكر الصوم والحج في هذا الحديث مع أنهما من أركان الإسلام ، والسر في ذلك أن الصلاة والزكاة إذا وجبا على المكلف لا يسقطان عنه أصلاً بخلاف الصوم فإنه قد يسقط بالفدية ، والحج فإن الغير قد يقوم مقامه فيه كما في المعضوب – أي العاجز عن أداء الحج – وهذا جوابٌ حسن .

٤ – أن هذا الحديث ليس وارداً لعرض تفاصيل الشرائع ، بل لكيفية الدعوة إلى الشرائع إجمالاً وأما تفاصيلها فذلك أمرٌ مُفوَّضٌ إلى معرفة معاذ فترك ذكر الصوم والحج لا يضر كما لا يضر ترك تفاصيل الصلاة والزكاة [٢]

٥– أحسن الأجوبة أن يُقال : إذا كان الكلام في بيان الأركان جاء الشارع بها كاملة ولم يُخل بشيءٍ منها كما في حديث " بُني الإسلام على خمس " [٣] .

---

[١] فتح الباري (٣ / ٤٢٢) .

[٢] حاشية السندي على سنن النسائي (٥ / ٤) .

[٣] البخاري كتاب الإيمان باب دعاؤكم إيمانكم (١ / ٦٤) رقم : ٨ ، ومسلم كتاب الإيمان بـاب بيـان أركان الإسلام ودعائمه العظام (١ / ٤٥) رقم : ١٦ .

فإذا كان في غير بيان الأركان كالدعوة إلى الإسلام صح أن يكتفي بالأركان الثلاثة : الشهادتين والصلاة والزكاة ولو كان بعد وجود فرض الصوم والحج كقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (١) في موضعين من سورة براءة ونزولها بعد فرض الصوم والحج قطعاً ، وكحديث " أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويُقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة " (٢) وغير ذلك من الأحاديث .

والحكمة في ذلك أن الأركان الخمسة اعتقادي وهو : الشهادتان وبدني وهو: الصلاة ومالي وهو: الزكاة ، والصلاة شاقة لتكررها والزكاة شاقة لما في جبلة الإنسان من حب المال فإذا أذعن المرء لهذه الثلاث كان ما سواها أسهل عليه بالنسبة إليها (٣) .

وحاصل هذا الجواب أن يُقال : اقتصر على ذكر الصلاة والزكاة لشدة اهتمام الشارع بهما خاصةً إذا كان المقام مقام دعوةٍ إلى الإسلام ، فإنه يكتفي بهما مع الشهادتين لأن مَن أقرَّ بهما كان إقراره بغيرهما أسهل .

القضية الخامسة :

أمر رسول الله ﷺ معاذاً أن يدعوهم إلى الشهادتين فإن أطاعوا لذلك دعاهم إلى الزكاة والطاعة هنا تحتمل وجهين :

---

(١) سورة التوبة الآية : ١١ .

(٢) البخاري كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة (٣ / ٣٠٨) رقم : ١٣٩٩ ، ومسلم كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ (١ / ٥١) رقم : ٢٠ .

(٣) فتح الباري (٣ / ٤٢٣) .

الأول : أن يكون المراد هو الإقرار بوجوبها عليهم والالتزام بها ويؤيِّد هذا الوجه : أن المذكور في الحديث هو الإخبار بالفريضة فتعود الإشارة بذلك إليها .

الثاني : أن يكون المراد بالطاعة الامتثال بالفعل ويؤيِّد ذلك أنهم لو أُخبروا بالفريضة فبادروا إلى الامتثال بالفعل لكفى ذلك دون اشتراط التلفُظ بقبول الصلاة والزكاة بخلاف الشهادتين فالشرط فيهما عدم الإنكار والإذعان للوجوب .

قال ابن حجر [١] : والذي يظهر أن المراد بالطاعة هو القدر المشترك بين الأمرين فمن امتثل بالإقرار أو بالفعل كفاه أو بهما فأولى وقد وقع في رواية بعد ذكر الصلاة " فإذا صلوا " [٢] وبعد ذكر الزكاة " فإذا أقروا بذلك فخذ منهم " [٣]

القضية السادسة :

استدلَّ بعض العلماء بهذا الحديث على أن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة من الصلاة والزكاة وتحريم الزنا ونحو ذلك لأن رسول الله ﷺ أمر معاذاً أن يدعوهم إلى الإيمان أولاً فإن أجابوه لذلك دعاهم إلى العمل ورتَّب ذلك عليها بالفاء . ويُفيد ذلك أيضاً أن النبي ﷺ قال : " فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم

---

[١] فتح الباري (٣ / ٢١) .

[٢] البخاري كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (١٣ / ٣٥٩) رقم : ٧٣٧٢ .

[٣] البخاري كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (١٣ / ٣٥٩) رقم : ٧٣٧٢ .

أن عليهم ... " وهذا يدل على أنهم إذا لم يُطيعوا لا يجب عليهم شيء فهم يُدْعَون أولاً إلى الإيمان ثم لا يُدْعَون إلى العمل إلا بعد أن يؤمنوا .

وهذا استدلالٌ ضعيف لأن المراد في الحديث : أعلمهم أنهم مطالبون بالصلوات وغيرها في الدنيا والمطالبة في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام وليس يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها يُزاد في عذابهم بسببها في الآخرة والترتيب في هذا الحديث رُوعي فيه الأهم فالأهم فبدأ بالصلاة قبل الزكاة ولم يقل أحدٌ إنه يصير مكلَّفاً بالصلاة دون الزكاة ، لأنه لا ترتيب بينهما في الوجوب مع إن إحداهما قُدِّمت على الأخرى ورُتِّبت الأخرى عليها بالفاء ، فلا يلزم من ترك الصلاة إسقاط الزكاة لأن كلاً منهما فريضة مستقلة بذاتها مقبولة إذا أداها المسلم بشروطها .

وذهب بعض العلماء إلى أن الكفار مخاطبون بالمنهيات دون المأمورات وهو رأيٌ ضعيف .

والمذهب الصحيح [1] : هو مذهب المحققين وجمهور العلماء وهو :

أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة – المأمورات والمنهيات – محاسبون عليها يوم القيامة .

القضية السابعة :

المراد بالصدقة في هذا الحديث هي : الزكاة المفروضة لأن النبي ﷺ يأمر معاذاً في هذا الحديث أن يطالبهم بالفرائض وقد جاء في روايةٍ أخرى : أخبرهم أن الله افترض عليهم زكاةً في أموالهم [2] .

---

[1] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (١ / ١٩٨) .

[2] البخاري كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (١٣ / ٣٥٩) رقم : ٧٣٧٢ .

والزكاة الشرعية قد تُسمَّى في لغة القرآن والسنة صدقة .

قال الإمام الماوردي : الصدقة زكاة والزكاة صدقة يفترق الاسم ويتفق المسمى وآيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ شاهدة لذلك . قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [١] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ [٣] .

وفي السنة قال رسول الله ﷺ : " ليس فيا دون خمس أوسقٍ صدقة وليس فيما دون خمس زودٍ صدقة وليس فيما دون خمس أواقٍ صدقة " [٤]

فهذه النصوص وغيرها جاءت في شأن الزكاة وعبَّرت عنهــا بالصــدقة ومنه سُمِّي العامل على الزكاة مُصدقاً لأنه يجمع الصدقات ويفرقها .

وقد شاع بين الناس استعمال الصدقة في التطوع المطلق وما تجــود بــه النفس على الشحاذين والمتسولين وهذا مخالفٌ لاستعمال القرآن والسنة لها .

ومادة الصدقة مأخوذة من الصدق .

قال أبو بكر بن العربي : ذلك مأخوذ من الصدق في مساواة الفعل للقول والاعتقاد ووجه مشابهة الصدق هاهنا للصدقة أن من أيقن من دينه أن البعــث

---

(١) سورة التوبة : ١٠٣ .

(٢) سورة التوبة : ٥٨ .

(٣) سورة التوبة : ٦٠ .

(٤) البخاري كتاب الزكاة باب ما أُدِّي زكاته فليس بكنز (٣ / ٣١٨) رقم : ١٤٠٥ ، ومســلم كتــاب الزكاة (٢ / ٦٧٣) رقم : ٩٧٩ .

حق وأن الدار الآخرة هي المصير وأن هذه الدار الدانية قنطرة إلى الأخرى وباب إلى السوءى والحسنى عمل لها وقدَّم ما يجده فيها فإن شك فيها وتكاسل عنها وآثر عليها بخل بماله واستعد لآماله وغفل عن مآله [١] .

فالصدقة هي دليل صدق الإيمان والتصديق بيوم الدين ولهذا قال رسول الله ﷺ : " والصدقة برهان " [٢] .

القضية الثامنة :

استدل بعض العلماء بهذا الحديث على عدم جواز نقل الزكاة عن بلد المال وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على مذهبين :

الأول : ذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وجمهور العلماء إلى أنه لا يجوز صرف الزكاة في غير فقراء البلد الذي أُخذت منه فلو خالف المُزكِّي ونقل أجزأ عند المالكية على الأصح ولم يُجزئ عند الشافعية إلا إذا فقد المستحقون لها .

وقد استدلوا على صحة مذهبهم بأدلةٍ كثيرة منها :

١- حديث معاذ ففيه أن الصدقة تُردُّ في فقرائهم ومعناه أنها تُردُّ على فقراء من أُخذت من أغنيائهم فهي وصيةٌ لمعاذ أن يأخذ الزكاة من أغنياء البلد الموجَّه إليها ويردها على فقرائها فلا يجوز له نقلها إلى بلدٍ آخر . وقد أُجيب على هذا الاستدلال بأن الضمير في فقرائهم محتملٌ لفقراء المسلمين ولفقراء أهل تلك البلدة أو الناحية ، وحيث تطرَّق الدليل إلى الاحتمال سقط به الاستدلال .

---

[١] أحكام القرآن ص ٩٤٦ .

[٢] مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (١ / ٢٠٣) رقم : ٢٢٣ .

قال ابن حجر : الذي يتبادر إلى الذهن من هذا الحديث عدم النقل وأن الضمير يعود على المخاطبين فيختص بذلك فقرائهم لكن رجَّح ابن دقيق العيد جواز النقل وقال : إنه وإن لم يكن الأظهر إلا أنه يُقوِّيه أن أعيان الأشخاص المخاطبين في قواعد الشرع الكلية لا تُعتبر فلا تُعتبر في الزكاة كما لا تُعتبر في الصلاة فلا يختص بهم الحكم وإن اختص بهم خطاب المواجهة [١] .

٢- الدليل على هذا أيضاً هو سنة رسول الله ﷺ العملية وسنة خلفائه الراشدين فحين وجَّه رسول الله ﷺ سعاته وولاته إلى الأقاليم والبلدان لجمع الزكاة أمرهم أن يأخذوها من أغنياء البلد ثم يردُوها على فقرائه ، فهذا عمر بن الخطاب يبعث معاذاً ساعياً على بني كلاب فيقسم فيهم ما جمعه حتى لا يدع شيئاً [٢] .

وقال عمر بن الخطاب : والله لأرُدَّن الصدقة عليهم حتى تروح على أحدهم مائة ناقة أو مائة بعير .

قال ابن قدامة : لأن المقصود بالزكاة إغناء الفقراء بها فإذا أبحنا نقلها أفضى إلى بقاء فقراء ذلك البلد محتاجين [٣] .

وقد ذكر أبو عبيد في كتابه الأموال كثيراً من الآثار التي تدل على عدم جواز نقل المال من البلد الذي جُمع منه ثم قال :

والعلماء اليوم مُجمعون على هذه الآثار كلها أن أهل كل بلدٍ من البلدان أحق بصدقتهم مادام فيهم من ذوي الحاجة واحد فما فوق ذلك وإن أتى ذلك على جميع صدقتها حتى يرجع الساعي ولا شيء معه منها [٤] .

---

[١] فتح الباري (٣ / ٤١٩) .
[٢] الأموال لأبي عبيد ص ٥٩٦ .
[٣] المغني (٢ / ٦٧٢) .
[٤] الأموال ص ٥٩٥ .

الثاني : ذهب الليث بن سعد وأبو حنيفة وأصحابه ونقل ذلك ابن المنذر عن الشافعي واختاره إلى أنه يجوز نقل الزكاة من البلد الذي جُمعت منه مع الكراهة وأن الكراهة تزول إذا كان ينقلها إلى قرابةٍ محتاجين أو إلى فردٍ أو جماعةٍ هم أمس حاجةً من أهل بلده أو كان نقلها أصلح للمسلمين أو من دار الحرب إلى دار الإسلام أو إلى عالمٍ محتاج أو طالب علم أو كان ينقلها إلى من هو أورع أو أصلح أو أنفع للمسلمين أو كانت الزكاة معجَّلة قبل تمام الحول ففي هذه الصور جميعها لا يُكره له النقل [١].

وقد استدلوا لصحة مذهبهم بما عُلم من أن النبي ﷺ كان يستدعي الصدقات من الأعراب إلى المدينة ويصرفها في فقراء المهاجرين والأنصار وفي حديث عبد الله بن هلال أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: كدت أقتل بعدك في عناقٍ أو شاةٍ من الصدقة ، فقال رسول الله ﷺ : " لولا أنها تُعطى فقراء المهاجرين ما أخذتها " [٢] .

والراجح في هذه المسألة أن الأصل هو عدم جواز النقل وأن المال يُصرف حيثما جُمع وأنه لا يجوز نقله إلا في حالاتٍ خاصة كأن ينقلها إلى قرابته المحتاجين أو إذا استغنى أهل البلد الذي جُمعت منه وانعدمت الأصناف المستحقة لها فإن معاذ بن جبل بعث إلى عمر بن الخطاب بثلث صدقة الناس فأنكر ذلك عمر وقال له : لم أبعثك جابياً ولا آخذ زكاة ولكن بعثتك لتأخذ من أغنياء الناس فترد على فقرائهم ، فقال معاذ : ما بعثت إليك بشيءٍ إلا وأنا لم أجد أحداً يأخذه مني فلما كان العام الثاني بعث إليه شطر الصدقة فتراجعا بمثل

---

[١] الدر المختار وحاشية ابن عابدين (٢ / ٩٣ ، ٩٤) .

[٢] النسائي كتاب الزكاة باب إعطاء السيد المال بغير اختيار المصدق (٥ / ٣٤) .

ذلك فلما كان العام الثالث بعث إليه معاذ بالصدقة كلها فراجعه عمر بمثل ما راجعه قبل ذلك فقال له معاذ : ما وجدت أحداً يأخذ مني شيئاً [١] .

فإقرار عمر لفعل معاذ دليل على جواز نقل الزكاة إذا لم يوجد من يستحقها في بلدها ، ويجوز النقل أيضاً إذا وقع بأهل بلدٍ حاجة أو حلَّت بهم نازلة كمجاعةٍ أو حريقٍ أو وباءٍ وكان أهله أحوج إلى العون وإسعافهم ألزم من ذوي الحاجة في البلد الذي جُمعت منه الزكاة وكذا إذا كانت هناك مصلحة شرعية راجحة كالنقل إلى من هو أشد حاجة وأكثر فاقة أو إلى من هو أنفع للمسلمين وأولى بالمعونة أو إلى مشروعٍ إسلامي في بلدٍ آخر يترتب عليه خيرٌ كثيرٌ للمسلمين أو إلى طالب علم أو نحو ذلك من الحِكَم والمصالح التي يطمئن إليها قلب المسلم الحريص على دينه ومرضاة ربه [٢] .

القضية التاسعة :

استدل بعض العلماء بقول النبي ﷺ في هذا الحديث : " تُؤخذ من أغنيائهم " بأن الإمام هو الذي يتولَّى قبض الزكاة وصرفها إما بنفسه وإما بنائبه ومن امتنع منها أُخذت منه قهراً وذلك لأن الإسلام لا يعتبر الزكاة إحساناً فردياً يقوم به البعض كما يرى ويطبقه كما يرى ويمتنع منه من أراد بل هي تنظيمٌ اجتماعي تُشرف عليه الدولة ويتولاه جهاز إداري منظم يقوم على تنظيم هذه الفريضة الفذة جمعاً ممن تجب عليهم وصرفاً إلى من تجب لهم ليتحقق الهدف المنشود منها ، والأدلة على ذلك كثيرة منها :

١- أن الله سمَّى القائمين على أمر الزكاة : العاملين عليها وجعل لهم سهماً في أموال الزكاة قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ

---

[١] الأموال ، ص ٥٩٦ .

[٢] فقه الزكاة (٢ / ٨٢٠) .

عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

وليس بعد هذا النص الصريح في كتاب الله مجال لترخص مترخصٍ أو زعم زاعمٍ خاصةً بعد أن جعلت الآية هذه الأصناف وتحديدها فريضة من الله ، فمن يجرؤ على تعطيل فريضة فرضها الله تعالى ؟ .

٢- قول الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ (٢) .

وقد ذهب جمهور المسلمين سلفاً وخلفاً إلى أن المراد بالصدقة في هذه الآية : الزكاة فأمر الله رسوله ﷺ ومن يقوم مقامه من حكام المسلمين أن يأخذ الصدقة من الأغنياء ثم يُخرجها في مصارفها التي حدَّدها الله عز وجل .

والدليل على هذا القول أن مانعي الزكاة في عهد أبي بكر الصديق حينما تعلَّقوا بهذه الآية وقالوا إنها تدل على أن الذي يأخذ الزكاة هو النبي ﷺ فقط وأنه يُصلِّي عليهم بدلاً منها لم يرد عليهم أحدٌ من الصحابة بأن الآية في غير الزكاة الواجبة وكذلك كان موقف علماء المسلمين منهم بل قالوا لهم : إن الخطاب هنا للنبي ﷺ ولكل من يلي أمر المسلمين من بعده (٣) .

٣- حديث معاذ فإنه يدل على أن الزكاة تُؤخذ بواسطة ولي الأمر .

٤- قالوا هذا الذي أشار إليه القرآن وجاءت به السنة القولية أكَّدته السنة العملية والواقع التاريخي الذي جرى عليه العمل في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد خلفائه الراشدين من بعده ، ولهذا قال العلماء : يجب على

---

(١) سورة التوبة : ٦٠ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٣ .

(٣) فقه الزكاة (٢ / ٧٤٨) .

الإمام أن يبعث عمّاله لجمع الصدقة لأن النبي ﷺ والخلفاء من بعده كانوا يبعثون السعاة لذلك ولأن في الناس من يملك المال ولا يعرف القدر الواجب عليه ومنهم من يعرف ويبخل فوجب أن يبعث من يأخذ حــق المال [١] .

٥ – الآثار الكثيرة الواردة في هذا الأمر ومنها : قول عبد الله بن عمر : ادفعوا صدقاتكم إلى من ولاه الله أمركم فمن برَّ فلنفسه ومن أثم فعليها [٢] .

وعن سهل بن أبي صالح عن أبيه قال : اجتمع عندي نفقةٌ فيها صدقة فسألت سعد بن أبي وقاص وابن عمر وأبي هريرة وأبا سعيدٍ الخدري أن أقسمها أو أدفعها إلى السلطان ؟ فأمروني جميعاً أن أدفعها إلى السلطان ما اختلف عليّ منهم أحد [٣] .

وفي روايةٍ قال : فقلت لهم : هذا السلطان يفعل ما ترونه – وكان هذا في عهد بني أمية – فأدفع إليهم زكاتي ؟ فقالوا كلهم : نعم فادفعها [٤] .

وعن المغيرة بن شعبة أنه قال لمولىً له كان على أمواله بالطائف كيف تصنع في صدقة مالي ؟ قال : منها ما أتصدق به ومنها ما أدفعه إلى السلطان فقال له : وفيم أنت من ذلك ؟ – أنكر عليه أن يُفرِّقها بنفسه – فقال له مولاه : إنهم يشترون بها الأرض ويتزوجون بها النساء ، فقال له : ادفعها إليهم فإن رسول الله ﷺ أمرنا أن ندفعها إليهم [٥] .

---

[١] راجع : المجموع للنووي (٦ / ١٧٦) .

[٢] مصنف ابن أبي شيبة (٢ / ٣٨٤) رقم : ١٠١٩٠ .

[٣] مصنف ابن أبي شيبة (٢ /٣٨٤) رقم : ١٠١٨٩، السنن الكــبرى للبيهقــي (٤ / ١١٥) رقــم : ٧١٧٧.

[٤] مصنف ابن أبي شيبة (٢ / ٣٨٤) رقم : ١٠١٨٩ .

[٥] السنن الكبرى للبيهقي (٤ / ١١٥) رقم : ٧١٧٢ .

قال الدكتور القرضاوي : هذه الأحاديث الصريحة عن رسول الله ﷺ وهذه الفتاوى الحاسمة من صحابته الكرام تجعلنا نُدرك بل نُوقن أن الأصل في شريعة الإسلام أن تتولى الحكومة الإسلامية أمر الزكاة فتُجبيها من أربابها وتصرفها على مُستحقيها وأن على الأمة أن تُعاون أولياء الأمر في ذلك إقراراً للنظام وإرساءً لدعائم الإسلام وتقويةً لبيت مال المسلمين .

وربَّما قال البعض : إن وظيفة الأديان أن تُوقظ الضمائر وتُحيي القلوب بنور الإيمان ثم تحاول أن تقودهم بزمام الشوق إلى مثوبة الله عز وجل أو تسوقهم بسوط الخشية من عقابه تاركةً لأصحاب السلطان أن يحدِّدوا وينظِّموا ويطالبوا ويعاقبوا فهذا من وظيفة السلطة السياسية وليس من مُهمة التوجيه الديني .

ونُجيب على ذلك فنقول : إن هذا الأمر قد يصح في أديانٍ أخرى ولكن لا يصح أبداً في الإسلام لأنه عقيدةٌ ونظامٌ وخُلُق وقانون وقرآن وسلطان ودين ودنيا وليس الإنسان مشطوراً في الإسلام شطر منه للدين وشطر آخر للدنيا وليس الحياة مقسومة بعضها لقيصر وبعضها لله ، وإنما الحياة كلها والإنسان كله والكون كله لله الواحد القهار .

جاء الإسلام رسالة شاملة هادية فجعلت من هدفها تحرير الفرد وتكريمه وترقية المجتمع وإسعاده وتوجيه الشعوب والحكومات إلى الحق والخير ودعوة البشرية كلها إلى الله : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .

وفي هذا الإطار جاء نظام الزكاة فلم تُجعل من شئون الفرد الخاصة بل من وظيفة الحكومة الإسلامية فوكل الإسلام جبايتها وتوزيعها على مستحقيها إلى الدولة لا إلى ضمائر الأفراد وحدها وذلك لجملة أسباب لا يحسُن بشريعة الإسلام أن تهملها منها :

أولا : إن كثيراً من الأفراد قد تموت ضمائرهم أو يُصيبها السقم والهزال فلا ضمان للفقير إذا تُرك حقه لمثل هؤلاء .

ثانياً : في أخذ الفقير حقه من الحكومة لا من الشخص الغني حفظٌ لكرامته وصيانةٌ لماء وجهه أن يُراق بالسؤال ورعاية لمشاعره أن يجرحها المن أو الأذى .

ثالثاً : إن ترك هذا الأمر للأفراد يجعل التوزيع فوضى فقد ينتبه أكثر من غني لإعطاء فقيرٍ واحد على حين يغفلون عن آخر فلا يفطن له أحد وربما كان أشد فقراً ولكنه ممن يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .

رابعاً : إن صرف الزكاة ليس مقصوراً على الأفراد من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فمن الجهات التي تُصرف فيها الزكاة مصالح عامة للمسلمين لا يُقدِّرها الأفراد وإنما يُقدِّرها أولو الأمر وأهل الشورى في الجماعة المسلمة كإعطاء المؤلفة قلوبهم وإعداد العدة والعدد للجهاد في سبيل الله وتجهيز الدعاة لتبليغ رسالة الإسلام في العالمين .

خامساً : إن الإسلام دينٌ ودولة وقرآن وسلطان ولابد لهذا السلطان وتلك الدولة من مالٍ تقيم به نظامها وتنفذ به مشروعاتها ولابد لهذا المال من موارد والزكاة موردٌ هام دائم لبيت المال في الإسلام (١) .

القضية العاشرة :

الإسلام يعتبر الزكاة جزءاً أصيلاً من نظامه الاقتصادي ولذلك لم يترك للأفراد أن يُخرجوها أو يمتنعوا عن إخراجها بل شرع لولي الأمر معاقبة الممتنع عن إخراجها مع أخذها منه قهراً بغير اختياره وهذا الحُكم لا خلاف فيه

---

١ راجع : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام للدكتور القرضاوي ص ٩٤ ، ٩٥ .

بين العلماء ، وقد جاء في الحديث : " من أعطاها مُؤتجراً فله أجره ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا لا يحل لآل محمدٍ منها شيء [(١)] وقد تضمَّن هذا الحديث جملة مبادئ هامة في باب الزكاة :

أحدها : أن الأصل في الزكاة أن يُخرجها المسلم طالباً الأجر من الله ومحتسباً عنده الثواب لأنه يتعبد بها فمن فعل ذلك فأجره وثوابه عند الله .

الثاني : أن من غلب عليه الشح والبخل ومنع الزكاة لم يُترك وشأنه بل تُؤخذ الزكاة منه قهراً بسلطان الشرع وقوة الدولة وللحاكم أن يُعاقبه على ذلك بأخذ نصف ماله تأديباً له وردعاً لغيره أن يسلك سبيله .

الثالث : أن هذا التشديد من أجل رعاية حق الفقراء والمساكين وليس للنبي ﷺ ولا لأحدٍ من آله منها شيء على خلاف ما عُرف في الصدقات عند اليهود حيث كان عشرها مخصَّصاً لآل هارون – اللاويين – الذين كانوا كهاناً بالنسل والوراثة وكان جزءٌ آخرٌ منها يُصرف إلى أصحاب المناصب الدينية [(٢)].

القضية الحادية عشرة :

استدل بعض العلماء بهذا الحديث على وجوب الزكاة في مال الصبي والمجنون متى كان نصاباً وحال عليه الحول لأنهما صارا بذلك أغنياء والعبرة في إخراج الزكاة بالغنى وليس بالسن أو العقل وفي الحديث أن الزكاة تؤخذ من أغنيائهم وهذه المسألة اختلف فيها العلماء على مذهبين رئيسين :

---

(١) أبو داود كتاب الزكاة باب في زكاة السائمة (٢ / ١٠٣) رقم : ١٥٧٥ ، والنسائي كتاب الزكاة باب عقوبة مانع الزكاة (٥ / ١٥) .

(٢) راجع : الأركان الأربعة للأستاذ أبو الحسن الندوي ، ص ١٢٩ ، فقه الزكاة (١ / ٧٧ ، ٧٨) .

الأول : أن الزكاة واجبة في مالهما ومن أشهر القائلين بهذا الرأي : أبو جعفر الباقر وعامر الشعبي وإبراهيم النخعي وشريح القاضي ووافقهم أبوحنيفة وأصحابه في الأموال كلها إلا في الزروع والثمار لأن النماء متحققٌ فيها .

وقد استدلوا لصحة مذهبهم بأدلةٍ كثيرة من أشهرها :

١- قول الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (١) قالوا : التطهير يكون من الذنوب والخطايا والصبي والمجنون لا ذنب عليهما حتى يحتاجا إلى تطهيرٍ وتزكية فهما إذاً خارجان عمن تُؤخذ منهم الزكاة .

٢- قول رسول الله ﷺ " رُفع القلم عن ثلاثة : عن الصبي حتى يبلغ وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق " (٢) ، فرفع القلم كناية عن سقوط التكليف لأن التكليف إنما يكون لمن يفهم خطاب الشارع والصِغر والجنون يحولان دون ذلك .

٣- لأن الزكاة عبادة محضة وتحتاج إلى نية والصبي والمجنون لا تتحقق منهما النية فلا تجب عليهما العبادة ولا يخاطبان بها ، فكما سقطت عنهما الصلاة لفقدان النية سقطت عنهما الزكاة بالعلة نفسها .

٤- مصلحة الصغير والمجنون تقتضي الحفاظ على مالهما وإبقاءه خشية أن تستهلكه الزكاة لعدم تحقق النماء فيُخشى من تكرار الزكاة كل عامٍ أن تأتي على جميع المال فيتعرض لذل الحاجة وهوان الفقر ، ولذلك قال بعض

---

(١) سورة التوبة : ١٠٣ .

(٢) أبو داود كتاب الحدود باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً (٤ / ١٣٧) رقم : ٤٣٩٨ من حديث عائشة ، والترمذي كتاب الحدود باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد (٣ / ١١٤) رقم : ١٤٢٨ وحسنه من حديث علي بن أبي طالب .

العلماء كمجاهد والحسن وغيرهما : لا تجب الزكاة في الـذهب والفضـة الخاص بهما وتجب في الثمار والزروع والمواشي لأن النماء متحققٌ فيها .

الثاني : ذهب فريقٌ من العلماء إلى وجوب الزكاة في مال الصبي والمجنون وهو قول جمهور العلماء ومن أشهر القائلين بهذا الرأي من الصحابة : عمر وابنه وعلي وعائشة وجابر ومن بعدهم : عطاء وطاووس ومجاهد والزهري من التابعين ومن بعدهم : مالك والشافعي وأحمد وغيرهم وقد استدلوا لصحة مذهبهم بأدلةٍ كثيرة من أشهرها :

١- عموم النصوص من الآيات والأحاديث الصحيحة والتي دلت على وجوب الزكاة في مال الأغنياء وجوباً مطلقاً دون استثناء صبيٍ أو مجنون فعموم الغنى يشمل كل غني من المسلمين فيدخل فيه الصغير والكبير إذا كانوا أغنياء [١] .

٢- حديث يوسف بن ماهك أن رسول الله ﷺ قال : " ابتغوا في مال اليتيم أو في أموال اليتامى لا تُذهبها أو لا تستهلكها الصدقة " [٢] .

وحديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : " اتَّجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة " [٣] .

وما رواه سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب أنه قال : " ابتغوا في أموال اليتامى لا تأكلها الصدقة " [٤] .

---

[١] المحلى لابن حزم (٥ / ٢٠١ ، ٢٠٢) .

[٢] السنن الكبرى للبيهقي (٤ / ١٠٧) رقم : ٧١٣٠ ، مصنف ابن أبي شيبة (٤ / ٦٦) رقم : ٦٩٨٢.

[٣] الطبراني في المعجم الأوسط (٤ / ٢٦٤) رقم : ٤١٥٢ وقال الهيثمي : أخبرني سيدي وشيخي – يعـني الحافظ العراقي – أن إسناده صحيح مجمع الزوائد (٣ / ٦٧) .

[٤] موطأ مالك كتاب الزكاة باب زكاة أموال اليتامى والتجارة لهم فيها ص ٢١٥.

فهذه الأحاديث تدل على أن إخراج الزكاة من مال الصبي واجب لأنه لا يجوز للولي أن يتبرع بمال الصبي والمجنون في غير واجب فإذا أمره الشرع بإخراج الزكاة فالزكاة حينئذٍ واجبة .

٣ – ما ورد عن الصحابة من آثارٍ تدل على وجوب الزكـــــاة في مالهما ولم يُعرف لهم مخالف من الصحابة إلا رواية ضعيفة عن ابن عباس [١] .

٤ – لأن مقصود الزكاة هو سد خُلة الفقراء من مال الأغنياء شكراً لله تعالى وتطهيراً للمال ، ومال الصبي والمجنون قابلٌ لأداء النفقات والغرامات فلا يضيق عن إخراج الزكاة [٢] .

وهذا هو المذهب الراجح لقوة أدلته – خاصةً إذا كان مال الصبي والمجنون كثيراً – ومال الصبي والمجنون تجب فيه الزكاة لأنه حقٌ يتعلق بالمال فلا يسقط بالصغر والجنون وذلك بشرط أن لا تكون أموالهما مرصدة لنفقة ضرورية فإنها حينئذٍ لا تكون فاضلة عن الحاجة الأصلية [٣] .

القضية الثانية عشرة :

أمر رسول الله ﷺ معاذاً في هذا الحديث أن يأخذ الصدقة من الأغنياء ويردها إلى الفقراء والأصناف المستحقة للزكاة ثمانية ولم يذكر منها في الحديث إلا صنف واحد ، ولذلك اختلف العلماء في حكم إعطاء الزكاة لصنف واحد من الأصناف الثمانية التي ذكرها الله في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ

---

[١] المحلى (٥ / ٢٠٨) .

[٢] المجموع (٥ / ٣٣٠) .

[٣] راجع فقه الزكاة (١ / ١٠٥ – ١١٩) .

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١) .

١- فذهب الشافعي وجمهور أصحابه إلى وجوب استيعاب الأصناف الثمانية والتسوية بينهم في قدر ما يعطيهم .

قال النووي : لا يجوز ترك صنفٍ منهم مع وجوده فإن تركه ضَمِن نصيبه وبمذهبنا في استيعاب الأصناف قال عكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهري وداود .

وهو رواية عن أحمد ، وقد استدل الشافعية لصحة مذهبهم بأدلةٍ عديدة منها :

أ- قول الله تعالى " إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ... " الآية فقد أضاف الله الصدقة للأصناف الثمانية بلام التمليك وكان ذلك بياناً وهذا كما لو أوصى لأصنافٍ معيَّنين أو لقومٍ معيَّنين فالواجب أن يعُمَّهم جميعا .

ب- حديث زياد بن الحارث الصدائي قال : أتيت رسول الله ﷺ فبايعته فأتاه رجلٌ فقال : أعطني من الصدقة فقال له رسول الله ﷺ : " إن الله لم يرض بحكم نبيٍ ولا غيره في الصدقات حتى حكم هو فيها فجزَّأها ثمانية أجزاء فإن كنت من أهل تلك الأجزاء أعطيتك حقك " (٢) .

ج- ووجَّهوا اقتصار النبي ﷺ على ذكر الفقراء فقط في حديث معاذ وغيره لكونهم الغالب على الأصناف الثانية أو للمقابلة بينهم وبين الأغنياء .

---

(١) سورة التوبة : ٦٠ .

(٢) أبو داود كتاب الزكاة باب من يعطي من الصدقة وحد الغنى (٢ / ١٢٠) رقم : ١٦٣٠

٢ – ذهب المالكية والأحناف وأصحابهما إلى جواز إعطاء الزكاة لصنفٍ واحد أو أكثر وأنه لا يجب استيعاب الأصناف الثمانية في القسمة وقالوا : إن اللام في الآية [1] ليست لام التمليك وإنما هي لام الأجل كقولك : هذا السرج للدابة أي من أجل الدابة . وقد استدلوا على صحة مذهبهم بأدلةٍ كثيرة منها :

أ- قول الله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾ [2] فلم يذكر الله ﷻ في الآية مصرفاً إلا الفقراء.

ب- حديث معاذ فإن فيه أن الزكاة تُؤخذ من الأغنياء فتُرد في الفقراء قالوا : هذا نصٌّ في ذكر أحد الأصناف قرآناً وسنة .

ج- قال ابن عباس : إذا وضعت الزكاة في صنفٍ واحد من هــذه الأصناف فحسبك وإنما قال الله تعالى " إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ... " الآية لئلا يجعلها في غير هذه الأصناف [3].

والراجح في هذه المسألة أنه إذا كثُر المال ووجدت الأصناف المحتاجة إليه فإنه ينبغي تعميم الأصناف المستحقين ولا يجوز حرمان صنفٍ منهم مع قيام سبب استحقاقه ووجود حاجته وليس من الواجب التسوية بين كل الأصناف وإنما يكون العطاء باعتبار العدد والحاجة كما أنه يجوز صرف الزكاة كلها لبعض الأصناف لتحقيق مصلحة مُعتبرة شرعاً تقتضي التخصيص .

---

[1] يعني قوله تعالى " إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ... " الآية التوبة : ٦٠ .

[2] سورة البقرة : ٢٧١ .

[3] عبد الرزاق في مصنفه (٤ / ١٠٥) رقم : ٧١٣٦ .

كما أنه ينبغي أن يكون الفقراء والمساكين هم أول الأصناف الذين تُصرف لهم الزكاة فإن كفايتهم وإغنائهم هو الهدف الأول للزكاة فلا يجوز لحاكمٍ أن يُنفق مال الصدقات كله على الجيش مثلاً ويدع الفقراء والمساكين هذا ما لم تكن هناك ظروفٌ خاصة مؤقتة يكون علاجها مقدماً على علاج الفقر والمسكنة .

وإن كان مال الزكاة قليلاً جاز تفريقه في صنفٍ واحد بل جاز إعطاؤه لفردٍ واحد فإن تفريق المال القليل على الأصناف الكثيرة أو الأفراد العدة يضيع الفائدة المرجوة من الزكاة ، هذا ما لم يكن العدد الموجود في حاجةٍ شديدة إلى إسعافٍ سريع بأي قدرٍ من المال ولو كان قليلاً ، فالتفريق في هذه الحالة أفضل والأمر دائر عموماً مع المصلحة فحيثما وجدت فثمَّ شرع الله .

القضية الثالثة عشرة :

في قول النبي ﷺ لمعاذ : " اتق دعوة المظلوم " أمرٌ له بتجنب الظلم لئلا يكون سبباً في دعوة المظلوم عليه ودعوته مستجابة .

وفي الحديث تحذيرٌ من جميع أنواع الظلم والسبب في ذكر هذا التحذير عقب المنع من أخذ كرام الأموال الإشارة إلى أن أخذها ظلم .

ودعوة المظلوم تُرفع إلى الله ولا يحول بينه وبينها شيء فليس بينها وبين الله حجاب أي صارف يصرفها فهي مقبولةٌ مُستجابة وإن كان عاصياً وفي الحديث : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه " (١) .

---

(١) أحمد في مسنده (٤٢١/٨) رقم : ٨٧٨١ .

وفي الحديث أيضاً أن الله تعالى يرفع دعوة المظلوم على الغمام ويقول لها: " لأنصرنكِ ولو بعد حين " (١) .

قال ابن العربي المالكي : إلا أن الحديث وإن كان مُطلقاً فهو مُقيَّد بالحديث الآخر أن الداعي على ثلاث مراتب : إما أن يعجِّل له ما طلب وإما أن يُدَّخر له أفضل منه وإما أن يُدفع عنه من السوء مثلها ، وهذا كما قُيِّد مطلق قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ (٢) بقوله تعالى: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ (٣) .

وفي الحديث تحذيرٌ شديدٌ من جميع أنواع الظلم لأن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة .

قال ابن الجوزي : الظلم يشتمل على معصيتين : أخذ مال الغير بغير حق ومبارزة الرب بالمخالفة والمعصية فيه أشد من غيرها ، لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ولو استنار بنور الهدى لاعتبر فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً (٤) ودعوته مستجابة في الدنيا وفي الحديث : " ثلاث دعوات لا شك في إجابتهن : دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على الولد " (٥) وما أحسن قول الشاعر :

---

(١) الترمذي كتاب صفة الجنة باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها (٢٣٦/٤) رقم : ٢٥٣٤ ، وأحمد في المسند (٨ / ١٣٧) رقم :٨٠٣٠ وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

(٢) سورة النمل : ٦٢ .

(٣) سورة الأنعام : ٤١ .

(٤) فتح الباري (٥ / ١٢١) .

(٥) أبو داود كتاب الصلة باب الدعاء بظهر الغيب (٢ / ٩٠) رقم : ١٥٣٦ ، والترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في دعوة الوالدين (٣ / ٣٦٢) رقم : ١٩١٢ .

لا تظلمن إذا مـا كنـت مقتـدراً ** فالظلم ترجع عقباه إلى النـدم

تنام عينـاك والمظلـوم منتبـه ** يدعو عليك وعين الله لم تـنم

القضية الرابعة عشرة :

يُعلِّم النبي ﷺ معاذاً في هذا الحديث كيف يدعوإلى الإسلام فيبدأ بتعريفهم به قبل أن يطالبهم بتكاليفه ، لأن التكليف لابد وأن يسبقه تعريف وقد علَّم الله رسوله ﷺ ذلك حينما خاطبه بقوله : ﴿ **فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ** ﴾ [١] فالعلم يسبق التكليف ولذلك نزل القرآن ليُعرِّف الناس بأمورٍ أربعة قبل أن يطالبهم بالتكاليف هذه الأمور هي :

١) عرَّفهم بربهم ليعبدوه

٢) عرَّفهم بأنفسهم ليعرفوا حقيقة وجودهم .

٣) عرَّفهم بالكون ليسخروه ويعمروه .

٤) عرَّفهم بالمصير الذي ينتظرهم في الآخرة ليعملوا له .

وإذا صحَّ تصور المسلم عن الكون والحياة انضبط سـلوكه لأن السـلوك مرتبطٌ بالتصور يصح بصحته وينحرف بانحرافه ولذلك فإن سلوك المسـلم لا يستقيم إلا بأمرين : صحة الاعتقاد النابعة من المعرفة وصدق الاتباع فإذا تحققا في إنسانٍ كان ممن أسلم وجهه لله وهو محسن وكان قبول التكليف عليه سـهلاً ميسَّراً بعد ذلك ، ثم يأتي بعد ذلك دور التدرج في التكاليف والإخبار بالأهم ثـم المهم لأنه لو دعاهم إلى الإسلام كله دفعة واحدة ربما منعهم من الدخول فيه ما يجدون فيه من كثرة مخالفته لدينهم فإن مثله قد يمنع من الدخول ويُورث التنفير وهذا هو المنهج القويم والأسلوب الحكيم في دعوة الناس .

---

[١] سورة محمد : ١٩ .

والنبي ﷺ يعلِّم معاذاً في هذا الحديث أسلوباً من أساليب التدرج في الدعوة خطوة فخطوة تخفيفاً على العقل في القبول وتوطئةً للتنقل من شيءٍ إلى شيء عن طريق الرغبة والاشتياق .

فمبدأ التدرج مبدأ أساسي في دعوة الناس للإسلام حتى يفهموه على قدر عقولهم ويُقبلوا عليه بقلوبهم ويسهُل عليهم تطبيق أحكامه وشعائره .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : أول ما نزل من القرآن سورةٌ من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنا أبداً ، لقد نزل بمكة على محمدٍ ﷺ وإني لجاريةٌ ألعب : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [1] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده [2] .

فالخطة الأساسية التي كان يعتمد عليها ربنا عز شأنه ورسولنا ﷺ في تغيير واقع الجاهلية الأولى هو اعتماد المنهج المُتدرِّج كعنصرٍ أساسي في خطة التغيير فالتعريف بالله أولاً ثم الصلاة ثم الزكاة ومن فعل ذلك سهل عليه أداء جميع تكاليف الإسلام والانتهاء عن مناهيه .

الدروس المستفادة من الحديث

[١] فيه أن الدعاء إلى التوحيد واجب قبل القتال .

[٢] فيه وصية الإمام عاملة فيما يحتاج إليه من الأحكام وغيرها وعظته وتخويفه من الظلم .

[٣] فيه قبول خبر الواحد ووجوب العمل به .

---

[1] سورة القمر : ٤٦ .

[2] البخاري كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن (٨ / ٦٥٤) رقم ٤٩٩٣.

[٤] بعث الإمام عماله لجمع أموال الزكاة .

[٥] عدم جواز دفع الزكاة إلى كافرٍ لعود الضمير في فقرائهم إلى المسلمين سواءً قلنا بخصوص فقراء البلد أو عموم فقراء المسلمين .

[٦] أن الزكاة لا تجب على الفقراء وإنما تجب على الأغنياء فقط .

[٧] أن من ملك النصاب صار غنياً ولا يجوز له الأخذ من الزكاة إلا من استثنى .

[٨] فيه أن الصلوات الواجبة في اليوم والليلة خمسٌ فقط .

[٩] لا يُحكم بإسلام أحدٍ إلا إذا نطق بالشهادتين .

[١٠] يحرم على الساعي أخذ خيار المال في أداء الزكاة بل يأخذ الوسط كما يحرم على رب المال إخراج شره وخبيثه .

[١١] التحذير من الظلم وعظم تحريمه .

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه).

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث :

أ- البخاري كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ٩٦/١ رقم ١٠ .

ب- مسلم كتاب الإيمان باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل ٦٥/١ رقم ٤٠ ولفظه : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أيُّ المسلمين خير ؟ قال : " من سلم المسلمون من لسانه ويده " .

الراوي الأعلى للحديث

هو عبد الله بن عمرو بن العاص أبو محمد القرشي الصحابي الجليل سبقت ترجمته .

معاني المفردات :

المسلم : الإسلام هو الاستسلام الكامل لله تعالى والانقياد التام لأمره والمراد بالمسلم هنا : المسلم الكامل الإسلام .

سلم : من السلامة والمعنى : لا يكون مسلماً حتى يَسلمَ المسلمون من بوائقه .

لسانه : هو الجارحة الكائنة في الفم والتي ينطق بها الإنسان .

ويده : اليد اسم للجارحة المعروفة ولكن المقصود هنا أعم من أن يكون اليد الحقيقية أو اليد المعنوية وإنما المقصود مطلق الإيذاء بالقوة والاستيلاء على حق الغير بغير حق فإنه إيذاء ولكن لا باليد الحقيقية .

المُهاجر : هو من فارق عشيرته وأهله وهو بمعنى الهاجر ووقوع لفظ المفاعلة يقتضي وقوع فعلٍ من اثنين لكنه هنا للواحد كالمسافر ويُحتمل أن يكون علىَ بابه إلا أن من لازم كونه هاجراً وطنه مثلاً أنه مهجور من وطنه ، **وأصل الهجرة** : من الهجر ضد الوصل يقال : هَجَرَه هَجْراً وهِجْراناً ثم غلب استعماله على الخروج من أرضٍ إلى أرض وإذا أُطلق في الحديث ذكر الهجرتين فالمراد : الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة .

هجر : أي ترك امتثالاً لأمر الله وإجلالاً له وخوفاً منه .

ما نهى الله عنه : من الذنوب والمعاصي .

المعنى الإجمالي للحديث

هذا الحديث من جوامع الكلم التي أُوتيها رسولنا الكريم ﷺ فإنه قد حوى – على قِلَّة ألفاظه – كثيراً من المعاني وصحح الأفهام في بعض القضايا الهامة.

فقد بيَّن صفات المسلم العارف لربه المطيع له الخائف منه الراغب في جنته المستسلم لأمره وأنه هو الذي يعيش في سلامٍ مع الخلق جميعاً فلا يؤذي أحداً بلسانٍ أو بيد بل مثله مثل النخلة ليس فيها إلا خير ولا يسقط منها إلا كل نافع وفوق ذلك يرميها الناس بالحجر فتلقي عليهم أطيب الثمر فهو رحيم بإخوانه مشفق عليهم يحب الخير لهم ويكف سائر أنواع الشر عنهم .

ثم يكشف لنا الحديث حقيقة الهجرة فقد يظن البعض أنها انقطعت تماماً بفتح مكة فيوجه النبي ﷺ أنظارنا إلى حقيقة الهجرة وأنها هجر المعاصي والسيئات .

وفي الحديث : " المؤمن من أَمِنه الناس على أموالهم وأنفسهم والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب " [١] ، وفي حديثٍ آخر : " المهاجر من هجر السوء فاجتنبه " .[٢]

فتلك حقيقة الهجرة وهي مطلوبةٌ من كل مسلم أبد الدهر بحيث لا يصفوا له دينه إلا بها ، فالمسلم لا يؤذي أحداً بلسانه ولا بيده فالناس منه في أمان ويهجر المعاصي والذنوب فيرضي خلق الله ويحبونه ويرضى عنه خالق السماء بكفه عن المعاصي .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

النبي ﷺ يرشدنا في هذا الحديث إلى صفات المسلم الكامل الذي عرف ربه فاستسلم له وانقاد لأمره وعرف حقوق إخوانه فأدَّاها ولم يتطاول على أحدٍ بلسانه ولا بيده فقال : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " والألف واللام في المسلم يُراد بها الكمال أي : المسلم الكامل الإسلام هو من اتَّصف بهذه الصفات مع باقي أركان الإسلام وبقدر نقصها فيه يكون نقصه .

قال الخطابي : المراد أن : أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله تعالى أداء حقوق المسلمين وإثبات اسم الشيء على معنى إثبات الكمال له مستفيض في كلامهم يقولون : زيدٌ الرجل أي الكامل في الرجولية ويُحتمل أن يكون المراد بذلك بيان علامة المسلم التي يُستدلُّ بها على إسلامه وهي : أن يسلم المسلمون من لسانه ويده .

---

[١] أحمد في المسند ١٨٣/١٧ رقم ٢٣٨٤٠ ، ابن ماجة في سننه كتاب الفتن باب حرمة دم المؤمن وماله ١٤٩٨/٢ رقم ٣٩٣٤ ، وفي الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

[٢] أحمد في المسند ٣٩٨/٦ رقم ٦٩٢٥ وإسناده صحيح .

ويُحتمل أن يكون المراد بذلك : الإشارة إلى الحث على حسن معاملة العبد مع ربه لأنه إذا أحسن معاملة إخوانه فأولى أن يُحسن معاملة ربه فيكون من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى . [١]

وليس معنى ذلك أن شرط الإسلام أن يسلم المسلمون من لسانه ويده مع الاتِّفاق على أنه إذا أتى بالأركان الخمسة فهو مسلم بالنص والإجماع بل المراد هنا المسلم الكامل وإذا لم يسلم المسلمون من لسانه ويده فلا يكون مسلماً كاملاً وذلك لأن الجنس إذا أُطلق يكون محمولاً على الكامل كما قال سيبويه .

فالحديث لا يتكلَّم عن أصل الإسلام فذلك مقرَّرٌ معروف وإنما يتكلم عن كمال الإسلام ومراتبه السامية ولذلك ورد في إحدى روايات الحديث أن رسول الله ﷺ سُئل أي المسلمين خير ؟ فقال : " من سلم المسلمون من لسانه ويده " .[٢]

الفائدة الثانية :

المسلم يخاف ربه ويحافظ على حقوق خلقه فلا يؤذي أحداً بلسانٍ أو بيد إلا إذا اقتضت المصلحة الشرعية ذلك كإقامة الحدود والتعازيز وقتال الكفار المأمور بقتالهم ونحو ذلك فإذا انتفت المصلحة الشرعية فالأصل صيانة الأعراض والأموال والدماء للمسلمين وغيرهم .

وذكر المسلمين هنا خرج مخرج الغالب لأن المسلم مأمورٌ بكفِّ الأذى عن أخيه بشكلٍ أشد تأكيداً ولأن الكفار أنواع ، منهم من يجب قتاله ومنهم من يجب الكف عنه .

---

[١] فتح الباري ٦٩/١ .

[٢] مسلم كتاب الإيمان باب تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل ٦٥/١ رقم ٤٠ .

وهذا الحُكم عامٌ في حقِّ الرجال والنساء وإنما أُتي بجمع التـذكير علـى سبيل التغليب فإن المسلمات يدخلن في ذلك قطعاً .

قال القرطبي : لا ينتهي الإنسان إلى هذا حتى يتمكن خـوف عقـاب الله تعالى من قلبه ورجاء ثوابه فيُكسبه ذلك ورعاً يحمله على ضبط لسانه ويده فلا يتكلم إلا بما يعَنيه ولا يفعل إلا ما يسلم فيه ومن كان كذلك فهو المسلم الكامـل والمتقي الفاضل .[١]

ولأهمية هذا الأمر في حياة المسلم كان ابن عمر يحلف ورب هذه البنيـة – أي الكعبة – لسمعت رسول الله ﷺ يقول : " المهاجر مـن هجـر السـيئات والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده " .[٢]

وسُئل الحسن البصري عن الأبرار فقال : هم الذين لا يُـؤذون الـذر ولا يرضون الشر.

الفائدة الثالثة :

يُبيِّن لنا هذا الحديث أهمية اللسان وأثره البالغ في تحديد مصير صـاحبه فالجنة إن استعمله في الطاعات وقيَّده بلجام الشرع والنـار إن اسـتعمله فـي المحرمات فإنه لا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم .

فاللسان من نِعَم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فإنه صـغيرٌ جُرْمـه عظيمٌ طاعته ومعصيته إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادته فخطره عظـيم والنجاة من خطره تكون في قول الحق و الصمت عن الباطل ولذلك أمر الشرع بقول الخير أو الصمت عن الشر .

---

[١] المفهم : ٢٢٤/١ .

[٢] ابن حبان في صحيحه ٤٢٤/١ رقم ١٩٦ ، الإيمان لابن منده ٤٥١/١ رقم ٣١٣ .

وفي الحديث : " من كان يؤمن بـــالله واليـــوم الآخـــر فليقـــل خيـــراً أو ليصمت " [١] ، وعدَّ رسول الله ﷺ النجاة في الصمت فقـــال : " مـــن صـــمت نجا " [٢] ، وسُئِل رسول الله ﷺ ما النجاة ؟ فقال : " أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئك " [٣] .

بل إن النبي ﷺ تكفَّل بالجنة لمن يستطيع حفظ لسانه وفرجه ، فقال : " من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة " [٤] ، ولما سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار قال : " الأجوفـــان : الفـــم والفـــرج " [٥] والفم محل اللسان .

وسأل معاذ بن جبل رسول الله ﷺ فقال له : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم يـــا رسول الله ؟ فقال له رسول الله ﷺ " ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب النـــاس فـــي النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم " . [٦]

---

[١] البخاري كتاب الأدب باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ٤٦٠/١٠ رقم ٦٠١٨ ، مسلم كتاب الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان ٦٨/١ رقم ٤٧ .

[٢] الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٢٥٥/٤ رقم ٢٥٠٩ ، أحمد في مسنده ٣٦/٦ رقم ٦٤٨١ ، والطبراني في المعجم الأوسط ٢٦٤/٢ رقم ١٩٣٣ ، قال ابن حجر : رواه الترمذي ورواته ثقـــات فـــتح الباري ٣١٥/١١ ، وقال المنذري : رواه الطبراني ورجاله ثقات الترغيب والترهيب ٩/٤ .

[٣] الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في حفظ اللسان ١٨٢/٤ رقم ٢٤١٤ ، وقال : حديث حسن ، أحمد في المسند ٢٤٤/١٦ رقم ٢٢١٣٦ .

[٤] البخاري كتاب الرقائق باب حفظ اللسان ٣١٤/١١ رقم ٦٤٧٤ .

[٥] أحمد في المسند ٢٤/٨ رقم ٧٨٩٤ ، وابن ماجة في سننه كتاب الزهد باب ذكر الذنوب ١٤١٨/٢ رقم ٤٢٤٦ ، وابن حبان في صحيحه ٢٢٤/٢ رقم ٤٧٦ وإسناده صحيح .

[٦] الترمذي كتاب الإيمان باب ما جاء في حرمة الصلاة ٢٨٠/٤ رقم ٢٦٢٥ ، وقال : حديث حسن صحيح ، أحمد في المسند ١٦٧/١٦ رقم ٢١٩١٥ .

وكان ابن مسعود يُلبِّي على الصفا ويقول : يا لسان قل خيراً تغنم أو اسكت عن شرٍ تسلم من قبل أن تندم ثم قال : قال رسول الله ﷺ : " إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه " .(١)

وقال الحواريون لعيسى بن مريم : دُلَّنا على عملٍ ندخل به الجنة فقال : لا تنطقوا أبداً قالوا : لا نستطيع ذلك فقال : فلا تنطقوا إلا بخير . (٢) ، وقال : العبادة عشرة أجزاء تسعٌ منها في الصمت وجزءٌ في الفرار من الناس . (٣)

وإذا تأمَّل العاقل في ذنوبه يجد أكثرها حدثت بلسانه فما أحوجه إلى طول سجن وشدة حساب ، ولذلك كان أبو بكر الصديق يُمسك لسانه بيده ويقول : هذا الذي أوردني الموارد . (٤)

وكان أحد الصالحين يقول : أنصف أذنيك من لسانك فإن الله خلق لك أذنين ولساناً واحداً لتسمع أكثر ما تتكلم .

ومن كثُر كلامه كثُر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به . (٥)

ومن تأمَّل في الكلام وجده على أربعة أقسام : قسمٌ ضررٌ محض ويلزم السكوت عنه ، وقسمٌ فيه ضررٌ ومنفعة فوق الضرر فيجب السكوت عنه ، وقسمٌ

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١٠/١٩٧ رقم ١٠٤٤٦ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٤٠ رقم ٤٩٣٣ ، وقال الهيثمي : رجال الطبراني رجال الصحيح مجمع الزائد ١٠/٣٠٣ ، ابن أبي شيبة في مصنفه ٥/٣٢٠ رقم ٢٦٤٩٩ ، حلية الأولياء ١/١٣٤ .

(٢) إحياء علوم الدين ٣/١٠٥ .

(٣) إحياء علوم الدين ٣/١٠٥ .

(٤) الأحاديث المختارة للضياء المقدسي ١/٧٦ ، مصنف ابن أبي شيبة ٥/٣٢٠ رقم ٢٦٥٠٠ ، أبو يعلى في مسنده ١/١٧ رقم ٥ ، البزار في مسنده ١/١٦٣ .

(٥) الطبراني في المعجم الأوسط من كلام عمر ٢/٣٧٠ رقم ٢٢٥٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٥٧ .

ليس فيه ضررٌ ولا منفعة وهو فضول والاشتغال به تضييعٌ للوقت وهو عين الخُسران ، وقسمٌ فيه نفعٌ محض ويشوبه الخطر إذ ربَّما يُخالطه الرياء والتصنُّع والغِيبة وتزكية النفس وفضول الكلام مخالطة تخفى على كثيرٍ من العقلاء فيكون الإنسان به مَخاطراً . فسقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع واحد غير سالم من الآفات وآفات اللسان كثيرة أوصلها الإمام الغزالي إلى عشرين آفة لا يكاد يسلم منها أحدٌ نسأل الله السلامة . (١)

الفائدة الرابعة :

أمر الله المسلم بكفٍّ يده فلا يؤذي بها أحداً وإن كان الإيذاء ممنوع مطلقاً قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (٢) .

وخصَّ النبي ﷺ اليد بالذكر لأن معظم الأفعال تقع بها ؛ إذ بها القطع والوصل والبطش والمنع والإعطاء ؛ وقد جاء القرآن العزيز بإضافة الاكتساب والأفعال إليها قال تعالى : ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (٣) ولذلك يُسمُّون الصنائع الأيدي ويُقال للرجل الذي عوقب بجناية لسانه : هذا بما كسبت يداك .

وقد جعل النبي ﷺ كف اليد أحد صفاتٍ ستة تُوجب لصاحبها الجنة فقال : " اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة اصدقوا إذا حدَّثتم ، وأوفُوا إذا

---

(١) إحياء علوم الدين ١٠٢/٣-١٥٤ .
(٢) الأحزاب : ٥٨ .
(٣) الشورى : ٣٠ .

وعدتم ، وأدُّوا إذا اؤتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغُضُّوا أبصاركم ، وكُفُّوا أيديكم " . (١)

وقرن اللسان باليد لأن الإيذاء يقع بهما أكثر من الإيذاء بغيرهما فاعْتُبر الغالب ، وقدَّم اللسان على اليد لأن الإيذاء به أكثر وقوعاً وأشد خطراً وأسهل وقوعاً وأشد نكاية ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت : " اهج المشركين فإنه أشق عليهم من رشق النبل " (٢) وانظر إلى ما قاله الشاعر :

جراحات اللسان لها التئام ** ولايلتام مـــا جـــرح اللســـان

وذكر اللسان ولم يذكر القول مع إنه لا يكون إلا باللسان ، لأن الإنسان قد يؤذي بلسانه دون أن يتكلَّم به كأن يُخرجه للآخرين على سبيل الاستهزاء . لفرق بين الأذى باللسان والأذى باليد أن إيذاء اللسان أخطر كما ذكرنا وأعم لأنه يكون في الماضين والموجودين والحادثين بعد ، بخلاف اليد لأن إيذائها مخصوصٌ بالموجودين ، اللَّهم إلا إذا كتبت اليد فإنها حينئذٍ تُشارك اللسان في الإيذاء فيكونان متساويين .

الفائدة الخامسة :

يُصحِّح لنا هذا الحديث مفهوم الهجرة ويُوضِّح معناها الشرعي والممكن لكل المسلمين .

فأصل الهجرة : مطلق الترك ، ومعناها الظاهر الذي يتبادر إلى الأذهان : ترك مكانٍ إلى مكانٍ آخر واشتهر استعمالها في هجرة الصحابة إلى الحبشة ثم

---

(١) أحمد في المسند ٤١٣/١٦ رقم ٢٢٦٥٦ ، ابن حبان في صحيحه ٥٠٦/١ رقم ٢٧١ ، والحاكم في المستدرك ٣٩٩/٤ رقم ٨٠٦٦ وصححه ووافقه الذهبي وقال : فيه إرسال ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات إلا أن المطلب لم يسمع من عبادة مجمع الزوائد ١٤٥/٤ .

(٢) البيهقي في السنن الكبرى ٢٣٨/١٠ ، والطبراني في المعجم الكبير ٣٨/٤ رقم ٣٥٨٢ .

هجرة الرسول ﷺ مع أصحابه إلى المدينة فراراً بدينهم ، فلما فتحت مكة وصارت دار إسلام انقطعت الهجرة إلى الرسول ﷺ .

وفي الحديث : " لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا " . [١]

والهجرة الآن لها صورتان : الأولى : الهجرة الظاهرة : وهي الفرار بالدين من الفتن وترك الأرض إلى غيرها قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ .[٢]

الثانية : الهجرة الباطنة : وهي ترك المعاصي والذنوب وترك ما تدعوا إليه النفوس الأمَّارة بالسوء وترك اتباع الشيطان وترك الأخلاق المرذولة وفيها يقول رسول الله ﷺ : " المهاجر من هجر ما نهى الله عنه " .

قال ابن حجر : كأن المهاجرين خوطبوا بذلك لئلا يتَّكِلوا على مجرد التحول من دراهم حتى يمتثلوا أوامر الشرع ونواهيه .

قال : ويُحتمل أن يكون ذلك قبل انقطاع الهجرة لمَّا فُتحت مكة تطييباً لقلوب من لم يُدرك ذلك بل حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه . [٣] فمن هجر ما نهى الله عنه فهو المهاجر الكامل .

---

(١) البخاري كتاب الجهاد والسير باب فضل الجهاد والسير ٦/٦ رقم ٢٧٨٣ ، ومسلم كتاب الإمارة باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير ١٤٨٨/٣ رقم ١٨٦٤ .

(٢) النساء : ٩٧ .

(٣) فتح الباري ٧٠/١ .

وهذا الحديث من جوامع الكلم التي أُوتيها رسول الله ﷺ فإنه حوى ألفاظاً قليلة ومعانٍ متعددة متجدِّدة وفيرة .

الدروس المستفادة من الحديث

١- الاعتناء بنفع المسلمين والكف عما يُؤذيهم بقولٍ أو فعل بمباشرة أو سبب .

٢- الإمساك عن احتقار المسلمين والحث على تأليف قلوبهم واجتماع كلمتهم وتوادهم والحرص على ما يُحصّل ذلك .

٣- المهاجر الكامل هو : من هجر السيئات واجتنب المعاصي والمنكرات .

٤- التحذير من خطورة اللسان وخطورة الإيذاء باليد .

النهي عن سب الأموات

عن عائشة ﵂ قالت : قال رسول الله ﷺ : (لا تسُبُّوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا) .

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث :

الإمام البخارى فى صحيحه كتاب الجنائز باب ما يُنهى من سب الأموات ٣٠٤/٣ رقم ١٣٩٣ .

الراوي الأعلى للحديث

راوية الحديث هى : الصحابية الجليلة أم عبد الله عائشة بنت أبى بكر الصديق أم المؤمنين ﵂ سبقت ترجمتها .

معانى المفردات

لا تسُبُّوا : لا ناهية والسبُّ هو : الشتم والعيب والتنقيص .

الأموات : أل لإبطال معنى الجمعية أى لا تسبو أيَّ ميِّتٍ كان .

أفضوا : أى وصلوا إلى ما عملوا من خيرٍ أو شر .

ما قدَّموا : أى من عملٍ خيراً كان أو شراً وفى رواية : " فإنهم قد أفضوا إلى ما اكتسبوا " .[1]

---

[1] مسند إسحاق بن راهويه ٦٢٣/٣ رقم ١١٩٩ .

المعنى الإجمالي للحديث

ينهانا النبى ﷺ فى هذا الحديث عن سب الأموات لأنه لا فائدة من سبِّهم ولأنهم أصبحوا عند الله يُجازيهم بأعمالهم إن كانت خيراً فخير وإن كانت شراً فشر أو عفواً ومغفرة ولا يصل إليهم من السبِّ شيئاً ولكنه قد يُؤذى الأحياء ويعوِّد فاعله على الفحش والبذاءة وقد يجرُّه اللعن المباح إلى اللعن والسب غير المباح والسلامة فى قول الخير وإلا فالسكوت أسلم وأفضل فلا يجوز سب الميت إلا لمصلحةٍ شرعية ، كالتَّحذير من الإقتداء به فى بدعته وفسقه ونحو ذلك مما كان الميت متلبِّساً به مما لا يحسُن التلبُّس به لمخالفته الشرع أو لإخلاله بالمروءة ولجرح رواة الحديث لأن أحكام الشرع مبنيَّة عليه وقد أجمع العلماء على جواز جرح المجروحين من الرواة أحياءاً أو أموتاً .

فالعبد قد يتكلم فيندم أو يغنم والمؤمن قلبه قبل لسانه فيُفكِّر قبل أن يتكلَّم فلا يتكلم إلا بحق والمنافق لسانه قبل قلبه فيتكلم دون أن يفكر فى عواقب كلامه فرحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت عن شرٍ فسلم .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

الحديث يُعلِّمنا صيانة اللسان عن الألفاظ القبيحة التى تؤذى الشعور ولا تُفيد شيئاً فينهانا عن السب سواءً كان للأحياء أو للأموات ويُخص الأموات بالنهي عن سبِّهم ليس لأنه يجوز سب الأحياء بل لأن سب الأموات أشد وأخبث من سب الأحياء وذلك لأن الأحياء يستطيعون الرد والانتصار لأنفسهم أما الأموات فقد انقطعت ألسنتهم فلا يستطيعون الرد فإن لم يكونوا أهلاً للسب فإنهم يقتصُّون لأنفسهم يوم القيامة .

فسب الميت وغيبته أشد من غيبة الحي وأفحش لأن عفو الحي واستحلاله وطلب المغفرة منه ممكنة بخلاف الميت وسب الميت قد يؤذى الحي وفي

الحديث : " لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء " (١) فيؤدّي سبهم إلى فساد ذات البين وانتشار الفساد وقطع أواصر الإخوة .

فسبُّ الميت لا يجوز إلا إذا دعت الضرورة لذلك وكانت هناك مصلحة شرعية كأن يصير من قبيل الشهادة أو جرح الرواة ونحو ذلك وقد يكون فيه مصلحة للميت تنفعه فى آخرته كمن علم أنه أخذ ماله بشهادة زور ومات الشاهد فإذا ذكر ذلك لورثته علم أنهم يردُّون ذلك المال إلى أصحابه (٢) .

قال ابن بطال : سب الأموات يجري مجرى الغيبة فإن كان أغلب أحوال المرء الخير – وقد تكون من الفلتة – فالاغتياب له ممنوع وإن كان فاسقاً معلناً فلا غيبة له فكذلك الميت (٣) وقد أوصى النبي ﷺ أمته بعدم سب الموتى فقال لأصحابه " إذا مات صاحبكم فدعوه لا تقعوا فيه " (٤) أي : اتركوه ولا تتكلموا في حقه بما يؤذيه لو كان حياً ولا تتكلموا في عرضه بسوء فإنه قد أفضى إلى ما قدم .

بل وأوصاهم بذكر محاسن موتاهم والكف عن ذكر مساوئهم فقال : " اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم " (٥) ، وقال : " لا تذكروا موتاكم إلا بخير " . (٦)

---

(١) أحمد فى المسند ١٠٤/١٤ رقم ١٨١٢٥ ، الترمذى كتاب البر والصلة باب ما جاء فى الشتم ٣٩٥/٣ رقم ١٩٨٩ وإسناده صحيح .

(٢) فتح البارى ٣٠٤/٣ .

(٣) نفس التخريج السابق .

(٤) أبوداود كتاب الأدب باب فى النهى عن سب الموتى ٢٧٧/٤ رقم ٤٨٩٩ .

(٥) أبو داود كتاب الأدب باب في النهي عن سب الموتى ٢٧٧/٤ رقم ٤٩٠٠ ، الترمذي كتاب الجنائز ٣١٢/٢ رقم ١٠٢١ .

(٦) مسند الطيالسي ٢٠٩/١ رقم ١٤٩٤، ومصنف بن أبي شيبة ٦٤/٣ رقم ١١٩٨٩ ، ومصنف عبد الرزاق ٣٨٥/٣ رقم ٦٠٤٢ .

هذا في أموات المسلمين أما أموات الكفار فيجوز سبُّهم عموماً وذِكر مساوئهم للتحذير منهم والتنفير عنهم ولا يجوز سب شخصٍ معيَّن لاحتمال موته على الإسلام إلا إذا نصَّ الشرع على موته كافراً كفرعون وأبي جهل وأبي لهب ونحوهم فيجوز سبهم إلا إذا تأذَّى الحي المسلم بذلك فيُمنع .

الفائدة الثانية :

هذا الحديث يُفيد النهي عن سبِّ الأموات وذكر عيوبهم وقد استشكل البعض فهمه مع حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مرُّوا بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال النبي ﷺ : " وجبت " ثم مرُّوا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال النبي ﷺ : " وجبت " فقال عمر بن الخطاب : ما وجبت ؟ قال : " هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار أنتم شهداء الله في الأرض " .(١)

فهذا الحديث يُفيد أنهم ذكروا الميِّت بشرٍّ أمام رسول الله ﷺ فلم يُنكر عليهم ذلك وقد أجاب العلماء على ظاهر هذا التعارض بخمسة أجوبة :

الأول : أن اللام في قول رسول الله ﷺ الأموات للعهد والمراد : لا تسبوا أموات المسلمين لأن الكفار مما يُتقرَّب إلى الله بسبِّهم وهذا باطل لأنه لم يثبُت أن هذا الميت كافرا ولأنه سبٌّ لمُعيَّن .

الثاني : أن النهي عن سب الموتى متأخر عن هذا الحديث فيكون ناسخاً وهذا ضعيف لأن التاريخ لم يثبُت ولأننا لا نلجأ إلى القول بالنسخ إلا إذا تعذَّر الجمع بين الحديثين وهو ممكن فإعمالهما خيرٌ من إهمالهما .

---

(١) البخاري كتاب الجنائز باب ثناء الناس على الميت ٢٧٠/٣ رقم ١٣٦٧ ، ومسلم كتاب الجنائز باب فيمن يثنى عليه خيراً أو شراً من الموتى ٦٥٥/٢ رقم ٩٤٩ .

الثالث : أن هذا الذي تُحُدِّث عنه بشر في جنازته كان مُظهراً له مشهوراً به فيكون ذلك من باب " لا غيبة لفاسق " (١) .

الرابع : أن الذي ذكره الصحابة بشر كان منافقاً لا يُحبُّ الله ورسـوله ﷺ وقد ظهرت عليه دلائل النفاق فشهد الصحابة بما ظهر لهم ولذلك قال رسول الله ﷺ : " وجبت له النار " ، والمسلم لا تجب له النار ويؤكِّد ذلك ما جاء أن رسول الله ﷺ لم يُصلِّ عليه وصلَّى على الآخر . (٢)

الخامس : أن النهي عن السب محمولٌ على ما بعد الدفن وجـواز ذلـك محمول على ما قبل الدفن ليتَّعظ بذلك فُسَّاق الأحياء فإذا صار إلى قبره أمسـك عنه لإفضائه إلى ما قدَّم .

قال ابن حجر : وقد عملت عائشة راوية هذا الحديث بذلك في حـق مـن استحق عندها اللعن فكانت تلعنه وهو حي فلما مات تركت ذلـك ونهـت عـن لعنه ، فعن مجاهد بن جبر أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعث رجلاً في أيام الجمل برسالة إلى عائشة فلم ترد عليه جواباً فبلغها أنه عاب عليهـا ذلـك فكانت تلعنه فلما بلغها موته نهت عن لعنه وقالت إن رسول الله ﷺ نهانـا عـن سبِّ الأموات . (٣)

وعن مسروق قال دخلت على عائشة فقالت : ما فعل فـلان لعنـه الله ؟ قلت : تُوفي ، قالت : رحمه الله قلت : وكيف هذا ؟ قالت : قال رسول الله ﷺ :

(١) حسنه بعض الحفاظ كما قال السيوطي وضعفه بعضهم وحكم عليه معظم الأئمة كالحاكم والدارقطني والخطيب وغيرهم بأنه باطل راجع . كشف الخفاء ٤٩٣/٢ .

(٢) أحمد في المسند ٣٥١/١٦ رقم ٢٢٤٥٤ ، وقال ابن حجر : إسناده صحيح فتح الباري ٢٧٢/٣ .

(٣) صحيح ابن حبان ٢٩١/٧ رقم ٣٢١ وراجع : فتح الباري ٣٠٥/٣ .

" لا تسبوا الأموات فإنهم أفضوا إلى ما قدموا " [١] فلا تعارض بين الحديثين والله أعلم .

الدروس المستفادة من الحديث

١- تحريم سب الأموات بغير حق أو مصلحة شرعية .

٢- تعويد اللسان على عدم السب .

٣- ذكر محاسن الأموات والكف عن ذكر مساوئهم .

[١] عزاه ابن حجر في فتح الباري إلى عمر بن شيبه في كتاب : أخبار البصرة فتح الباري ٣٠٥/٣ .

حرمة الأعراض والدماء

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسول ﷺ (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) .

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث

أ- البخاري كتاب الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ١/١٣٥ رقم ٤٨ .

ب- مسلم كتاب الإيمان باب بيان قول النبى ﷺ : سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ١/٨١ رقم ٦٤ .

الراوى الأعلى للحديث

الصحابى الراوى للحديث هو : عبد الله بن مسعود بن غافل أبو عبد الرحمن الهذلى سبقت ترجمته .

معانى المفردات

سباب : بكسر السين وتخفيف الباء مصدر من السب والسبُّ هو : الشتم والتكلُّم فى عرض الإنسان بما يعيبه يقال : سبَّه يسبُّه سباً وسِباباً ، وقال إبراهيم الحربى : السباب أشد من السب وهو : أن يقول الرجل ما فيه وما ليس فيه يريد بذلك عيبه .

فسوق : أى : عصيان و أصل الفسوق الخروج عن الإستقامة والجور وفى الشرع الخروج عن طاعة الله ورسوله ﷺ ومنه قيل للعاصى : فاسق

وهو فى عرف الشرع أشد من العصيان قال تعالى : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ (١) .

كفر : أصل الكفر : الستر والتغطيه ومنه سُمِّيَ الكافر كافراً لأنه يُغطِّي الحق ويستره بكفره والكفر صنفان : أحدهما : الكفر بأصل الإيمان وهو : ضده ، والآخر : الكفر بفرعٍ من فروع الإسلام فلا يخرج عن أصل الإسلام . وقيل : الكفر على أربعة أنواع **الأول** : كفر إنكار بالأ يعرف الله أصلاً ولا يعترف به ، و**الثانى** : كفر جحود ككفر إبليس يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ، و**الثالث**: كفر عناد وهو : أن يعترف بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به حسداً وبغياً ككفر أبى جهل وأضرابه ، **والرابع** : كفر نفاق وهو : أن يُقرَّ بلسانه ولا يعتقد بقلبه ككفر عبد الله بن أُبيّ وأضرابه ، **قال الهروى** : سُئل الأزهرى عمَّن يقول بخلق القرآن أتسميه كافراً ؟ فقال : الذى يقوله كفر فأُعيد عليه السؤال ثلاثاً وهو يقول مثل ما قال ثم قال فى الثالثة : قد يقول المسلم كفراً . (٢)

المعنى الإجمالي للحديث

المؤمن يعرف ربه ويخشاه ويحب إخوانه ويرحمهم فلا يصل إليهم منه إلا كل خير ويمنع عنهم كل شر يصون أعراضهم ويحمي أموالهم ودمائهم فمن تجرَّأ على الأعراض يعيبها أو ينتهكها وعلى الأموال يسرقها أو يقتطعها أو على الدماء يسفحها ويريقها فقد عصى ربه وظلم نفسه .

---

(١) الحجرات : ٧ .

(٢) النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ١٦١/٤ .

والحديث يُعلِّمنا أن سِباب المسلم بغير حق فسق وعصيان فإذا جرَّه ذلك إلى القتال فهذا نوعٌ من الكفر قد يجرُّه إلى الخروج من الإسلام والمعاصي بريد الكفر .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

خلق الله الإنسان بيده ونفخ فيه من روحه وركّب فيه الشهوة والغضب وأرسل له رسلاً مبشِّرين ومنذِرين بشرائع تصلحهم لئلا يكون لهم حجة بعد ذلك وفتح للعصاة باب التوبة فهو لا يُغلق حتى تطلع الشمس منه ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل .

وبيّن سبحانه أن كل بني آدم خطَّاء وأن خير الخطَّائين التوَّابون وأنه سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره فرحمته وسعت كل شيء ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ (١) فالله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعاً عدا الشرك به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (٢) فمتى دخل العبد في الإسلام ونطق بالشهادتين لا يخرج منه إلا إذا أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ولم يكن حديث عهدٍ بإسلام أو يعيش ببادية ويجهل أحكامه ولا يخرج من الإسلام بمعصيته خلافاً للخوارج الذين يُكَفِّرون بالكبائر قال تعالى : ﴿ وَإِن

---

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) النساء : ٤٨ .

طَآبِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ (١) فسمَّاهم مؤمنين رغم اقتتالهم ثم قال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (٢) .

وقال رسول الله ﷺ : " إذا التقى المسلمان بسيفيهما " (٣) فسمَّاهم مسلمين رغم أنه توعَّدهم بالنار والمراد إذا كان القتال بغير تأويلٍ سائغ .

والأدلة على هذا أكثر من أن تُحصى فمذهب أهل السنة والجماعة أنهم لا يُكَفِّرون مسلماً بالمعاصي وما ورد من نصوصٍ تُوهم ذلك يجب أن تُؤوّل لتتفق مع هذا الأصل الثابت بالأدلة : " من لقي الله لا يُشرك به شيئاً دخل الجنة " (٤) .

قال النووي : مذهب أهل الحق أنه لا يكفُر أحدٌ من أهل القبلة بذنبٍ ولا يكفر أهل الأهواء والبدع (٥) فكل المسلمين مصيرهم إلى الجنة فمنهم من يدخلُها بغير حساب ومنهم من يدخلُها بعد عذابٍ طويل في النار ولا يُخلَّد في النار مسلم .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : " إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم فيقول لهم أهل اللات والعزى : ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار ؟ فيغضب الله لهم فيُخرجهم فيُلقيهم في نهر الحياة

---

(١) الحجرات : ٩.

(٢) الحجرات : ١٠.

(٣) البخاري كتاب الإيمان باب " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما " فسماهم المؤمنين ١٠٦/١ رقم ٣١ ، مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ٢٢١٣/٤ رقم ٢٨٨٨ .

(٤) البخاري كتاب العلم باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفقهوا ٢٧٢/١ ، مسلم كتاب الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ٩٤/١ رقم ٩٣ .

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥٠/١ .

فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ويدخلون الجنة ويُسمُّون فيها الجهنميون " [(١)] .

وفي الحديث أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : " إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى . قالوا : فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأُخرِجوا فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا ثم قرأ رسول الله ﷺأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝ ﴾ [(٢)] .

فالله يُخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وليس في قلبه مثقال ذرة من إيمان ولا يبقى فيها إلا الكفار وعليهم تُطبَق النار .

الفائدة الثانية :

ظاهر هذا الحديث يُفيد أن قتال المسلم كفر والقتال معصية والمسلم لا يكفر بمعصيته ، ولذلك اتَّفق جمهور المسلمين على أن ظاهره غير مُراد ثم اختلفوا في تأويله على عدة آراء :

الأول : أن النبي ﷺ وصف السباب بأنه فسق ولما كان القتال أشد منها – لأنه مفضٍ إلى إزهاق الأرواح – عبَّر عنه بلفظٍ أشد من لفظ الفسق وهو

---

(١) الطبراني في المعجم الأوسط ٢٠٩/٧ رقم ٧٢٩٣ ، وقال الهيثمي : فيه من لم أعرفهم مجمع الزوائد ٣٨٠/١٠ .

(٢) سورة الحجر الآية ١ ، ٢ ، والحديث أخرجه : الحاكم في المستدرك ٢٦٥/٢ رقم ٢٩٥٤ وقال : صحيح الإسناد ، وابن أبي عاصم في كتاب السنة ٤٠٥/٢ رقم ٨٤٣ .

الكفر ولم يُرِد حقيقته التي هي : الخروج عن الملة بل أطلق عليه الكفر مبالغةً في التحذير من ذلك لينزجر السامع عن الإقدام عليه .

الثاني : أطلق عليه الكفر لشَبَهِه به لأن قتال المؤمن من شأن الكفار .

الثالث : المراد هو الكفر اللغوي وهو : التغطية والستر لأن حق المسلم على المسلم أن يُعينه وينصره ويكف عنه أذاه فلما قاتله كان كأنه غطّى على هذا الحق وستره فهو كفر الإحسان والنعمة وأخوة الإسلام لا كفر الجحود .

الرابع : قيل إن الرسول ﷺ أراد بقوله : كفر أي أن معصيته قد تؤول إلى الكفر لأن من اعتاد الهجوم على كبار المعاصي جرّه شؤم ذلك إلى شرٍ منها فيُخشى أن لا يُختم له بخاتمة الإسلام وفي الحديث : " سباب المسلم كالمشرف على الهلكة " . [1]

الخامس : وقيل إن وصف الكفر لا حق بمن يستحل قتال المسلمين دون تأويلٍ سائغ وهذا كافر إجماعاً ولكن ليس مقصوداً في الحديث لأنه لو كان مراداً لم يحصل التفريق بين السباب والقتال فإن مستحل لعن المسلم وسبه بغير تأويل كافر أيضاً ، والرأي الأول أقربها وأصحها .

وهذه الأجوبة واردة في حق الأحاديث التي وصفت بعض المعاصي بالكفر كقول رسول الله ﷺ : " لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض " . [2]

---

[1] قال الهيثمي : رواه البزار ورجاله ثقات مجمع الزوائد ٨/٧٣ ، وقال المنذري : رواه البزار بإسناد جيد الترغيب والترهيب ٣/٢٨٥ .

[2] البخاري كتاب العلم باب الإنصات للعلماء ١/٢٦٢ ، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان قول النبي ﷺ : " لا ترجعوا بعدي كفاراً ..." إلى آخره ١/٨١ رقم ٦٥ .

الفائدة الثالثة :

الإسلام يدعو إلى صفاء النفوس وطهارة القلوب وصيانة الألسنة من اللعن والفحش والسب والبذاءة والمؤمن ليس طعَّاناً ولا لعَّاناً ولا فاحشاً بذيئاً فمصدر ذلك هو خُبث النفس وفسادها وفي الحديث : " إياكم والفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش " [١] .

وعن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم أخلاقاً " [٢] .

وقال إبراهيم بن ميسرة : يُؤتى بالفاحش المُتفَحِّش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب [٣] والنبي ﷺ يحذرنا في هذا الحديث من السباب وهو الشتم ويذكر لنا أنه فسق والمؤمن يحذر الفسق ويخشاه وينفر منه فلا يسب أحداً ولا يلعنه وقد جاء في الحديث : أن أعرابياً قال يا رسول الله : إعهد إليّ فقال له : " لا تسُبَنّ أحداً " قال الأعرابي : فما سببتُ بعده حراً ولا عبداً ولا بعيراً ولا شاةً ثم قال له : " وإن امرؤ شتمك أو عيَّرك بما يعلم فيك فلا تعيّره بما تعلم فيه فإنما وَبال ذلك عليه " [٤].

وقد ورد أن سبب ورود هذا الحديث أن رسول الله ﷺ انتهى إلى مجلسٍ من مجالس الأنصار وفيه رجلٌ من الأنصار كان معروفاً بالبذاء ومشاتمة الناس

---

[١] أحمد في المسند ٦/٣٣٠ رقم ٦٨٣٧ ، ابن حبان في صحيحه ١١/٥٨٠ رقم ٥١٧٧ ، الحاكم في المستدرك ١/٥٦ رقم ٢٧ وإسناده صحيح .

[٢] أحمد في مسنده ١٥/٣٣٧ رقم ٢٠٧٢٣، وأبو يعلي في مسنده ١٣٥ / ٤٥٨ رقم ٧٤٦٨ وقال الهيثمي : رجاله ثقات مجمع الزوائد ٨/٢٥ .

[٣] فيض القدير للمناوي ٥/٥ .

[٤] أبو داود كتاب اللباس باب ماجاء فيَ إسبال الإزار ٤/٥٥رقم ٤٠٨٤ .

فقال رسول الله ﷺ " سباب المسلم فسوق وقتاله كفر " فقال ذلك الرجل : والله لا أساب رجلاً . [١]

وينشأ السبُّ غالباً من الغضب والغضب من الشيطان ولذلك علَّمنا رسول الله ﷺ كيف نتعامل معه وفي الحديث عن عبد الرحمن بن صرد قال : استبَّ رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما واشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : " إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه الذي يجد " فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي ﷺ وقال : تعوَّذ بالله من الشيطان فقال الرجل : أترى بي بأس ؟ أمجنونٌ أنا ؟ اذهب [٢] .

وهذا الحديث يُفيد أن الرجلين سبَّ كل واحدٍ منهما الآخر وإثم السباب الواقع بين اثنين مختصٌ بالبادي منهما إلا إذا تجاوز الثاني قدر الانتصار فقال للبادي أكثر مما قال له ، وفي الحديث : " المستبَّان ما قالا فعلى البادئ منهما ما لم يعتدِ المظلوم " [٣] .

وهذا يُفيد جواز الانتصار وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة على جوازه قال تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [٤] وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [٥] .

---

[١] الطبراني في المعجم الكبير ٣٩/١٧ رقم ٨٠ ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح خلا أبي خالد الوالبي وهو ثقة مجمع الزوائد ٧٣/٨ .

[٢] البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى من السب واللعن ٤٧٩/١٠ رقم ٦٠٤٨ ، مسلم كتاب البر والصلة باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٢٠١٥/٤ رقم ٢٦١٠ .

[٣] مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن السباب ٢٠٠٠/٤ رقم ٢٥٨٧ .

[٤] الشورى : ٤١.

[٥] الشورى : ٣٩ .

ومع جواز الانتصار بالمثل قال تعـالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [١] فالصبر والعفو أفضل قال تعـالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [٢] فإذا صبر المسبوب ولم يردّ وكّل الله له ملكاً يُدافع عنه فإذا انتصر لنفسه تركه الملك واستولى الشيطان على المجلس وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان جالساً ومعه أصحابه فوقع رجلٌ بأبي بكـر فآذاه فصمت عنه أبو بكر ثم آذاه الثانية فصمت عنه أبو بكـر ثـم آذاه الثالثـة فانتصر منه أبو بكر فقام الرسول ﷺ حين انتصر أبو بكر فقـال أبـو بكـر : أوجدتَ عليّ يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : " نزل ملكٌ من السماء يُكَذِّبُـه بما قال لك فلما انتصرتَ وقع الشيطان فلم أكن لأجلس إذا وقع الشيطان " .[٣]

وسباب المسلم بغير حقٍ حرام وقد عدّه ابن حجر الهيثمي مـن الكبـائر قال : وهو صريح هذه الأحاديث الصحيحة للحكم فيه على سباب المسـلم بأنـه فسق فإنه يؤدِّي إلى الهلكة وأن فاعله شيطان وغير ذلك . [٤]

ولا يجوز للمسبوب أن ينتصر إلا بمثل ما سُبَّ به ما لم يكن كذباً أو قذفاً أو سباً لأسلافه فمن صور المباح أن ينتصر بقوله : يا ظالم يا أحمق أو نحـو ذلك لأنه لا يكاد أحدٌ يخلو من هذه الأوصاف عدا الأنبياء والأوليـاء وإن كـان ذلك خلاف الأولى وفي الحديث عن عياض بن حمار قال : قلت يا رسول الله :

---

[١] البقرة : ١٩٤ .

[٢] الشورى : ٤٣ .

[٣] أبو داود كتاب الأدب باب الانتصار ٢٧٥/٤ رقم ٤٨٩٦ ، وأحمد في مسنده ٢٦٤/٩ رقم ٩٥٩٠ وإسـناده صحيح .

[٤] الزواجر ٩٥/٢ .

الرجل يشتمني وهو دوني أعليّ منه بأس أن أنتصر منه ؟ فقال رسول الله ﷺ : " المتسابان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان " [١] .

وعن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال " من ذكر امرأً بشيءٍ ليس فيه ليعيبه حبسه الله في نار جهنم حتى يأتي بنفاذ ما قال فيه " [٢]

فإذا انتصر المظلوم فقد استوفى ظلامته وبرئ الأول من حقه وبقي عليه إثم الابتداء والإثم المستحق لله تعالى وقيل : بل يُرفع عنه جميع الإثم بالانتصار منه . [٣]، ويكفي الساب إثماً وعاراً أنه يأتي بأفعال أهل الجاهلية ويتشبَّه بهم فعن أبي ذرٍ أنه سبَّ رجلاً بأمه فقال له رسول الله ﷺ : " أسابيت فلاناً ؟ " فقال : نعم فقال له : " أنلت من أمه ؟ " فقال نعم فقال له : " إنك امرؤ فيك جاهلية " فقال أبو ذر : على حين ساعتي هذه من كبر السن ؟ فقال رسول الله ﷺ : " نعم " [٤] .

فطهِّر قلبك من البغض وصُن لسانك من السباب واشغل جوارحك بالطاعات تسكن أعلى الجنان .

الدروس المستفادة من الحديث

١- المبالغة في ذم السب والمقاتلة لما في ذلك من احتقار المسلم وظلمه .

٢- تعظيم حق المسلم والحكم على من سبه بغير حق بالفسق .

٣- صيانة الدماء والأموال والأعراض .

---

[١] أحمد في المسند ٣٨٨/١٣ رقم ١٧٤١٩ ، ابن حبان في صحيحه ٣٤/١٣ رقم ٥٧٢٦ ، وقال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح مجمع الزوائد ٧٥/٨ .

[٢] الطبراني في المعجم الأوسط ٣٨٠/٨ رقم ٨٩٣٦ ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه مقدام بن داود وهو ضعيف مجمع الزوائد ٩٤/٨ وقال المنذري:إسناده جيد الترغيب والترهيب ٣٠٢/٣ .

[٣] شرح صحيح مسلم للنووي ١٤١/١ .

[٤] البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى من السباب واللعن ٤٨٠/١٠ رقم ٦٠٥٠ .

أكبر الكبائر

عن أبى بكرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر ؟) قلنا : بلى يارسول الله قال : (الإشراك بالله وعقوق الوالدين) وكان متّكئاً فجلس فقال : (ألا وقول الزور) فمازال يُكرِّرُها حتى قلنا ليته سكت .

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث :

أ – البخارى كتاب الشهادات باب ما قيل فى شهادة الزور ٥ / ٣٠٩ رقم ٢٦٥٣.

ب– مسلم كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها ١ / ٩١ رقم ٨٧ .

الراوى الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل نُفيع بن الحارث بن كلدة أبو بكرة الثقفى كان عبداً بالطائف فلمَّا حاصرها رسول الله ﷺ قال : " أيُّما حر نزل إلينا فهو آمن وأيُّما عبد نزل إلينا فهو حر [1] .

فنزل إليه عددٌ من عبيد أهل الطائف فيهم نفيع فأعتقهم رسول الله ﷺ وكان نفيع تدلّى إليهم فى بكرة فكنوه أبا بكرة وكان يقول : أنا مولى رسول الله ﷺ

---

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد ٧ / ١٦ ، ١٧ ، وذكره الزيلعى فى نصب الراية وعزاه إلى المغازى للواقدى نصب الراية ٣/ ٢٨٠.

فلمَّا أسلم أهل ثقيف سألوا رسول الله ﷺ أن يردَّ إليهم أبا بكرة عبداً فقـــال : " لا هو طليق الله وطليق رسوله " (١).

سكن البصرة وكان من فقهاء الصحابة . قال الحسن البصرى : لم ينـــزل البصرة أفضل من أبى بكرة وعمران بن حصين (٢) ، وقال ابـــن ســـعد كـــان صالحاً ورعاً (٣) ، وقال بن حجر : كان من فضلاء الصحابة وأنجب أولاداً لهم شهرة (٤) .

روى عن النبي ﷺ جملةً مـــن الحـــديث وروى عنـــه أولاده : عبيـــد الله وعبد الرحمن وعبد العزيز وكبشة وروى عنه أيضاً: أبو عثمان النهدى والحسن البصري ومحمد بن سيرين والأحنف بن قيس وربعي بن خراش وغيرهم .

توفي سنة إحدى وخمسين وصلَّى عليه أبو برزة الأسلمى وكان النبـــى ﷺ قد آخى بينهما .

معانى المفردات

أنبئكم : أى : أُخبركم .

الكبائر : واحدتها كبيرة وهى الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعاً لعِظم أمرها كالقتل أو الزنا والفرار من الزحف وغير ذلك .

الإشراك بالله : هو أن تجعل لله شريكاً فى الخلق أو فى العبادة .

---

(١) أحمد فى السند ٤٠٣/١٣ رقم ١٧٤٥٩ ، وقال الهيثمى : رواه أحمد ورحاله ثقات مجمع الزوائد ٢٤٥/٤ وأخرجه سعيد بن منصور فى سننه ٣٣٨/٢ رقم ٢٨٠٨، والطحاوى فى شرح معانى الآثار ١٧٨/٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/٣ .

(٣) الطبقات الكبرى ١٧/٧ .

(٤) الإصابة ٦/ ٣٦٩ .

عقوق : العقوق ضد البر وهو مشتقٌ من العق وهو من الشق والقطع والجمع عققة بفتح جميع الحروف .

وعقوق الوالدين هو :عصيانهما وقطع البر الواجب عنهما يقال : عقَّ والده يعقه عقوقاً فهو عاق إذا آذاه وعصاه وخرج عليه .

متكئاً : المتَّكيء في العربية هو كل من استوى قاعداً على وطاء متمكِّناً والعامة لا تعرف المتكيء إلا من مال في قعوده معتمداً على أحد شقيه وأصله من الوِكاء وهو ما يشد به الكيس وغيره والتاء فيه بدل من الواو وكأنه أوكأ مقعدته وشدَّها بالقعود على الوطاء الذي تحته والمقصود في الحديث أنه كان مائلاً في قعوده معتمداً على أحد شقيه .

الزور : الزور هو الكذب والباطل وأصل الزور : تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يُخيَّل لمن سمعه أنه بخلاف ما هو به .

يكرِّرها : أي يُعيدها مرةً بعد مرة .

المعنى الإجمالي للحديث

بيَّن لنا النبي ﷺ في هذا الحديث جملةً من المعاصي التي يقبُح شرها ويعظُم ضررها فالشرك يُفسد دين الإنسان ويقطع صلته بخالقه ويحرمه من فضله ورحمته وجنته .

والعقوق يقطع صلة الإنسان بأبويه ويُفسد ما بينهما ويحرمه من بركتهما ودعاءهم له كما يحرمه من طول العمر وزيادة الرزق ، وشهادة الزور تُفسد العلائق بين الناس وتُضيّع الحقوق وتشيع الكذب وتجعل الإنسان غير آمن على نفسه وماله ولذلك اعتبر النبيﷺ هذه الثلاثة من أكبر الكبائر لأنها بمجموعها تفسد المجتمع وتهدم أركانه وشدَّد النبي ﷺ على شهادة الزور حتى لا يُستهان بها ولا يُقلل من خطورتها وضررها فضررها عظيم وشرها مستطير .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

قال بعض العلماء : ليس فى الذنوب صغائر بل سائر المعاصـي كبـائر وإنما يُقال لبعضها صغيرة ولبعضها كبيرة بالإضافة إلى ما هـو أكبـر منهـا وقالوا : لا يُمكن أن يُقال فى معصية إنها صغيرة إلا على معنى أنهـا تصـغُر باجتناب ما هو أكبر منها .

وقال جمهور العلماء : تنقسم المعاصى إلى صغائر وكبائر بحسب مفسدتها والحقيقة أنه لا خلاف بين الفريقين لإجماع الكل على تفاوت مراتب المعاصـى وأن منها ما يقدح فى العدالة ومنها ما لا يقدح فيها .

وإنما نظر الفريق الأول إلى جانب الله فكرهوا تسمية الذنب صغيرة لأنهم كرهوا تسمية معصية الله تعالى صغيرة نظراً إلى عظمة الله تعالى وشدة عقابه وإجلالاً له عزَّ وجل عن تسمية معصيته صغيرة لأنها بالنظر إلى عظيم حقـه وباهر عظمته كبيرة أيّ كبيرة ولذلك قالوا : لا تنظر إلى قدر المعصية ولكـن انظر إلى قدر من عصيت ، و لم ينظر الجمهور إلى ذلك لأنه معلـوم وإنمـا نظروا إلى مفسدة المعصية وما يترتَّب عليها فقسَّموها إلى صغائر وكبائر .

واستدلُّوا بقول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [1] وبقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [2] .

---

[1] النجم : ٣٢ .

[2] النساء : ٣١.

والآية صريحة فى انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر واستدلوا بأحاديث كثيرة تؤيِّد مذهبهم فمنها عدّ مجموعة من الذنوب كبائر كالحديث الذى نشرحه هنا حيث خصَّ الكبائر ببعض الذنوب ولو كانت الذنوب كلها كبائر لم يسغ ذلك واستدلوا بقول النبى ﷺ " الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر " [(١)] وهو صريحٌ فى أن الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر .

ولذلك قال الغزالى : إنكار الفرق بين الصغيرة والكبيرة لا يليق بالفقيه [(٢)] وقال إمام الحرمين : المرضي عندنا أن كل ذنب يُعصِ الله به كبيرة فربَّ شيىءٍ يُعَدُّ صغيرة بالإضافة إلى الأقران ولو كان فى حق الملك لكان كبيرة والرب أعظم من عُصي فكل ذنبٍ بالإضافة إلى مخالفته عظيم ولكن الذنوب وإن عظمت فهى متفاوتة فى رتبها [(٣)] واستنكر الإمام القرطبى على من زعم أن ابن عباس قال : الذنوب كلها كبائر فقال : ما أظنه صحيحاً عنه لأنه مخالفٌ لما فى كتاب الله تعالى من التفرقة بين المنهيَّات لأنه جعل من المنهيات صغائر وكبائر وفرق بينهما فى الحكم لمَّا جعل تكفير السيئات مشروطاً باجتناب الكبائر واستثنى اللمم من الكبائر والفواحش فكيف يخفى هذا الفرق على مثل ابن عباس ؟ وهو حبر القرآن [(٤)] ، وقال النووى : ذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف إلى انقسام المعاصى إلى صغائر وكبائر وقد تظاهرت على ذلك دلائلٌ من الكتاب والسنة واستعمال سلف الأمة وخلفها . [(٥)]

---

(١) مسلم كتاب الطهارة باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ... إلخ ٢٠٩/١ رقم ٢٣٣ .

(٢) فتح البارى ٤٢٣/١٠ .

(٣) فتح البارى ٤٢٣/١٠ .

(٤) المفهم ٢٨٤/١ .

(٥) شرح صحيح مسلم ٨٥/٢ .

وقال : قال العلماء رحمهم الله الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة وروي عن عمر وابن عباس وغيرهما رضي الله عنهما أن الكبيرة تُمحى بالإستغفار والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار وحدُّ الإصرار هو : أن تتكرر منه الصغيرة تكراراً يُشعر بقله مبالاته بدينة [1].

الفائدة الثانية:

اختلف العلماء في تحديد معنى الكبيرة وقد عرَّفوها بـآراءٍ عديـدة مـن أشهرها :

الأول : أنها ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيدٌ شديد بنص كتابٍ أو سنة .

الثانى : أنها كل ذنبٍ ختمه الله بنارٍ فى الآخرة أو أوجب فيه حداً فى الدين وهو قول ابن عباس وأحمد بن حنبل والماوردى وغيرهم .

الثالث : هى كل ما نصَّ الشرع على تحريمه أو أوجب فى جنسه حد .

الرابع : أنها ما أوجبت الحد أو توجَّه إلى فاعلها الوعيد .

الخامس: أنها كل ذنبٍ توعَّد الله صاحبه بالنار وهو قول : الحسـن البصـرى وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك

السادس: هي كل ذنبٍ نصَّ القرآن على تحريمه وهى أربعةٌ فقط هى : أكل لحم الخنزير وأكل مال اليتيم ونحوه وأكل الميتة والفرار من الزحف وهـو مردود لعدم حصر المحرَّمات في هذه الأربعة .

السابع: كل ذنبٍ قُرن به وعيد أوحدّ أولعن وكل ذنب يُعلم أن مفسدته كمفسدة ما قُرن به الوعيد أو اللعن أو الحد أو كان أكبر من مفسدته هو كبيرة .

---

[1] شرح صحيح مسلم ٨٦/٢، ٨٧ .

الثامن : قال الحليمى : هى كل محرَّم لعينه منهي عنه لمعنىً فى نفسه فإن فعله على وجهٍ يجمع وجهين أو وجوهاً من التحريم كان فاحشة فالزنا كبيرة وبحليلة الجار فاحشة والصغيرة ما تنقص رتبته عن رتبة المنصوص عليه فإن تعاطاه على وجهٍ يجمع وجهين أو وجوهاً من التحريم كان كبيرة فلمس الأجنبية صغيرة ولمس حليلة الجار كبيرة .

قال ابن حجر : وهو منهجٌ حسن ولا بأس باعتباره ومداره على شدة المفسدة وخِفَّتها . [١]

التاسع : الكبيرة ليس لها حدٌ يعرفها العباد به وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها واستهانوا بها وإنما أخفاها الله عنهم ليمتنع العبد من الوقوع فى أى معصية خشية أن تكون كبيرة .

العاشر : قال إمام الحرمين : هى كل جريمة تُعلِم بقلة اعتناء مرتكبها بالدين وتُشعِر برقة الديانة وتكون مبطلة للعدالة .

الحادي عشر : قال الجلال البلقينى وارتضاه بن الصلاح : الكبيرة هى : كل ذنبٍ عظُم عِظَماً يصح معه أن يُطلق عليه اسم الكبيرة ويُوصف بكونه عظيماً على الإطلاق ولها أمارات منها : إيجاب الحد ، ومنها الإيعاد عليه بالعذاب بالنار فى الكتاب والسنة ومنها : وصف فاعلها بالفسق ومنها اللعن : قال ابن عباس : الكبيرة هى : كل ذنبٍ ختمه الله بنارٍ أو غضبٍ أو لعنةٍ أو عذاب .

---

[١] فتح البارى ١٢/١٩١ .

الثانى عشر: قال القرطبى : كل ذنبٍ أطلق الشرع عليه أنه كبيرة أو عظيم أو أخبر بشدة العقاب عليه أو علَّق عليه حداً أو شدَّد النكير عليه أو غلَّظه وشهد بذلك كتاب الله أوسنة رسوله أو إجماع المسلمين فهو كبيرة .[١]

قال ابن حجر : وهو من أحسن التعاريف [٢] .

والحقيقة أن هذه التعاريف إنما قُصد بها التعريف لا الحصر ولايسلم تعريفٌ منها من كلام حتى قال العز بن عبد السلام : لم أقف لأحدٍ من العلماء على ضابطٍ للكبيرة لايسلم من الاعتراض والأولى ضبطها بما يُشعر بتهاون مرتكبها بدينه ، قال ابن حجر : وهو ضابط حسن [٣] .

وذهب بعض العلماء إلى عدِّها دون ضبطها بحد فقال علي بن أبى طالب وعطاء وعبيد بن عمير هى : سبع .

وقال ابن عباس : هي الى السبعين أقرب منها الى السبع .

وقال تلميذه سعيد بن حبير : هى إلى السبعمائة أقرب وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً .

وقد صنف فيها الإمام الذهبى كتابه القيم " الكبائر" لكنه لم يستوعبها ومن أفضل وأجمع ما كُتب فيها كتاب " الزواجر عن اقتراف الكبائر " للحافظ ابن حجر الهيثمى وقد رتَّبه على أبواب الفقه وذكر كثيراً مما قيل إنه كبيرة وناقش ذلك ووضحه .

---

[١] المفهم ١ / ٢٨٤ .

[٢] فتح البارى ١٩١/١٢ ،وراجع : الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيثمي ٧/١ ، ٨ .

[٣] فتح البارى ٤٢٤/١٠ .

الفائدة الثالثة :

حذَّر النبى ﷺ أمته من الوقوع فى الشرك لأنه يُحبط الأعمال ويُفسدها ويجعلها هباءً منثورا مهما كان قدرها قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .(١)

والشرك يمنع مغفرة الذنوب قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (٢) وهو أعظم أنواع الظلم قال تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) ويحول بين صاحبة وبين الجنة قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ .(٣)

وفى الحديث أن رجلاً قال : يا رسول الله ما الموجبتان ؟ قال : " من مات لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة ومن مات يشرك بالله شيئاً وجبت له النار " (٤) وهو من أكبر الكبائر كما معنا فى الحديث ومن أعظم الذنوب ، سُئل رسول الله ﷺ أى الذنب أعظم ؟ فقال : " أن تجعل لله نداً وهو خلقك " (٥) ومن السبع المهلكات قال رسول الله ﷺ " اجتنبوا السبع الموبقات " وعدّ منها الشرك

(١) الزمر : ٦٥ .

(٢) لقمان : ١٣ .

(٣) المائدة : ٧٢.

(٤) مسلم كتاب الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار ٩٤/١ رقم٩٣

(٥) البخارى كتاب الأدب باب قتل الولد خشية أن يأكل معه ٤٤٨/١٠ رقم ٦٠٠١ ، ومسلم كتاب الإيمان باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده ٩٠/١رقم ٨٦ .

بالله [١] والشرك نوعان : أكبر وهو أن تجعل لله شريكاً فى الخلق أو العبادة وأصغر وهو : أن تعمل أعمال الطاعة وتريد بها غير الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [٢] أى لا يُرائي بعمله وقد نزلت فيمن يطلب الأجر من الله والحمد من الناس وفى الحديث : " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر: الرياء يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون بأعمالكم فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً " [٣] .

وإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه وإذا كان يوم القيامة أُتي بصحفٍ مختمة فتنصب بين يدي الله تعالى فيقول الله لملائكته : اقبلوا هذا وألقوا هذا فتقول الملائكة : وعزتك ما رأينا إلا خيراً فيقول : نعم لكنه كان لغيرى ولا أقبل اليوم إلا ما ابتغي به وجهي " [٤] .

الفائدة الرابعة :

أمر الله بالبر بالوالدين والإحسان إليهما وأن يكون الابن بين يديهما كما يكون العبد بين يدي سيده ونهى عن إيذائهما ورفع الصوت عليهما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾

---

[١] البخارى كتاب الحدود باب رمي المحصنات١٢/١٨٨ رقم ٦٨٥٧ ، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها ١/٩٢ رقم ٩٠ .

[٢] الكهف : ١١٠ .

[٣] أحمد فى المسند ١٧/٥٩ رقم ٢٣٥٢١، وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ١/١٠٢ .

[٤] سنن الدارقطنى ١/٥١ ، المعجم الأوسط للطبرانى ٣/٩٧ رقم ٢٦٠٣ ، وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح ورواه البزار مجمع الزوائد ١٠/٣٥٠ .

وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [١]
ومهما فعل الإبن لأبويه فلن يُجازيهما على ما فعلاه معه فى صغره ، رأى ابن عمر رجلاً يطوف بالكعبة حاملاً أمه على رقبته فقال : يا ابن عمر أترى أنى جزيتها ؟ قال : لا ولا بطلقةٍ واحدة ولكنك أحسنت والله يثيبك على القليل كثيرا [٢] ، وذلك لأن الإبن يُحسن إليهما وهو ينتظر موتهما وهما يُحسنان إليه فى حال صِغَره وضعفه وهما يرجوان حياته ولا فرق .

وقد جعل الله شكرهما من شكره قال ابن عباس : ثلاث آيات لا تُقبل إلا بثلاث وعدّ منها قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [٣] قال : فمن شكر الله ولم يشكر والديه لم يُقبل منه [٤] وفى الحديث : " رضا الله من رضا الوالدين وسخط الله من سخط الوالدين " [٥] ولذلك عدّ النبى ﷺ العقوق من أكبر الكبائر وبيّن أن الله حرم الجنة على العاق لوالديه فقال : " ثلاثةٌ حرَّم الله تبارك وتعالى عليهم الجنة مدمن الخمر والعاق لوالديه والديوث " [٦] وأوصى النبي ﷺ معاذاً فقال له : " لا تعُقَنَّ والديك وأن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك " [٧] وبيّن أن جزاء العقوق يُرى فى الدنيا قبل الآخرة فقال : " كل الذنوب يُؤخِّر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يُعَجِّلُه لصاحبه فى الحياة قبل الممات [٨] " ، وعن وهب بن منبه قال : أوحى الله تعالى

---

[١] الإسراء : ٢٣-٢٤ .

[٢] الزواجر ١٠٦/٢.

[٣] لقمان : ١٤ .

[٤] الزواجر ١٠٧/٢ .

[٥] البيهقى فى شعب الايمان ١٧٧/٦، ورواه الحاكم والطبرانى والبيهقى والبراز وغيرهم موقوفاً على ابن عمر وهو أصح راجع : كشف الخفاء ٥٢٠/١ رقم ١٣٩٠ .

[٦] أحمد مسنده ٣٩/٥ رقم ٥٣٧٢ وإسناده ضعيف ، قال الهيثمى : فيه راو لم يسم مجمع الزوائد ١٤٧/٨ .

[٧] أحمد فى المنسد ١٨٨/١٦ رقم ٢١٩٧٤ وإسناده صحيح .

[٨] المستدرك للحاكم ١٧٢/٤ رقم ٧٢٦٣ وصححه .

إلى موسى : وقِّر والدين فإنه من وقَّر والديه مددت فى عمره ووهبت له ولداً يبره ومن عقَّ والديه قصرت عمره ووهبت له ولداً يعقه [١] .

والعقوق : هو أن يحصل منه لهما أو لأحدهما إيذاء ليس بالهيِّن عُرفاً وإن لم يكن محرَّما إذا فُعِل مع الغير كأن يلقى أباه فيقطب فى وجهه أو يقدم عليه فى ملأ فلا يقوم له ولا يعبأ به .

قال ابن حجر : العقوق هو صدور ما يتأذَّى به الوالد من ولده من قولٍ أو فعلٍ إلا فى شركٍ أو معصيةٍ ما لم يتعنَّت الوالد . [٢]

الفائدة الخامسة:

أمر الله المسلم بالصدق وإن ظنَّ أن فيه الهلكة فإن فيه النجاة وحذَّره من الكذب وإن ظن أن فيه النجاة فإن فيه الهلكة ، ويعظُم طلب الصدق إذا كان فى معرض الشهادة وتشتد حرمة الكذب عند الشهادة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ ﴾ [٣]

وقال رسول الله ﷺ : " الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس " ثم قال : " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قول الزور " أو قال : " شهادة الزور" [٤] وصلَّى النبى ﷺ بأصحابه الصبح ذات يومٍ ثم قال لهم : " عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثلاث مرات ثم قرأ : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ " [٥] .

---

[١] فيض القدير للمناوى ٣٣/٤ .

[٢] فتح البارى ٤١٩/١٠ ، ٤٢٠ .

[٣] النساء : ١٣٥ .

[٤] البخارى كتاب الأدب باب عقوق الوالدين من الكبائر ٤١٩/١٠ رقم ٥٩٧٦ ، مسلم كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها ٩٢/١ رقم ٨٨ .

[٥] الحج : ٣٠ .

وقد توعَّد النبى ﷺ شاهد الزور بالنار يوم القيامة فقال : " لن تزول قدم شاهد الزور حتى يُوجب الله له النار " [١] وشهادة الزور أن تشهد بخلاف ما تعلم أو تشهد بما لا تتحققه .

قال ابن حجر [٢] : ضابط الزور وصف الشيء على خلاف ما هو به وقد يُضاف إلى القول فيشمل الكذب والباطل وقد يُضاف إلى الشهادة فيختص بها وقد يُضاف إلى الفعل ومنه فى الحديث : " لابس ثوبي زور " [٣] ومنه : تسمية الشعر الموصول زوراً [٤] وقد وصف الله عباده المؤمنين بأنهم ﴿ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ .[٥]

الفائدة السادسة :

تنوَّعت وسائل النبي ﷺ في تعليم أصحابه فتارةً يستخدم السؤال وتارةً يستخدم القصة وتارةً يرفع صوته وتارةً يخفضه وتارةً يُكرِّر الكلام وتارةً يستخدم حواسه للتعبير عما يقول وقد استخدم النبي ﷺ في هذا الحديث نوعين من الوسائل للتنويه بأهمية ما يقول .

---

[١] ابن ماجة كتاب الأحكام باب شهادة الزور ٧٩٤/٢ رقم ٢٣٧٣ وفي الزوائد : إسناده ضعيف ، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ١٢٢/١٠ ، والطبراني في المعجم الأوسط ١٩١/٨ رقم ٨٣٦٧ وهو ضعيف .

[٢] فتح الباري ٤٢٦/١٠ .

[٣] ونص الحديث : " المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور " وقد أخرجه : البخاري كتاب النكاح باب المتشبع بما لم ينل ٢٢٨/٩ رقم ٥٢١٩ ، ومسلم كتاب اللباس والزينة باب النهي عن التزوير في اللباس والتشبع بما لم يعط ٦٨١/٣ رقم ٢١٢٩ .

[٤] البخاري كتاب اللباس باب الوصل في الشعر ٣٨٧/١٠ رقم ٥٩٣٨ ، ومسلم كتاب اللباس والزينة باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة ١٦٨٠/٣ رقم ٢١٢٧ .

[٥] الفرقان : ٧٢ .

الوسيلة الأولى : أنه كان متَّكئاً فجلس وقال : "وشهادة الــزور " وهــذا يُشعر باهتمامه بهذا الأمر حتى جلس بعد أن كان متكئاً ويُفيد ذلك تأكيد تحــريم شهادة الزور وعظيم قُبحها وسبب الاهتمام بذلك والمبالغة فــيَ التحــذيرمنها : كون شهادة الزور سهلة الوقوع بين الناس والتهاون بها أكثــر فــإن الإشــراك يرفضه قلب المسلم والعقوق يرفضه الطبع السليم والفطرة المعتدلة وأما الــزور فالحوامل عليه كثيرة كالعداوة والحسد وغيرهما فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمــه وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذُكر معها من الإشراك بل لكون مفسدة الزور متعدِّية إلى غير الشاهد بخلاف الشرك فإن مفسدته قاصرة غالبة .[1]

الوسيلة الثانية : هي إعادة القول وتكريره حتى قال الصحابة : ليته سكت والنبي ﷺ يُكرِّر الشيء ليُفهم عنه ويظهر الاهتمام به وإنمــا تمنَّــى الصــحابة سكوت النبي ﷺ شفقةً عليه وكراهيةً لما يُزعجه وفي هذا بيان ما كــان عليــه الصحابة الكرام من حسن الأدب مع النبي ﷺ والمحبة له والشفقة عليه وهكــذا ينبغي أن يكون الطالب مع شيخه .

الدروس المستفادة من الحديث :

١- تنقسم الذنوب إلى صغائر وكبائر وتتفاوت رتبها حسب مفسدتها .
٢- تحريم الشرك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وهي من أكبــر الكبائر .
٣- تغليظ أمر شهادة الزور لما يترتب عليها من المفاسد والشرور وإن كانت مراتبها متفاوتة باعتبار مفاسدها .
٤- البعد عن كبائر الذنوب ليحصل العبد على تكفير الصغائر بذلك .
٥- إشفاق التلميذ على شيخه إذا رآه منزعجاً وتمنِّي عدم غضــبه لمــا يترتب على الغضب من تغيير المزاج .

---

[1] فتح الباري ٣١١/٥

علامات النفاق

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أربعةٌ من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من نفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان وإذا حدَّث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر) .

تخريج الحديث :

أخرج هذا الحديث :

(أ) البخاري كتاب الإيمان باب علامة المنافق ١١١/١ رقم ٣٤ .

(ب) مسلم كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق ٧٨/١ رقم ٥٨ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص سبقت ترجمته .

معاني المفردات :

منافقاً : المنافق هو الذي يُظهر خلاف ما يُبطن وإنما سُمِّي فاعل ذلك منافقاً لأحد أسباب ثلاثة : أولها : أنه يستر كفره فأشبه الداخل في النفق ، ثانيها : لأنه شُبِّه باليربوع الذي له جحرٌ يسمى النافقاء فإذا طُلب من واحدٍ هرب إلى الآخر فكذلك المُنافق يخرج من الإيمان في غير الوجه الذي يدخل فيه ، ثالثها : أنه شُبِّه باليربوع من جهة أن اليربوع يخرق في الأرض حتى إذا قارب ظاهرها أرقّ التراب فإذا رابه ريبٌ رفع التراب برأسه فخرج فظاهر جحره تراب وباطنه حُفَر ، وكذلك المنافق

ظاهر أمره الإيمان وباطنه الكفر . [1] يقال نافق يُنافق منافقــةً ونفاقــاً والنفاق اسم إسلامي لم تعرفه العرب بمعناه المخصوص به وهو الــذي يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر .

خالصاً : أي متميّزاً واضحاً .

خصلة : بفتح الخاء أي شعبة من شُعَبِه وجزءٌ منه أو حالةٌ من حالاته .

يدعها : أي يتركها .

أؤتمن : من الائتمان وهو جعل الشخص أميناً ثم الطلب منه أن يحفظ الأمانــة والمؤتمن في القوم هو الذي يثقــون فيــه ويجعلونــه أمينــاً حافظــاً يقال : أؤتمن الرجل فهو مؤتمن .

خان : الخيانة : هي التصرُّف في الأمانة بخلاف أمر الشرع .

كذب : الكذب ضد الصدق وهو : الإخبار على خلاف الواقع .

عاهد : من المعاهدة وهي المحالفة والمواثقة .

غدر : من الغدر وهو ضد الوفاء .

خاصم : من المخاصمة وهي المجادلة .

فجر : الفاجر : هو المُنبعث في المعاصي والمحارم ، والفجور هو : الميل عن الحق والاحتيال في رده .

---

[1] راجع : إكمال المعلم للقاضي عياض ٣١٣/١ ، ٣١٤ .

المعنى الإجمالي للحديث

بيَّن لنا النبي ﷺ في هذا الحديث أظهر صفات المنافقين التي تُميِّزُهم عن غيرهم وتكشف سرائرهم وتفضح حقيقة ما في نفوسهم فهم يُظهرون الإيمان ويعاشرون أهله .

ولكنهم يكذبون إذا حدَّثوا لأن الصدق نور وصدورهم مظلمة والنور لا يخرج من الظلام ، وكل إناءٍ ينضح بما فيه ؛ ويُخلفون الوعد ويغدرون عند العهد ويفجرون عند الخصومة ويخونون الأمانة لأنهم لا يستشعرون أن الله معهم يطَّلع على أحوالهم لا تخفى عليه صغيرةٌ ولا كبيرة فهم يخشون الناس ولا يخشون الله ، ويرغبون في رضاهم ولا يُهمهم أرضي الله عنهم أم لا ، قلوبهم مظلمة وسرائرهم فاسدة وأخلاقهم مزدولة .

فإذا وُجدت إحدى صفات المنافقين في مسلم أضرَّت بإيمانه فإذا اكتملت عنده كان شديد الشبه بهم ، ويُخشى عليه من سوء الخاتمة لأن المعاصي بريد الكفر ونفاق العمل بوَّابة نفاق الاعتقاد .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث أخص صفات المنافقين وأبرز ملامحهم الشخصية التي تُميِّزهم عن غيرهم وتكشف حقيقة ما في نفوسهم .

والنفاق نوعٌ من الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان الشر وهو ينقسم في ميزان الشرع إلى قسمين :-

الأول : النفاق الأكبر وهو : أن يُظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ويُبطن ما يُناقض ذلك كله أو ما يُناقض بعضه وهذا النفاق كفرٌ بواح وهو الذي كان موجوداً في عهد رسول الله

ﷺ ونزل القرآن بذم أهله وفضحهم وتكفيرهم والتشنيع عليهم وأخبر أن أهله ﴿ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴾ [١] ، وهم الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ .[٢]

الثاني : النفاق الأصغر وهو : نفاق العمل وهو أن يكون الإنسان مؤمناً بأركان الإسلام والإيمان ولكنه يُظهر الصلاح والاستقامة عليها ويُبطن خلاف ذلك وهذا النوع في جملته يرجع إلى اختلاف السريرة والعلانية ، ولذلك قال أبو الدرداء : خشوع النفاق أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع . [٣]

وقال عمر بن الخطاب على المنبر : إن أخوف ما أخاف عليكم المنافق العليم قالوا : كيف يكون المنافق عليماً ؟ فقال : يتكلم بالحكمة ويعمل بالجور[٤].

وسُئل حذيفة بن اليمان عن المنافق فقال : هو الذي يصف الإسلام ولا يعمل به . [٥]

وهذا النوع من النفاق قد يقع فيه أي مؤمن دون أن يدري ولذلك كان الصحابة يخشون على أنفسهم من الوقوع فيه حتى سأل سيدنا عمر أم سلمة فقال

---

[١] النساء : ١٤٥ .

[٢] التوبة : ٨٤ .

[٣] مصنف ابن أبي شيبة ٢٤٣/٧ رقم ٣٥٧١١ ، شعب الإيمان للبيهقي ٣٦٤/٥ رقم ٦٩٦٦ .

[٤] تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر ٦٣٣/٢ رقم ٦٨٥ .

[٥] مصنف بن أبي شيبة ٤٨٤/٧ رقم ٣٧٤١٦ ، وصفة المنافق لجعفر الفريابي ٦٦/١ رقم ٢٧٠ ، السنة لعبد الله بن أحمد ٣٧٢/١ رقم ٨٠٦ .

لها : أأنا من المنافقين ؟ [١] ، قال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه . [٢]

والخوف من الوقوع في هذا النوع من النفاق علامة الإيمان ولذلك أكثر الصالحون من التعوُّذ من الوقوع فيه ، سمع رجل أبا الدرداء يتعوَّذ من النفاق في صلاته فلما سلَّم قال له : ما شأنك وشأن النفاق ؟ فقال : اللهم اغفر لي – ثلاثاً – ثم قال : لا تأمن البلاء والله إن الرجل ليُفتن في ساعةٍ واحدة فينقلب عن دينه . [٣]

فكان الصحابة يخافون نفاق العمل ولم يُنقل عن غيرهم خلاف ذلك فكأنه إجماع ولا يلزم من خوفهم من النفاق وقوعه منهم بل صدر ذلك منهم على سبيل المبالغة في الورع والتقوى فكان ذلك دليل الإيمان .

وقيل للإمام أحمد : ما تقول في من لا يخاف على نفسه النفاق ؟ فقال : ومن يأمن على نفسه النفاق ؟ [٤] ، ولقد استقرَّ هذا المعنى في نفوس الصالحين حتى كان الحسن البصري يحلف في المسجد بالله الذي لا إله إلا هو أنه ما مضى من مؤمنٍ قط ولا بقي إلا وهو من النفاق مُشفق ولا مضى منافق قط ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن وكان يقول : من لم يخف النفاق فهو منافق . [٥]

---

[١] المعجم الكبير للطبراني ٣١٧/٢٣ .

[٢] صحيح البخاري كتاب الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر فتح الباري ١٣٥/١ .

[٣] صفة المنافق ٦٩/١ رقم ٧٤ ، جامع العلوم والحكم ٤٣٤/١ .

[٤] جامع العلوم والحكم ٤٣٤/١ .

[٥] صفة المنافق ٧٣/١ رقم ٨٧ ، فتح الباري ٣٧/١ .

ولذلك كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : " اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق " [١].

ولما تقرَّر عند الصحابة أن النفاق هو : اختلاف السر والعلانية خشي بعضهم على نفسه أن يكون إذا تغيَّر عليه حضور قلبه ورقته وخشوعه عند سماع الذكر برجوعه إلى الدنيا والاشتغال بالأهل والأولاد والأموال أن يكون ذلك نفاقاً .

فعن حنظلة الأُسيدي قال : لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قال قلت : نافق حنظلة قال : سبحان الله ما تقول ؟ قال قلت : نكون عند رسول الله ﷺ يُذكِّرنا بالنار والجنة حتى كأنَّا رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً ، قال أبو بكر : فوالله إنا لنلقى مثل هذا ، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلت على رسول الله ﷺ قلت : نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ : وما ذاك ؟ قلت : يا رسول الله نكون عندك تُذكِّرنا بالنار والجنة حتى كأنَّا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً فقال رسول الله ﷺ : " والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرُشكم وفي طُرُقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات " . [٢]

---

[١] أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستعاذة ٩٣/٢ رقم ١٥٤٦ ، النسائي كتاب الاستعاذة باب الاستعاذة من النفاق والشقاق وسوء الأخلاق ٢٦٤/٨.

[٢] مسلم كتاب التوبة باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة ٢١٠٦/٤ رقم ٢٧٥٠ .

وعن أنس قال : قالوا : يا رسول الله إنّا نكون عندك على حالٍ فإذا فارقناك كنا على غيره قال : " وكيف أنتم؟ " قالوا : الله ربنا في السر والعلانية قال : " ليس ذاكم من النفاق " . [١]

فالواجب على المؤمن أن يحذر أن يخالف ظاهره باطنه وسره علانيته فتلك حقيقة النفاق .

والنفاق الأصغر مؤدٍّ للنفاق الأكبر كما أن المعاصي بريد الكفر فكما يخشى من أصرّ على المعصية أن يُسلب الإيمان عند الموت فكذلك يُخشى على من أصرَّ على خصال النفاق أن يُسلب الإيمان فيصير منافقاً خالصاً .

ومن أعظم وأخطر صور النفاق العملي : أن يعمل الإنسان عملاً ويُظهر أنه قصد به الخير وإنما عمله في الحقيقة ليتوصّل به إلى غرضٍ فاسد فيتم له ذلك ويتوصل بهذه الخديعة إلى غرضه ويفرح بمكره وخداعه وحمد الناس له على ما أظهره ويتوصل به إلى غرضه الذي أبطنه قال أبو العتاهية :

ليست الدنيا إلا بدين ** وليس الدين إلا مكارم الأخلاق

إنما المكر والخديعة في النار ** وهي من خصال أهل النفاق

الفائدة الثانية :

مظاهر النفاق كما جاءت في الأحاديث : خمسة خصال إذا وجدت خصلةٌ منهن في مسلم كانت فيه خصلةٌ من نفاق حتى يَدَعها وإذا اجتمعن في مسلمٍ كان شديد الشبه بالمنافقين ويُخشى عليه من سوء العاقبة وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم .

---

[١] أبو يعلي في مسنده ١٠٥/٦ رقم ٣٣٦٩ ، عبد بن حميد في مسنده ص٤٠٥ رقم ١٣٧٧ ، وقال الهيثمي : رواه أبو يعلي والبزار ورجال أبي يعلي رجال الصحيح مجمع الزوائد ٣٤/١ .

الأولى : الكذب في الحديث : ولقد سُئل رسول الله ﷺ أيكون المؤمن كذَّاباً ؟ فقال : " لا " [١] ، وقال : " يُطبع المرء على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب " [٢] ، وقال " كبُرت خيانةً أن تُحدِّث أخاك حديثاً هو لك به مُصدِّق وأنت له به كاذب " . [٣]

والكذب أخصُّ صفات المنافقين قال الحسن البصري : أُسُّ النفاق الذي بُني عليه : الكذب [٤] ، ولذلك ما كان من خلقٍ أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذبة فما يزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث فيها توبة . [٥]

ولقد حذَّر رسول الله ﷺ من جميع صور الكذب حتى في الأمور التي يراها البعض تافهة لأنه متى استهان الإنسان بصغير الكذب وقع في كبيره ، وفي الحديث " من قال لصبيٍ تعال هاك أُعطيك ثم لم يُعطه فهي كذبة " . [٦]

---

[١] مالك في الموطأ كتاب الكلام باب ما جاء في الصدق والكذب ص ٧٥٦ ، وقال ابن عبد البر : لا أحفظه مسنداً من وجه ثابت وهو حديث حسن مرسل التمهيد ٢٥٣/١٦ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٠٧/٤ رقم ٤٨١٢ مرسلاً أيضاً .

[٢] أحمد في المسند ٢٢٥/١٦ رقم ٢٢٠٧٠ من حديث أبي أمامة وهو ضعيف لأنه منقطع وأخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص : البيهقي في السنن الكبرى ١٩٧/١٠ ، وأبو يعلي في مسنده ٦٧/٢ رقم ٧١١ ، والبزار في مسنده ٣٤٠/٣ رقم ١١٣٩ ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٩٢/١ وقال ابن حجر : وسنده قوي فتح الباري ٥٢٤/١٠ ، وقال الدار قطني : روي مرفوعاً وموقوفاً والموقوف أشبه بالصواب علل الدار قطني ٣٣٠/٤ .

[٣] أبو داود كتاب الأدب باب في المعاريض ٣٩٥/٤ رقم ٤٩٧١ ، أحمد في المسند ٤٤٦/٣ رقم ١٧٥٦٧ ، وإسناده حسن فيه راو مختلف فيه ، قال الهيثمي : وبقية رجاله ثقات مجمع الزوائد ١٤٢/١ .

[٤] صفة المنافق للفريابي ص ٦١ رقم ٥٠ .

[٥] الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في الصدق والكذب ٣٩٢/٣ رقم ١٩٨٠ وحسنه ، وأحمد في المسند ٥٣٦/١٧ رقم ٢٥٠٦١ ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ١٤٢/١ .

[٦] أحمد في المسند ٣٢٦/٩ رقم ٩٧٩٧ وإسناده صحيح إلا أنه منقطع فالزهري لم يسمع من أبي هريرة .

وعن عبد الله بن عامر قال : دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت : ها تعال أعطيك فقال لها رسول الله ﷺ : " ما أردت أن تعطيه ؟ " قالت : أردت أن أعطيه تمراً فقال لها رسول الله ﷺ : " أما إنك لو لم تعطه شيئاً كُتبت عليك كذبة " [١] .

والكذب ممنوع في جميع الأشياء حتى في الأمور المنزلية الصغيرة ، فعن أسماء بنت يزيد قالت يا رسول الله : إن قالت إحدانا لشيءٍ تشتهيه لا أشتهيه يُعدُّ ذلك كذباً ؟ فقال : " إن الكذب يكتب كذباً حتى تُكتب الكُذيبة كذيبة " . [٢]

ولقد حذَّر رسول الله ﷺ من الكذب ولو كان على سبيل المزاح فقال : " ويلٌ للذي يُحدِّث بالحديث ليُضحك به القوم فيكذب ويلٌ له ويل له " [٣] ، وقال : " أنا زعيمٌ بيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً " [٤] ، وقال : " لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاح والمراء وإن كان صادقاً " [٥] ، وذلك لأن " الكذب ريبة والصدق طمأنينة " . [٦]

الثانية : إخلاف الوعد وهو يدل على عدم احترام الكلمة والاستهانة بالآخرين ويدل أيضاً على ضعف النفس وخورها وهو ينقسم إلى قسمين :
الأول : أن يَعِد وهو في نيَّته عدم الوفاء وهو حرام .

---

[١] أبو داود كتاب الأدب باب في التشديد في الكذب ٢٩٩/٤ رقم ٤٩٩١ ، أحمد في المسند ٢٧٩/١٢ رقم ١٥٦٤٢ وإسناده ضعيف لجهالة أحد رواته .

[٢] أحمد فى مسنده ٥٥٩/١٨ رقم ٢٧٣٤٤.

[٣] أبو داود كتاب الأدب باب في التشديد في الكذب ٢٩٩/٤ رقم ٤٩٩٠ ، الترمذي كتاب الزهد باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس ١٤٢/٤ رقم ٢٣٢٢ وحسنه .

[٤] أبو داود كتاب الأدب باب في حسن الخلق ٢٥٤/٤ رقم ٤٨٠٠ وإسناده حسن .

[٥] أحمد في المسند ٤١٣/٨ رقم ٨٧٥١ وهو مرسل .

[٦] الترمذي كتاب صفة القيامة ٢٣٢/٤ رقم ٢٥٢٦ وقال : حديث حسن ، أحمد في المسند ٣٤٧/٢ رقم ١٧٢٧ وإسناده صحيح .

والثاني : أن يَعِد وينوي الوفاء ثم يبدو له ألا يفي فيُخلِفُ من غير عـذر قاهر .

والوفاء بالوعد واجبٌ على الصحيح ما لم يترتَّب عليه ضرر أو إثم فـإن ترتب عليه ضرر للآخرين أو معصية لله وجب عدم الوفاء به .

وفي الحديث : " من حلف على يمينٍ فرأى غيرها خيراً منها فليُكَفِّر عـن يمينه وليفعل الذي هو خير" [١] ، وفي الحديث أيضاً : " لأن يلج أحدكم بيمينـه في أهله آثم عند الله تعالى من أن يُعطي كفَّارته التي افترض الله عليه " [٢] .

فإذا كان إخلاف الوعد مقارناً للوعد كان حراماً أما لو كان عازماً علـى الوفاء ثم عرض له مانع أو بدا له رأي فهذا ليس من صور النفـاق ، وإنمـا يعظُم الإخلاف عند التعمُّد دون عذر ، فعن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال : " إذا وعد لرجل أخاه ومن نيَّته أن يفي له فلم يفِ فلا إثم عليه " [٣] .

وإخلاف الوعد نوعٌ من الكذب وإنما ذكره مفرداً من باب عطـف العـام على الخاص تنبيهاً لزيادة قُبحه وشدة ضرره .

الثالثة : الفجور عند الخصومة والمقصود بالفجور : أن يخرج عن الحق عمداً حتى يصير الحق عنده باطلاً والباطل حقاً وهو ثمرة الكذب .

---

[١] مسلم كتاب الإيمان باب ندب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه ١٢٧١/٣ رقم ٦٥٠ .

[٢] البخاري كتاب الإيمان والنذور باب قوله تعالى " لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ... الآية ٥٢٦/١١ رقم ٦٦٢٥ ، مسلم كتاب الإيمان باب النهي عن الإصرار على اليمين فيما يتأذى به أهل الحالف ممـا لـيس بحرام ١٢٧٦/٣ رقم ١٦٥٥ .

[٣] أبو داود كتاب الأب باب في العدة ٣٠٠/٤ رقم ٤٩٩٥ ، الترمذي كتاب الإيمان باب ما جـاء فـي علامـة المنافق ٢٨٧/٤ رقم ٢٦٤٢ ، وقال : ليس إسناده بالقوي .

وفي الحديث : " إيَّاكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار " [١] ، فإذا أُعطي الرجل قدرةً عند الخصومة فاستخدم قدرته في الدفاع عن الباطل فانتصر له حتى خيَّل للسامع أنه حق وأوهن الحق وجعله في صورة الباطل كان ذلك من أقبح المُحرَّمات وأخبث خصال النفاق .

فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ : " من خاصم في باطلٍ وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع " [٢] وفي رواية : " ومن أعان على خصومةٍ بظلم فقد باء بغضبٍ من الله " .[٣]

الرابعة : إذا عاهد غدر ولم يفِ بالعهد ولقد أمر الله بالوفاء بالعهد فقال : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [٤] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [٥] وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٦] .

---

[١] مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ٢٠١٣/٤ رقم ٢٦٠٧ .

[٢] أبو داود كتاب الأقضية باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها ٣٠٤/٣ رقم ٣٥٩٧ ، أحمد في المسند ٩٩/٥ رقم ٥٥٤٤ ، وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

[٣] أبو داود كتاب الأقضية باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها ٣٠٤/٣ رقم ٣٥٩٨ .

[٤] الإسراء : ٣٤ .

[٥] النحل : ٩١ .

[٦] آل عمران : ٧٧ .

والغدر وعدم الوفاء معصيةٌ وشؤم في الدنيا وفضيحةٌ وعذابٌ في الآخرة ، وفي الحديث : " إن الغادر يُنصب له لواءٌ يوم القيامة فيُقال : ألا هــذه غــدرة فلان " (١) .

والوفاء بالعهد واجب والغدر حرام حتى لو كان العهد بين مسلم وبين غيره قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ (٢) .

وفي الحديث عن حذيفة بن اليمان قال : ما منعني أن أشهد بدراً إلا أنــي خرجت وأبي حسيل فأخَذَنا كفار قريش فقالوا : إنكم تريدون محمدا ، فقلنا : ما نريده ما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفنَّ إلى المدينــة ولا نُقاتل معه فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر فقال : " انصرفا نفي لهم بعهــدهم ونستعين الله عليهم " (٣) .

ومن أعظم العهود التي يجب الوفاء بها العهد مع الله على طاعته واتبــاع رسالته والالتزام بسائر صور العبادة والوفاء للإمام بطاعته والإلتزام بالبيعــة ، وفي الحديث : " ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم الله يوم القيامة ولا يُزكِّيهم فذكر منهم : ورجلٌ بايع إماماً لا يُبايعه إلا لدنيا فإن أعطاه ما يُريد وفَّى له وإلا لم يفِ له " .(٤)

---

(١) البخاري كتاب الآداب باب ما يدعى الناس بآبائهم ٥٧٨/١٠ رقم ٦١٧٧ ، مسلم كتاب الجهاد والسير بــاب تحريم الغدر ١١٦٠/٣ رقم ١٧٣٥ .

(٢) الأنفال : ٥٨ .

(٣) مسلم كتاب الجهاد والسير باب الوفاء بالعهد ١٤١٤/٣ رقم ١٧٨٧ .

(٤) مسلم كتاب الشهادات باب اليمين بعد العصر ٣٣٥/٥ رقم ٢٩٧٢ ، مسلم كتاب الإيمان بــاب بيــان غلــظ تحريم إسبال الازار ١٠٢/١ رقم ١٠٦ .

وجميع عهود المسلمين يجب الوفاء بها ما لم تكن معصية وتراضوا عليها سواءً كانت في البيوع أو النكاح أو غيرها .

ويكفي الغادر ذماً أن الله سيكون خصمه يوم القيامة ومن كان الله خَصْمُه خَصَمَه ، وفي الحديث : " ثلاثةٌ أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حراً فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه العمل ولم يُعطه أجره " . (١)

الخامسة : خيانة الأمانة فصفة المؤمنين رد الأمانات إلى أهلها ورعاية العهود قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (٣) وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وفي الحديث : " أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك " (٥) .

وقال النبي ﷺ في خطبة الوداع : " من كانت عنده أمانه فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها " (٦) .

---

(١) البخاري كتاب البيوع باب إثم من باع حراً ٤/٤٨٧ رقم ٢٢٢٧ .

(٢) المؤمنون : ٨ .

(٣) النساء : ٥٨ .

(٤) الأنفال : ٢٧ .

(٥) أبود داود كتاب البيوع باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده ٣/٢٨٨ رقم ٣٥٣٤ ، والترمذي كتاب البيوع باب ما جاء في النهي للمسلم أن يدفع إلى الذمي الخمر يبيعها له ٣/٣٣ رقم ١٢٦٨ وقال : حديث حسن .

(٦) أحمد في المسند ١٥/٢٩٢ رقم ٢٠٥٧٣ ، السنن الكبرى للبيهقي ٦/٩٧ رقم ١١٣٠٦ .

فخائن الأمانة شديد الشبه بالمنافقين حيث يُظهر الأمانة ويُبطن الخيانة ، وفي الحديث : " لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له " [(١)] .

والوفاء بالأمانة أحد أمورٍ ستة ضمن رسول الله ﷺ لمن اتَّصف بها الجنة ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : " اضمنوا لي من أنفسكم ستاً أضمن لكم الجنة : اصدُقوا إذا حدَّثتم وأوفوا إذا وعدتم وأدُّوا إذا اؤتمنتم وغُضُّوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم " [(٢)] .

وخائن الأمانة في الدنيا يُكلَّف بأدائها يوم القيامة فلا يستطيع فيهوي في النار ، قال ابن مسعود : القتل في سبيل الله يُكفِّر كل ذنبٍ إلا الأمانة يُؤتى بصاحب الأمانة فيُقال له : أدِّ أمانتك فيقوك : من أين يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول : اذهبوا به إلى الهاوية فيهوي به حتى ينتهي إلى قعرها فيجدها هناك كهيئتها فيضعها على عنقه فيصعد بها في نار جهنم حتى إذا رأى أنه قد خرج منها زلَّت فهوى فيهوي في أثرها أبد الآبدين قال : والأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الحديث وأشد من ذلك الودائع " [(٣)] .

ولذلك كان النبي ﷺ يتعوَّذ من الخيانة فيقول : " اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة " .[(٤)]

[(١)] أحمد في المسند ٤٣٨/١٠ رقم ١٢٣٢٤ ، ابن حبان في صيحه ٤٢٢/١ رقم ١٩٤ وإسناده حسن فيه راو مختلف فيه راجع : مجمع الزوائد ٩٦/١ .

[(٢)] أحمد في المسند ٤١٣/١٦ رقم ٢٢٦٥٦ ، ابن حبان في صحيحه ٤٢٢/١ رقم ٥٠٦ رقم ٢٧١ ، والحاكم في المستدرك ٣٩٩/٤ رقم ٨٠٦٦ وصححه ووافقه الذهبي لكنه قال : فيه إرسال ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات إلا أن المطلب لم يسمع من عبادة مجمع الزوائد ١٤٥/٤ .

[(٣)] السنن الكبرى للبيهقي ٢٨٨/٦ رقم ١٢٤٧٢ ، حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٠١/٤ .

[(٤)] أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستعاذة ٩٣/٢ رقم ١٥٤٧ ، النسائي كتاب الاستعاذة باب الاستعاذة من الجوع ٢٦٣/٨ .

الفائدة الثالثة :

هذا الحديث عدَّه جماعة من العلماء مشكِلاً لأن هذه الخصال الأربعة قد تُوجد في المسلم المُجمَع على عدم الحكم بكفره لأن العلماء مُجمِعون على أن من كان مصدِّقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال فإننا لا نحكم عليه بكفر ولا هو منافق يستوجب الخلود في النار فإن إخوة يوسف جمعوا هذه الخصال وكذا وجد في بعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله فكيف نحكم عليهم بالنفاق .

وقد أجاب العلماء على هذا بستة أجوبة :

الأول : أنه محمولٌ على من غلبت عليه هذه الخصال وتهاون بها واستخفَّ بأمرها فإن كان كذلك كان فاسد الاعتقاد غالباً فيكون منافقاً خالصاً فأما من ندر وقوع ذلك منه فليس داخلاً فيه .

الثاني : أن المراد بالوصف بالنفاق في هذا الحديث هو : الإنذار والتهديد والتحذير من ارتكاب هذه الخصال وظاهره غير مراد .

الثالث : أن اللام في النفاق ليست للجنس وإنما للعهد وأن هذا الحديث ورد في رجلٍ بعينه منافق ، وكان النبي ﷺ لا يواجههم بصريح القول فيقول : فلان منافق وإنما كان يُشير إشارةً كما كان يقول : " ما بال أقوامٍ يفعلون كذا وكذا " [(١)] .

الرابع : أن اللام للعهد وأن الحديث وارد في حق المنافقين في عهد النبي ﷺ وتلك علاماتهم لأنهم حدَّثوا بأنهم آمنوا فكذبوا وائتُمنوا على دينهم فخانوا ووعدوا في أمر الدين ونصره فأخلفوا ، قال القاضي عياض : وهو قول

---

(١) البخاري كتاب الصلاة باب ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد ١/٦٥٥ رقم ٤٥٦ ، ومسلم كتاب العتق باب إنما الولاء لمن أعتق ٢/١١٤١ رقم ١٥٠٤ .

عطاء بن أبي رباح وإليه رجع الحسن البصري وهو مذهب سعيد بن جبير وابن عمر وابن عباس وإلى هذا المعنى مال كثير من أئمتنا .[(١)]

الخامس : قال النووي : ليس فيه إشكال بل معناه صحيح والذي قاله المحقِّقون والأكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه : أن هذه خصال نفاق وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومُتخلِّقٌ بأخلاقهم لأنه منافق في الإسلام فيُظهره ويُبطن الكفر ولم يُرد النبي ﷺ بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلَّدين في الدرك الأسفل من النار ، وقول النبي ﷺ : " كان منافقاً خالصاً " معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال .[(٢)]

قال ابن حجر : محصَّل هذا الجواب : الحمل في التسمية على المجاز أي صاحب هذه الخصال كالمنافق وهو بناءاً على أن المراد بالنفاق نفاق الكفر .[(٣)]

السادس : النفاق نفاقان نفاق اعتقاد وهو : إظهار الإسلام وإبطان الكفر وصاحبه في الدرك الأسفل من النار ، ونفاق عمل وهو : أن يتخلَّق ببعض أخلاق المنافقين .

والمقصود في الحديث : نفاق العمل وهو الذي سأل عنه سيدنا عمر سيدنا حذيفة لمَّا قال له : هل تعلم فيَّ شيئاً من النفاق ؟ أي من صفات المنافقين الفعلية وهو الذي ارتضاه القرطبي في المفهم .[(٤)]

قال الإمام الترمذي بعد روايته هذا الحديث : معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل وإنما كان نفاق التكذيب في عهد رسول الله ﷺ .[(٥)]

قال ابن حجر : هو أحسن الأجوبة .[(٦)]

---

(١) إكمال المعلم ٣١٤/١ ، ٣١٥ .
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٤٧/٢ .
(٣) فتح الباري ١١٣/١ .
(٤) المفهم ١ / ٢٥٠ .
(٥) سنن الترمذي ٢٨٧/٤ .
(٦) فتح الباري ١١٣/١ .

الفائدة الرابعة :

ورد في هذا الحديث أن خصال المنافقين أربع وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان " (١) .

فتحصّل من الحديثين أن للمنافق خمس خصال فكيف ذكر مرةً أنها أربع ومرةً أنها ثلاث ثم ذكر مجموع خمس خصال ؟

للعلماء فى ذلك أراء :-

الأول : قال النووي لا منافاة بينهما فإن الشيء الواحد قد تكون له علامات كل واحدة منهن تحصل بها صفته ثم قد تكون تلك العلامة شيء واحد وقد تكون أشياء . (٢)

الثاني : قال القرطبي : يُحتمل أن يكون ذلك لأن النبي ﷺ استجدَّ له من العلم بخصال المنافقين ما لم يكن عنده بالوحي أو بالمشاهدة لتلك منهم (٣) .

الثالث : قال ابن حجر : ليس بين الحديثين تعارض لأنه لا يلزم من عدّ الخصلة المذمومة الدالة على كمال النفاق كونها علامة على النفاق لاحتمال أن تكون العلامات دالات على أصل النفاق والخصلة الزائدة إذا أُضيفت إلى ذلك كمل بها خلوص النفاق ، وفي رواية مسلم ما يدل على عدم إرادة الحصر

---

(١) البخاري كتاب الإيمان باب علامة المنافق ١١١/١ رقم ٣٣ ، مسلم كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق ٧٨/١ رقم ٥٩ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى ٤٨/٢ .

(٣) المفهم ٢٥١/١.

ولفظه : " من علامات المنافق ثلاث " [١] وإذا حُمل اللفظ الأول على هذا لم يرد السؤال فيكون قد أخبر ببعض العلامات في وقتٍ وببعضها في وقتٍ آخر . [٢]

ومجموع الصفات التي وصف بها رسول الله ﷺ المنافقين خمسة ولا شك أن للمنافقين خصالاً أخرى مذمومة كما ذكر الله في كتابه منها أنهم ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [٣] فيُحتمل أن يُقال : إنما خُصَّت تلك الخصال الخمس بالذكر لأنها أظهر عليهم من غيرها عند مخالفتهم للمسلمين أو لأنها هي التي يضرُّون بها المسلمين ويقصدون بها مفسدتهم دون غيرها من صفاتهم . [٤]

الدروس المستفادة من هذا الحديث :

١- الحذر من النفاق والإكثار من التعوذ منه .

٢- من صفات المنافقين : الكذب في الحديث و خيانة الأمانة والفجور في الخصومة وإخلاف الوعد والغدر عند العهد .

٣- من صفات المؤمنين : صدق الحديث وحفظ الأمانة والعدل عند الخصومة وعدم إخلاف الوعد والوفاء بالعهد .

٤- الحذر من نفاق العمل لأنه قد يؤدي إلى نفاق الاعتقاد ويخشى على فاعله من سوء الخاتمة .

---

[١] مسلم كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق ٧٨/١ رقم ٥٩ .

[٢] فتح الباري ١١٢/١ .

[٣] النساء : ١٤٢ .

[٤] المفهم ٢٥١/١ .

تحريم الغيبة

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (أتدرون ما الغيبة ؟) قالوا : الله ورسوله أعلم قال : (ذكرك أخاك بما يكره) قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) .

تخريج الحديث :

أخرج هذا الحديث :

الإمام مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الغيبة ٢٠٠١/٤ رقم ٢٥٨٩ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر أبو هريرة الدوسي ، وقد سبقت ترجمته .

معاني المفردات

أتدرون ما الغيبة ؟ : أي : أتعرفون حقيقتها الشرعية التي حرَّمها الله ؟ .

الغيبة : بكسر الغين وسكون الياء على وزن فِعْلة مأخوذة من الغَيبة بفتح الغين مصدر غاب ، لأنها ذِكرُ الرجل في حال غيابه بما يكره لو سمعه بالقول أو بالفعل أو بالإشارة يُقال : اغتاب فلانٌ فلاناً يَغتابه اغتياباً والاسم : الغيبة .

أفرأيت : أي : أخبرني .

إن كان في أخي ما أقول : أي من العيب أيكون ذلك غيبة .

بهته : بفتح الباء والهاء وتشديد التاء المفتوحة يقال : بهته بَهتاً وبَهْتاً وبُهتاناً أي قال عليه ما ليس فيه كذباً أو افتراءً وهو بهّات والبهتان هو : الباطل وافتراء الكذب .

المعنى الإجمالي للحديث :

حرَّم الله الغيبة وذمَّها في كتابه وحذَّر منها فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] .

فأراد النبي ﷺ أن يحدِّد لأصحابه مفهومها الشرعي فاستخدم أحد أساليبه الناجحة في التعليم وهي طريقة السؤال والجواب ، فسألهم عنها فقالوا : الله ورسوله أعلم فردوا العلم إليهما عملاً بالأدب ووقوفاً عند حد العلم فأجابهم النبيﷺ معلماً ومرشداً فقال : هي أن تذكر أخاك بما يكره سواءً ذكرت ما يُسيئه ويكرهه إذا سمعه في نفسه أو فيمن يحب فإن ذكرت ما ليس فيه فهذا أشرُّ وأخبث وهو البهتان .

والمجتمع المسلم كالجسد الواحد ، والمسلمون تجمعهم أُخوَّة الإيمان ونسب العقيدة فيشيعون الخير ويكتمون الشر ويُسعدون إخوانهم ويكرهون إساءتهم يبنون قواعد مجتمعهم على المحبة والإخاء .

والغيبة تنقض ذلك وتهدمه لأنها تشيع الشر والفساد وتؤذي المسلمين ولذلك لا يستروح لها إلا أصحاب النفوس المريضة والفِطَر المعوجَّة ، فالغيبة

---

[1] الحجرات : ١٢ .

هي : شهوة الهدم للآخرين وهي شهوة النهش في أعراض المسلمين وكراماتهم وحرماتهم وهم غائبون ، والنبي ﷺ حرَّم أموال المسلمين ودمائهم وأعراضهم وجعلها متماثلة فقال في حجة الوداع " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " [١].

والغيبة دليلٌ على جبن فاعلها لأنها طعنٌ من الخلف ، فالمغتابون كالخفافيش لا تظهر إلا ليلاً في غيبة النور وهم لا يتكلمون إلا في غيبة من يتكلمون عنه ويعجزون عن الصراحة والمواجهة وهي من مظاهر الضعف والسلبية فالغيبة معول هدم وأداة فساد ومظهر ضعف وجبن .

وهواة الغيبة لا يسلم من طعنهم وجرحهم أحد ينسون عيوبهم ولا ينظرون إلا إلى عيوب الناس قال أبو هريرة : يبصر أحدهم القذاة في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه . [٢]

ولذلك صوَّر القرآن الغيبة في صورة منفِّرة تتقزز منها النفوس وتنبو عنها الأذواق فقال : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .[٣]

والإنسان يأنف أن يأكل لحم إنسان فكيف إذا كان لحم أخيه وكيف إذا كان ميتاً ؟ ولقد أكد النبي ﷺ هذا التصوير القرآني في الأذهان وحرص على تثبيته في القلوب كلما لاحت فرصة لهذا التأكيد والتثبيت فعن ابن مسعود قال : كنا عند النبي ﷺ فقام رجل – أي انصرف من المجلس – فوقع فيه رجل من بعده

---

(١) مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ٤/١٩٨٦ رقم ٢٥٦٤ .

(٢) الأدب المفرد للبخاري ص ٢٠٧ .

(٣) الحجرات : ١٢ .

فقال له النبي ﷺ : " تخلَّل " فقال : ومِمَّ أتخلل ؟ ما أكلتُ لحماً قال : " إنك أكلت لحم أخيك " [١] .

فالإسلام يُقدِّس الحرمة الشخصية للأفراد ويصونها ويمنع من الخوض فيها إلا عند الحاجة والضرورة سواءً بذكر العيوب الموجودة في الشخص أو بالافتراء والكذب ، قال الحسن البصري : الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى : الغيبة والإفك والبهتان ، فأما الغيبة فهي أن تقول في أخيك ما هو فيه ، وأما الإفك أن تقول فيه ما بلغك عنه ، وأما البهتان فأن تقول ما ليس فيه . [٢]

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

الغيبة هي : أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواءً ذكرته بنقصٍ في بدنه كوصفه بالعمش أوالحول أوالقصر ، أو نسبه بأن تقول أبوه هندي وتقصد الإساءة اليه أو فاسق أو زبال أو نحو ذلك ، أو في خُلُقه كأن تقول هو بخيل متكبر جبان ، أو في فِعله المتعلق بالدين كقولك : هو سارق أو كذاب أو متهاون بالصلاة ، أو في فِعله المتعلق بالدنيا كقولك : إنه كثير الكلام ، كثير الأكل والنوم ، قليل الأدب ، أو في قوله أوفي دينه أو في دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته . [٣]

قال الراغب : هي أن يذكر الإنسان عيب غيره من غير حاجة إلى ذكر ذلك ، وقال ابن الأثير : الغيبة هي أن تذكر الإنسان في غيبته بسوء وإن كان

---

[١] المعجم الكبير للطبراني ١٠/١٠٢ رقم ١٠٠٩٢ وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٨/٩٤ وقال المنذرى وراوته رواة الصحيح الترغيب والترهيب ٣/٢٩٨ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/٦١٥٥ .

[٣] إحياء علوم الدين للغزالي ٣/١٣٥ ، ١٣٦ .

فيه [١] ، وقال النووي : الغيبة هي : ذكرك الإنسان بما فيه مما يكره سواءً كان في بدنه أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خَلْقه أو خُلُقه أو ماله أو ولده أو والـده أو زوجه أو خادمه أو مملوكه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته و حركتـه وبشاشـته وخلاعته وعبوسه وطلاقته أو غير ذلك مما يتعلق به سواءً ذكرت بلفظـك أو كتابك أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك حتى قال : وضابطه ذكره بما يكره . [٢]

وقد اختلف العلماء في الغيبة والنميمة هل هما متغايرتـان أو متحـدتان والراجح التغاير وأن بينهما عموماً وخصوصاً وجهياً ، فالنميمة : نقـل حـال الشخص لغيره على جهة الإفساد وبغير رضاه سواءً كان ذلك بعلمـه أم بغيـر علمه ، والغيبة ذكره في غيبته واختصت الغيبة بكونها في غيبه المقـول فيـه واشتركتا فيما عدا ذلك . [٣]

الفائدة الثانية :

الغيبة محرَّمة بإجماع المسلمين وقد تظاهرت الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة فقال تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [٥] .

---

[١] النهاية في غريب الحديث ٣٥٧/٣ .
[٢] الأذكار للنووي ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .
[٣] فتح الباري ٤٨٨/١٠ .
[٤] الحجرات : ١٢ .
[٥] الهمزة : ١ .

قال قتادة الهمزة واللمزة لسانه وعينه ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم [١]
وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء : الهمزة : الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل ، واللمزة : الذي يغتابه من خَلفِه إذا غاب . [٢]

أما السنة فالأحاديث التي جاءت في تحريم الغيبة والنهي عنها كثيرة ، فقد حذّر النبي ﷺ منها وبيّن ما يترتب عليها من الإثم والعقاب الشديد فقال ﷺ " لما عرج بي مررت بقومٍ لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم " . [٣]

وجعلها النبي ﷺ من أربا الربا ، فعن سعيد بن زيد عن النبي ﷺ قال : " إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق " . [٤]

وصوّر النبي ﷺ المغتاب بصورة آكل لحم أخيه كما صوره القرآن فقال ﷺ : " من أكل لحم أخيه في الدنيا قُرّب له يوم القيامة فيُقال له : كله ميّتاً كما أكلته حيّاً فيأكله ويكلح ويصيح " [٥].

وقال ابن مسعود : ما التقم أحدٌ لقمة شراً من اغتياب مؤمن [٦] .

---

[١] تفسير ابن كثير ٥٤٨/٤ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧٢٧١/١٠ .

[٣] أحمد في المسند ١٥٢/١١ رقم ١٣٢٧٣ ، أبو داود كتاب الأدب باب في الغيبة ٢٧١/٤ رقم ٤٤٧٨ ، وإسناده صحيح .

[٤] أحمد في المسند ٢٩٧/٢ رقم ١٦٥١ ، أبو داود كتاب الأدب باب في الغيبة ٢٧٠/٤ رقم ٤٨٧٦ وإسناده صحيح .

[٥] المعجم الأوسط للطبراني ١٨٢/٢ رقم ١٦٥٦ ، قال الهيثمي : فيه ابن إسحاق وهو مدلس ومن لم أعرفه مجمع الزوائد ٩٢/٨ ، وقال المنذري : فيه محمد بن إسحاق وبقية رواته ثقات الترغيب والترهيب ٢٩٩/٣ ، وقال ابن حجر : سنده حسن فتح الباري ٤٨٥/١٠ .

[٦] الأدب المفرد للبخاري ٢٥٥/١ رقم ٧٣٤ .

والصحيح فهم هذا الحديث على ظاهره وحقيقته ومما يؤكِّد ذلك أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له : إن فلانة وفلانة صائمتان وقـد بلغتـا الجهـد فقال : " ادعهما " فقال لإحداهما : " قيئي " فقاءت لحماً ودمـاً عبيطـاً وقيحـاً والأخرى مثل ذلك ، فقال رسول الله ﷺ " صامتا عما أحل الله وأفطرتا على ما حرم الله عليهما أتت إحداهما الأخرى فلم يزالا يأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما قيحاً " [١] ، فهذا شاهد لإجراء الآية والحديث على ظاهرهما . [٢]

ولما اعترف ماعز بالزنا ورجمه رسول الله ﷺ بعـد إقـراره متطوعـاً وإلحاحه على النبي ﷺ أن يطهره بإقامة الحد عليه ، سمع النبي ﷺ رجلاً يقـول لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجـم رجـم الكلب ؟ ثم سار النبي ﷺ حتى مرّ بجيفة حمار فقال : " أين فلان وفلان " انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، قالا : غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هـذا ؟ فقال رسول الله ﷺ : " فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها " . [٣]

ويترتب على أكل المغتاب لحم أخيه نتن رائحته ، فعن جابر قال : كنا مع النبي ﷺ فهاجت ريح منتنة فقال النبـي ﷺ : " هـذه ريـح الـذين يغتـابون المؤمنين " [٤] ، ومرّ النبي ﷺ على قبرٍ يُعذّب صاحبه فقال : " إن هذا كان يأكل

---

[١] أحمد في المسند ٦٦/١٧ رقم ٢٣٥٤٣ ، قال الهيثمي : إسناده ضعيف فيه راو لم يسـم مجمـع الزوائـد ١٧١/٣ .

[٢] دليل الفالحين ٣٦٠/٤ .

[٣] المنتقى لابن الجارود ص ٢٠٦ رقم ٨١٤ ، سنن الدارقطني ١٩٦/٣ رقم ٣٣٩ ، وقال ابن كثير : إسـناده صحيح ، تفسير القرآن العظيم ٢١٥/٤ .

[٤] أحمد في المسند ٥٤٠/١١ رقم ١٤٧٢٠ ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات مجمع الزوائد ٩١/٨ .

لحوم الناس " [١] ، ومرَّ على قبرين فقال : " إنهما يُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير" وقال " وما يعذبان إلا في البول والغيبة " [٢] .

وقد جمع العلماء بين هاتين الخصلتين والتعذيب عليهما في القبر فقالوا : إن البرزخ مقدمة للآخرة وأول ما يُقضى فيه يوم القيامة من حقوق الله : الصلاة ومن حقوق العباد : الدماء ، ومفتاح الصلاة : التطهر من الحدث ، ومفتاح الدماء : الغيبة والسعي بين الناس بالنميمة . [٣]

وقد حذَّر النبي ﷺ ضعاف الإيمان من الوقوع في الغيبة فقال : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته " [٤]

ووصَّى النبي ﷺ الأمة جميعاً في حجة الوداع بصيانة الدماء والأموال والأعراض فقال ﷺ : " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " [٥] .

والغيبة شرها عظيم وضررها كبير وتأثيرها واسع وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلاً فيما تحكيه أم المؤمنين عائشة قالت : قلت للنبي ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا – تعني أنها قصيرة – فقال لها رسول الله ﷺ : " لقد قلتِ كلمةً

---

[١] المعجم الأوسط للطبراني ٤٢/٣ رقم ٢٤١٣ ، وقال الهيثمي : فيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة وبقية رجاله ثقات مجمع الزوائد ٩٣/٨ ، وقال ابن حجر : رواته موثقون فتح الباري ٤٨٥/١٠ .

[٢] أحمد في المسند ١٩٦/١٥ رقم ٢٠٢٥٢ ، وابن ماجة كتاب الطهارة باب التشديد في البول ١٢٥/١ رقم ٣٤٩ وإسناده صحيح .

[٣] فتح الباري ٤٨٧/١٠ .

[٤] أحمد في المسند ٦٢٦/١٧ رقم ٢٥٤٣٦ ، وأبو داود كتاب الأدب باب في الغيبة ٢٧١/٤ رقم ٤٨٨٠ وإسناده صحيح .

[٥] سبق تخريجه .

لو مزجت بماء البحر لمزجته " [١] ، وقال الإمام النووي : هذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها وما أعلم شيئاً من الأحاديث يبلغ في الذم لها هذا المبلغ . [٢]

وكما حرم الإسلام الغيبة بالقول فقد حرمها بالإشارة والتعريض والكتابة والرمز والتقليد طالما قصدها التجريح والإساءة ، فعن عائشة قالت : حكيت للنبي إنساناً – أي قلَّدته – فقال رسول الله ﷺ : " ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا " [٣] .

وقد أدرك السلف الصالح خطورة الغيبة فضربوا أروع الأمثلة في الامتناع عنها كما أكثروا التحذير منها .

قال عمر بن الخطاب : إياكم وذكر الناس فإنه داء وعليكم بذكر الله فإنه شفاء .

وقال أبو هريرة : يبصر أحدكم القذة في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه .

وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك ، فاذكر عيوب نفسك .

وقال أبو عاصم النبيل : ما اغتبت أحداً منذ عرفت ما في الغيبة .

---

[١] أحمد في المسند ٦٢٦/١٧ رقم ٢٥٤٣٦ ، وابو داود كتاب الأدب باب في الغيبة ٢٧٠/٤ رقم ٤٨٧٥ ، الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٢٢٥/٤ رقم ٢٥١٠ .

[٢] الأذكار للنووي ص ٣٩٦ .

[٣] جزء من الحديث السابق .

وسمع علي بن الحسين رجلاً يغتاب آخر فقال له : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب النار ، وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك فقال : إياه فارحموا ، وقال رجل للحسن البصري : بلغني أنك تغتابني فقال : لم يبلغ قدرك عندي أن أُحكِّمك في حسناتي ، ولذلك قال عبد الله بن المبارك : لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت والديَّ لأنهما أحق بحسناتي .

وقيل للحسن إن فلاناً اغتابك فأهدى إليه طبقاً من رطب ، فأتاه الرجل فقال له : اغتبتك فأهديت إليّ فقال له الحسن : أهديت إليَّ حسناتك فأردت أن أكافئك ، وقال الحسن : والله للغيبة أسرع فساداً في دين المرء من الأكلة في الجسد ، وقيل للربيع بن خُثَيم : ما نراك تعيب أحداً فقال : لست عن نفسي راضياً فأتفرغ لذم الناس ثم أنشد .

لنفسي أبكي لست لغيرها ** لنفسي عن نفسي من الناس شاغل

وكان الصحابة لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس [١] ، وبمثل هذا الأدب العالي والخلق الرفيع تطهَّر المجتمع الإسلامي وارتفع وانتهى إلى ما صار إليه حلماً يمشي على الأرض ، ومثالاً يتحقق في واقع التاريخ . [٢]

الفائدة الثالثة :

أجمع المسلمون على تحريم الغيبة ولكنهم اختلفوا في عدّها من الصغائر أم من الكبائر فذهب بعض العلماء إلى اعتبارها صغيرة ، وذهب جمهور العلماء

---

[١] راجع : إحياء علوم الدين للغزالي ٢١٣٥/٣ ، الزواجر عن اقتراف الكبائر للحافظ الهيثمي ١٨/٢ .

[٢] في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٣٣٤٧/٦ .

إلى عدِّها كبيرة حتى نقل الإمام أبو عبد الله القرطبي المفسر الإجماع على أنها من الكبائر [(١)] .

واستدلوا بالأحاديث الكثيرة الواردة في ذم الغيبة وتوعُّد فاعلها بالعذاب الأليم وقالوا : الكبيرة ما قُرن بها وعيدٌ شديد وقد وُعِد المغتاب بالعذاب الشديد .

قال الأذرعي : إطلاق القول بأنها من الصغائر ضعيف أو باطل ومن تتبع الأحاديث علم أنها من الكبائر . [(٢)]

وقال ابن حجر الهيثمي : الذي دلت عليه الدلائل الكثيرة الصحيحة الظاهرة أنها كبيرة لكنها تختلف عِظماً وضده بحسب إختلاف مفسدتها ، وظهر أيضاً أنها الداء العضال والسم الذي في الألسن أحلى من الزلال ، ويقال : للغيبة حلاوة كحلاوة التمر وضراوة كضراوة الخمر ، وقد جعلها من أوتي جوامع الكلم عديلة غصب المال وقتل النفس بقوله " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " .

والغصب والقتل كبيرتان إجماعاً فكذا ثلم العرض [(٣)] قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [(٤)] ، وفي الحديث " الغيبة أشد من الزنا " . [(٥)]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير القرطبي ٩/٦١٥٧ .

(٢) الزواجر ٢/١٩ .

(٣) الزواخر ٢/٢٢ .

(٤) الأحزاب : ٥٨ .

(٥) الطبراني في المعجم الأوسط ٦/٣٤٨ رقم ٦٥٩٠ ، وقال الهيثمي : فيه عباد بن كثير الثقفي وهو متروك مجمع الزوائد ٨/٩١ ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على سفيان الثوري ٥/٣٠٥ وفي =

وذهب البعض إلى أن الإسلام حرَّم جميع صورها ولكنها تختلف اختلافـاً كبيراً بحسب خفتها وثقلها وإيذاءها ، فإذا كانت الغيبة في حق العلماء والأولياء أو في عيب الدين كأن يقول إنه فاسق أو فاجر صارت كبيرة ، وإن كانت دون ذلك كعيب الجسم أو الدابة ونحو ذلك فهي من الصغائر لخفة التأذِّي بالوصـف بها فوصفها بأنها كبيرة أو صغيرة يرتبط بالأذى الذي تُلحقه بالآخرين فإن عظُم فهي كبيرة وإن خفّ فهي صغيرة .

الفائدة الرابعة :

الأصل في الغيبة الحرمة ولكنها قد تكون واجبة وقد تكـون مندوبـة أو مباحة لغرضٍ شرعي صحيح لا يُتوصل إليه إلا بها وتنحصر في ستة أبواب :

الأول : عند التظلُّم فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهمـا ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه فيقول له : ظلمني فـلان أو فعل بي كذا ، فقد رخَّص الله له في التظلم والشكوى قـال تعـالى : ﴿ لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ . [1]

الثاني : الاستفتاء بأن يقول للمفتي ظلمني أبي أو أخي أو فلان وفعل بي كـذا فماذا أفعل ، وما طريقي إلى الخلاص منه ، وكيف أدفع ظلمه عنـه ؟ ونحو ذلك فهذا جائز للحاجة وإن كان الأحوط أن يقول : ما الحكم فـي رجل ظلمه أخوه وفعل به كذا ، وإن كان التعيين جائزاً لأن المفتي قـد يدرك من تعيينه معنى لا يدركه مع إبهامه ، فكان في التعيين مصلحة ، واستدلوا بحديث هند بنت عتبة حيث قالت للنبي ﷺ : إن أبا سفيان رجل

طرقه جميعاً زيادة قيل : كيف يا رسول الله ؟ فقال : الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليـه وإن صـاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه .

[1] النساء : ١٤٨ .

شحيح وليس يُعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم قال : " خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف " . (١)

الثالث : عند تحذير المسلمين ونصيحتهم ولذلك صور متعددة منها :-

(أ) إذا رأيتَ من يشتري شيئاً معيباً وهو يجهله فلا بأس من ذكره للمشتري نصيحةً لا بقصد الإيذاء والإفساد .

(ب) إعلام من له ولاية عامة بسيرة من هو تحت يده إذا كان فاسقاً ظالماً أو كان لا يقوم بولايته على وجهها الصحيح لعدم أهليته فيلزمه الإصلاح والعدل .

(ج) عند الاستشارة في نكاح أو عقد من العقود فيجب على من استُشير في ذلك وهو يعلم في المُستشار فيه عيباً قبيحاً منفِّراً كالفسق والبدعة أن يذكره مع الاقتصار على أقل الكلمات كقوله : لا يصلح لك ثم إن استلزم الأمر ذكر العيب ذكره دون زيادة ، لأن ذلك كإباحة الميتة للمضطر فلا يجوز تناول شيء منها إلا بقدر الضرورة وأن يقصد بذلك النصيحة لوجه الله تعالى ، ومما يؤكِّد ذلك ما حكته فاطمة بنت قيس قالت : أتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله إن أبا جهم ومعاوية خطباني فقال رسول الله ﷺ : " أما معاوية فصعلوك لا مالَ له وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه " (٢) ، وفي رواية " وأما أبو

---

(١) البخاري كتاب النفقات باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٤١٨/٩ رقم ٥٣٦٤ ، مسلم كتاب الأقضية باب قضية هند ١٣٣٨/٣ رقم ١٧١٤ .

(٢) مسلم كتاب الطلاق باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها ١١١٤/٢ رقم ١٤٨٠ .

الجهم فضرّاب للنساء " [١] فهنا تعارضت النصيحة مع صيانة العرض فقُدِّمت النصيحة لأهميتها .

(د) عند جرح رواة الحديث والشهود والمصنفين وذلك جائز بالإجماع ، قال النووي : بل واجب صوناً للشريعة [٢] ، وقال القرطبي : هذه أمورٌ ضرورية في الدين معمول بها مجمعٌ من السلف الصالح عليها . [٣]

(ه) إذا رأى متفقهاً يتردد على مبتدع أو فاسق وخاف عليه أن يتأثَّر به ويقتدي به فلا بأس من تحذيره منه ببيان حاله قصداً للنصيحة .

الرابع : عند الاستعانة على تغيير المنكر فيقول لمن يرجو قدرته على إزالته : فلان يعمل كذا فازجره عنه بقصد التوصل إلى إزالة المنكر .

الخامس : عند المجاهرة بالفسق والظلم والبدعة وإعلان المعصية والتبجُّح بها كمن يشرب الخمر ويظلم الضعفاء ونحو ذلك فيجوز ذكر هؤلاء بما يجهرون به دون غيره فيحرم ذكرهم بعيب آخر إلا عند الحاجة والضرورة لقول النبي ﷺ : " ليُّ الواجد يحل عرضه وعقوبته " [٤] ، وقال الحسن ثلاثة ليس لهم حرمة : صاحب الهوى والفاسق المعلن والإمام الجائر ، وقال أيضاً : ليس لأهل البدع غيبة .

---

[١] مسلم كتاب الطلاق باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها ١١١٩/٢ رقم .

[٢] شرح صحيح مسلم للنووي ١٤٢/١٦ .

[٣] المفهم ٥٧١/٦ .

[٤] أحمد في المسند ٤٨٥/١٤ رقم ١٩٣٥٥ ، أبو داود كتاب الأقضية باب الحبس في الدين وغيره ٣١٢/٣ رقم ٣٦٢٨ وإسناده صحيح .

السادس : إذا كان الشخص معروفاً بلقبه مشهوراً به وليس فيه إطراء ومدح مما نهى عنه الشرع ويُعجب الملقب به فهو جائز أو مستحب .

وإن كان لا يعجبه ويكره أن يعرف به فهو حرام أو مكروه قال تعالى ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ (١) ولا يجوز إلا إذا كان الشخص لا يُعرف ولا يتميز عن غيره إلا به وبحيث لا يُراد عند إطلاقه عليه تنقيصه وذمه بل تعيينه والتعريف به .

ولذلك أكثر الرواة من نحو الأعمش والأعرج ونحوهما ، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: " أكما يقول ذو اليدين ؟ " (٢) لأنه كان معروفاً بذلك مشهوراً به ، وهذا مذهب جمهور العلماء ولذلك ترجم البخاري في صحيحه باب : ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم : الطويل والفقير ، وقال النبي ﷺ ما يقول ذو اليدين ، وما لا يُراد به شين الرجل . (٣)

قال ابن المنير : اشار البخاري إلى أن ذكر مثل هذا إن كان للبيان والتمييز فهو جائز وإن كان للتنقيص لم يجز (٤) ، ولذلك لمَّا دخلت امرأةٌ على السيدة عائشة فأشارت بيدها أنها قصيرة قال لها النبيﷺ : " اغتبتيها " (٥) وذلك لأنها لم تفعل هذا بياناً وإنما قصدت الإخبار عن صفتها فكان كالاغتياب . (٦)

---

(١) الحجرات : ١١ .

(٢) البخاري كتاب الصلاة باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ٦٧٤/١ رقم ٤٨٢ .

(٣) البخاري كتاب الأدب ٤٨٣/١٠ .

(٤) فتح الباري ٤٨٤/١٠ .

(٥) أحمد في المسند ٣٥/١٨ رقم ٢٥٥٨٤ وإسناده صحيح .

(٦) فتح الباري ٤٨٤/١٠ .

ولذلك قال معاوية بن قرة : لو مرّ بك رجلٌ أقطع فقلت :هذا أقطع كـان غيبة ، وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعى فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور . وذكر ابن سيرين رجلاً فقال : ذا الرجل الأسود ثم قال : أستغفر الله إني أراني قد اغتبته . (١)

وهذه الأمور الستة منها الواجب والمندوب والمباح وإنما أُبيحت إذا لم يُغن غيرها فإذا أغنى التعريض أو التلويح حرم التنصيص والتصريح لأن ذلك أمـرٌ ضروري والضروري يقدَّر بقدر الحاجة . (٢)

والضابط العام لإباحة هذه الصور هي : الحاجة الماسة إلى ذكر الغائـب بما يكره ، والنية فيريد النصح والإخبار لا التجريح والتشفي . (٣)

الفائدة الخامسة :

إذا أراد المغتاب التوبة فطريق التوبة هو الإقلاع عنها والندم عليها والعزم على عدم العودة إليها وهذا متفقٌ عليه بين العلماء ، ثم اختلفوا هل يُشـترط أن يستحل من اغتابه أم لا على ثلاثة مذاهب :

الأول : ليس عليه استحلاله ، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه وأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه فليس ذلك بمظلمة يسـتحلها منـه ، وإنما المظلمة ما يكون منه البدل والعوض في المال والبدن وهذا خطـأ لأن الغيبة مظلمة إن لم يأخذها في الدنيا أخذها حسـنات يـوم القيامـة ولذلك أوجب الإسلام حد القذف وهو في العرض فثبت أن ذم العـرض مظلمة .

---

(١) إحياء علوم الدين ١٣٦/٣ .

(٢) المفهم٥/٧١ .

(٣) الأذكار للنووى ص ٤٠٠-٤٠٢ .

الثاني : الغيبة مظلمة وكفارتها : الاستغفار لصاحبها الذي اغتابه والدعاء لــه ، واستدلوا بحديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قــال : " كفــارة مــن اغتبته أن تستغفر له " [(١)] ، وقال الحسن : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته [(٢)] ، وقال مجاهد : كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتــدعو له بخير . [(٣)] .

وهذا تناقضٌ إذ عدّها مظلمة يثبت حقها للمظلوم فإذا ثبتت الظلامة لم يُزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له والحديث ضعيف لا تثبت بــه حجة ، وقول الحسن ومجاهد لا تثبت به حجــة خاصــةً إذا عارضــه الحديث الصحيح .

الثالث : الغيبة مظلمة وكفارتها الاستحلال منها واستدلوا بحديث النبي ﷺ قال : " من كانت له مظلمة من أخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليــوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقــدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه " . [(٤)]

وسُئل عطاء عن كفارة الغيبة فقال : أن تمشي إلى صاحبك فتقول لــه : كذبتُ فيما قلت وظلمتك وأسأت فإن شئتَ أخذت بحقــك وإن شــئت عفــوت ، قال الغزالي : وهذا هو الأصح [(٥)] ، وقال القرطبي : دلت الآثــار علــى أنهــا

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان ٣١٧/٥ وإسناده ضعيف ، راجع : كشف الخفاء للعجلوني ١٠٢/٢ رقم ١٩٣٠

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦١٥٧/٩ .

(٣) إحياء علوم الدين ١٤٥/٣ .

(٤) البخاري كتاب المظالم والغصب باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يُبَــيِّن مظلمتــه ١٢١/٥ رقم ٢٤٤٩ .

(٥) إحياء علوم الدين : ١٤٥/٣ .

مظلمة يجب على المغتاب استحلالها [١] ، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لامرأةٍ قالت لأخرى : إنها طويلة الذيل فقالت لها : قد اغتبتيها فاستحليها [٢] .

فلابد من الاستحلال إن قدر عليه فإن كان غائباً أو ميتا او ظن أن إخباره سيترتب عليه ضرر أو أذىً فينبغي أن يُكثر الاستغفار والدعاء له ويكثر من الحسنات والله قادر أن يرضيه عنه يوم القيامة ويعفو عنه .

والظاهر أن الله تعالى حرم الغيبة لأنها إيذاءٌ للمؤمنين وإلحاق الأذى بالمؤمنين حرام ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [٣] فإذا أُخبر الشخص بما قيل في حقه فالاستحلال واجب حينئذ ، وإذا لم يعلم فلا يشترط الاستحلال لأنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذّى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريق التوبة حينئذ أن يُثني عليه بما فيه خاصة في المجالس التي كان يذُمُّه ويغتابه فيها وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته لتكون تلك بتلك . [٤]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦١٥٨/٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦١٥٨/٩ .

(٣) الأحزاب : ٥٨ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢١٦/٤ .

الدروس المستفادة من الحديث :

١- وجوب صيانة أعرض المسلمين وحرمة الخوض فيها .

٢- المفهوم الشرعي للغيبة أنها ذكرك أخاك في غيبته بأمرٍ يكرهه لو بلغه حتى وإن كان فيه وكنت صادقاً .

٣- تحريم إيذاء المؤمن بأي صورةٍ كان الإيذاء .

٤- تحريم الغيبة وأنها قد تصل إلى كبائر الذنوب .

٥- لا تجوز الغيبة إلا لغرضٍ شرعي صحيح ، وقد تكون واجبة أو مندوبة أو مباحة بشرط الحاجة إليها ووجود نية النصح .

٦- وجوب التوبة على المغتاب واستبدال مجالس المعصية بمجالس الطاعة .

النميمة من الكبائر

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : (لا يدخل الجنة نمّام) .

تخريج الحديث :

أخرج هذا الحديث :

(أ) البخاري كتاب الأدب باب ما يُكره من النميمة بلفظ : لا يدخل الجنة قتات ٨٤٧/١٠ رقم ٦٠٥٦ .

(ب) مسلم كتاب الإيمان باب بيان غلظ تحريم النميمة ١٠١/١ رقم ١٠٥ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان العبسي أبو عبد الله اليمان حليف الأنصار من أعيان المهاجرين ، أصاب أبوه اليمان واسمه حِسْل دماً في قومه فهرب إلى المدينة وحالف بني الأشهل فسماه قومه اليمان لأنه حالف اليمانية وهم الأنصار أسلم قديماً وآخى النبي ﷺ بينه وبين عمار بن ياسر .

لم يشهد بدراً وقد حكى سبب ذلك فقال : ما منعني أن أشهد بدراً إلا أنني خرجت أنا وأبي فأخَذَنا كفار قريش فقالوا : إنكم تريدون محمداً فقلنا : ما نريد إلا المدينة فأخذوا العهد علينا لننصرفنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معه فأخبرنا النبي ﷺ فقال : " نفي بعدهم ونستعين الله عليهم " . (١)

---

(١) مسلم كتاب الجهاد والسير باب الوفاء بالعهد ١٤١٤/٣ رقم ١٧٨٧ .

ثم شهد مع أبيه أحداً فاستشهد أبوه يومئذ قتله بعض الصحابة غلطاً ولـم يعرفه لأن الجيش يختفون في لأمة الحرب ويسترون وجوههم فإن لم تكن لهـم علامة بينة وإلا ربما قتل الأخ أخاه وهو لا يشعر ولما شدوا على اليمان يومئذ بقي حذيفة يصيح : أبي أبي يا قوم فقتلوه خطأً فقال حذيفة : يغفر الله لكم فأراد رسول الله ﷺ أن يدفع إلى حذيفة ديته فقال حذيفة بل أتصدق بها على المسلمين فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً ، قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقيت خير حتى لحق بالله عز وجل . (١)

أسرَّ إليه النبي ﷺ أسماء المنافقين وضبط عنه الفتن الكائنة في الأمة حتى قيام الساعة ، قال حذيفة : إني لأعلم الناس بكل فتنةٍ هي كائنة فيما بيني وبـين الساعة . (٢)

ولذلك أطلقوا عليه صاحب سر رسول الله ﷺ لأنه أخبره بأسماء المنافقين ولذلك قال أبو الدرداء لعلقمة : أليس فـيكم صـاحب السـر الـذي لا يعلمـه غيره ؟ (٣) – يعني حذيفة – ، وقد ناشده عمر : أأنا من المنافقين ؟ فقـال : لا ولا أزكي أحداً بعدك . (٤)

وكان يقول : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني (٥) ، حتى قال : تعلَّم أصحابي الخير وتعلَّمت الشـر (٦)

---

(١) – البخـاري كتـاب المغـازي بـاب ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ آل عمران : ١٢٢ ج ٤١٨/٧ رقم ٤٠٦٥ .

(٢) مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة باب إخبار النبيﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة ٢٢١٦/٤ رقم ٢٨٩١ .

(٣) البخاري كتاب المناقب باب مناقب عمار وحذيفة رضي الله عنهما ١١٣/٧ رقم ٣٧٤٢ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٣٦٤/٢ .

(٥) البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ٧١٢/٦ رقم ٣٦٠٦ ، مسلم كتـاب الإمـارة بـاب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعـة ومفارقـة الجماعة ١٤٧٥/٣ رقم ١٨٤٧ .

(٦) البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ٧١٢/٦ رقم ٣٦٠٧ .

ولما سُئل عنه علي بن أبي طالب قال : علم المنافقين ، وسأل عن المعضـــلات فإن تسألوه تجدوه بها عالماً . [١]

ندبه النبي ﷺ ليلة الأحزاب ليأتيه بخبر المشركين فقام بذلك على خير وجه ومناقبه وفضائله كثيرة .

ولاه عمر إمرة المدائن فلما وصل إليها قالوا له : سل ما شـــئت فقـــال : طعاماً آكله وعلفاً لحماري هذا ما دمت فيكم فأقام فيهم ما شاء الله ثم كتب إليـــه عمر : أقدم فلما بلغ عمر قدومه كمن له على الطريق فلما رآه على الحال التي خرج عليها أتاه فالتزمه وقال : أنت أخي وأنا أخوك [٢] ، وظلَّ أميـــراً عليهـــا حتى قُتل عثمان .

روى عن النبي ﷺ وعن عمر وتبلغ جملة أحاديثه في الصحيحين ســـبعة وثلاثون حديثاً اتفقا منها على اثنتى عشرة حديثاً وانفرد البخاري برواية ثمانيـــة ومسلم برواية سبعة عشر حديثاً .

وروى عنه من الصحابة : جابر بن عبد الله وجندب بن عبـــد الله وأبـــو الطفيل وغيرهم ، ومن التابعين : زر بن حبيش وربعي بن خراش وزيـــد بـــن وهب وأبو وائل وأبو إدريس الخولاني وهمام بن الحارث وخلق كثير سواهم .

لما أصابه مرض الموت قال عند السحر : أعوذ بالله من صباحٍ إلى النار ثلاثاً ، ثم قال : اشتروا لي ثوبين أبيضين فإنهما لن يُتركا عليّ إلا قليلاً حتـــى أبدل بهما خيراً منهما أو أسلبهما سلباً قبيحاً . [٣]

---

[١] الأحاديث المختارة للضياء المقدسي ١٢٣/٢ رقم ٢٤٩٤ ، المعجم الكبير للطبرانـــي ٢١٣/٦ رقـــم ٦٠٤١ قال الهيثمي : فيه راوٍ مختلف فيه وبقية رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ١٥٨/٩ .

[٢] سير أعلام النبلاء ٣٦٦/٢ .

[٣] سير الأعلام ٣٦٨/٢ .

فلما حضره الموت قال : حبيبٌ جاء على فاقة لا أفلح من ندم أليس بعدي ما أعلم الحمد لله الذي سبق بي الفتنة قادتها وعلوجها . [١]

مات حذيفة بالمدائن سنة ستٍ وثلاثين فرضي الله عنه وأرضاه .

معاني المفردات

الجنة : هي دار النعيم في الدار الآخرة التي أعدَّها الله تعالى للطائعين وهي مشتقة من الاجتنان وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها وسميت بالجنة وهي المرة الواحدة من مصدر جَنّه جناً إذا ستره فكأنها سترة واحدة لشدة التفافها وإظلالها .

نمَّام : صيغة مبالغة من النميمة وهي : نقل الكلام من قومٍ إلى قوم على جهة الإفساد والشر ، والاسم : النميمة ، والفاعل : نمام وأتى فيه بصيغة المبالغة لتعظيم الوعيد وإلا فأصل النمّ منهي عنه وهو من الكبائر .

المعنى الإجمالي للحديث

الجنة هي الدار التي أعدها الله لعباده المسلمين ، وأعدّ لهم فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهي دار السلام وجنة الخلد والنعيم لهم فيها الحسنى وزيادة ، طاهرة التربة عذبة الماء شهية الثمرة فلا يسكنها إلا الطاهرون الذين خلصت نياتهم واستقامت أخلاقهم ، وعرفوا الحق فاتبعوه والباطل فاجتنبوه ، اتقوا ربهم فلم يرجوا غيره ، ولم يخافوا سواه ، أعدها الله لهم جزاءً وفاقاً .

أما من تلوَّثت ضمائرهم وفسدت أخلاقهم وسعوا في الأرض فساداً فلم يعرفوا لله حقاً ولا لعباده حرمة فأعد الله لهم ناراً وقودها الناس والحجارة لأنهم

---

[١] مصنف ابن أبي شيبة ٧/٤٥٨ رقم ٣٧٢٠٣ ، حلية الأولياء ١/٢٨٢ .

عملوا بأعمالها وتخلَّقوا بأخلاق ساكنيها فكانوا من أهلها ، وفي الحديث : " النميمة والشتيمة والحمية في النار ولا يجتمعن في صدر مؤمن " [١] ، وفي رواية " إن النميمة والحقد في النار ولا يجتمعان في قلب مسلم " .[٢]

والنبي ﷺ يخبرنا في هذا الحديث أن الله حرَّم الجنة على من يسعون في الأرض فساداً ويُفسدون بين الأحبَّة ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل جزاءً وفاقاً وما ربك بظلامٍ للعبيد ، والله عز وجل يبغضهم ويكره جوارهم ورسول الله ﷺ يتنكَّر منهم ويرفض أن ينسبوا إليه ، وفي الحديث : " أحبكم إليَّ أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذي يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة المفرِّقون بين الإخوان الملتمسون لهم العثرات " . [٣]

فمدار دخول الجنة صلاح القلب واستقامة الجوارح ، ومدار دخول النار فساد القلب وانحراف الجوارح حتى وإن كانت الصورة الظاهرة تدل على الخير والصلاح ، فليس الإسلام صلاةً وصياماً وحركات جوارح فقط إنما الإسلام طهارة قلب وخلق فاضل ومعاملة حسنة وحب للخير وسعي لتحقيقه وكراهة للشر وقطع الصلات وفساد ذات البين ثم عبادات ظاهرة تُعبِّر عن نور القلب وفقه العقل ، وفي الحديث : " ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ " قالوا : بلى قال : " إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي

---

[١] الطبراني في المعجم الكبير ١٢/٤٤٥ رقم ١٣٦١٥ ، قال الهيثمي فيه راويان ضعيفان وقد وثقا مجمع الزوائد ٨/٩١ .

[٢] المعجم الأوسط للطبراني ٥/٥٤ رقم ٤٦٥٣ ، قال الهيثمي : فيه راوٍ أجمعوا على ضعفه مجمع الزوائد ١/١٠٢ .

[٣] تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١/٣٨٢ رقم ٣٥٠ .

الحالقة لا أقول تحلق الشعر بل تحلق الدين " [١] .

وقد حرص الإسلام على ترابط أفراد المجتمع وحذر من الخصام والهجر والقطيعة حتى أباح للمصلح في سبيل إصلاح ذات البين أن يخفي ما يسمع ويعلم من كلام سيء قاله أحدهما في الآخر بل أجاز له أن يزيد من عنده كلاماً طيباً لم يسمعه من أحدهما في شأن الآخر ، وفي الحديث : " ليس الكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً " . [٢]

ويغضب الإسلام أشد الغضب على أولئك الذين يسمعون كلمة السوء ثم يبادرون بنقلها تزلُّفاً أو كيداً أو حباً في الهدم والإفساد فهم شرار الخلق .

إن يسمعوا الخير أخفوه وإن سمعوا ** شراً أذاعوه وإن لم يسمعوا كذبوا

وقد ذمَّهم الله وتوعَّدهم بالعذاب الشديد فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [٣] .

وقال الشاعر واصفاً إياهم :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ** مني وما سمعوا من صالح دفنوه

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ** وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا [٤]

---

[١] أحمد في المسند ٥٧١/١٨ رقم ٢٧٣٨١ ، أبو داود كتاب الأدب باب في إصلاح ذات البين ٢٨٢/٤ رقم ٤٩١٩ ، الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٢٢٨/٤ ، وقال : هذا حديث صحيح .

[٢] البخاري كتاب الصلح باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس ٣٥٣/٥ رقم ٢٦٩٢ ، مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الكذب وبيان المباح منه ٢٠١١/٤ رقم ٢٦٠٥ .

[٣] النور : ١٩ .

[٤] هذا الشعر لقعنب بن أم صاحب راجع : لسان العرب ١٠٥/١ .

سبب ورود الحديث

ورد عن البخاري وغيره أن سبب ورود هذا الحديث من حذيفة رضي الله عنه أنه كان جالساً مع أصحابه فمرَّ بهم رجل فقالوا له : إن هذا الرجل يرفع الحديث إلى عثمان بن عفان وهو أمير المؤمنين فقال ورفع صوته حتى يسمع : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لا يدخل الجنة قتات " (١) .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

تطلق النميمة في الأغلب على نقل كلام الغير إلى المقول فيه على وجه الإفساد كأن تقول : فلان يقول عنك كذا وكذا .

والصحيح أن النميمة لا تختص بهذه الصورة فالنميمة هي : كشف ما يُكره كشفه سواءً كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث وسواءً كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء وسواءً كان المنقول قولاً أو عملاً وسواءً كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن .

فحقيقة النميمة : إفشاء السر وكشف الستر عما يكره كشفه فلو رأى إنساناً يخفي مالاً لنفسه فحكاه لغيره فهي نميمة .

فإن كان ما ينم به نقصاً أو عيباً في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة (٢) ، قال النووي : هذا المذكور في النميمة إذا لم يكن فيها مصلحة شرعية فإن دعت حاجة إليها فلا منع منها ، وذلك كما إذا أخبره بأن إنساناً يريد الفتك به أوبأهله أو بماله أو أخبر الإمام أو من له ولاية بأن إنساناً يفعل كذا

---

(١) البخاري كتاب الأدب باب ما يكره من النميمة ١٠/٨٤٧ رقم ٦٠٦٥ .

(٢) إحياء علوم الدين ٣/١٤٧ .

ويسعى فيما فيه مفسدة ويجب على صاحب الولاية الكشف عن ذلك وإزالته فكل هذا وما أشبهه ليس بحرام وقد يكون بعضه واجباً وبعضه مستحباً على حسب المواطن والله أعلم . [١]

وفي الحديث : " المجالس بالأمانة إلا ثلاثة : مجلس سفك دم حرام أو فرج حرام أو اقتطاع مال بغير حق " [٢] .

وتعظم النميمة بقدر ما يترتب عليها من المضار والمفاسد حتى تصير كبيرة ، قال الهيثمي : عدُّ النميمة من الكبائر هو ما اتفقوا عليه [٣] ، وقال الحافظ المنذري : أجمعت الأئمة على تحريم النميمة وأنَّها من أعظم الذنوب عند الله عز وجل . [٤]

وقال القرطبي : النميمة من الكبائر لا خلاف في ذلك حتى قال الفضيل بن عياض : ثلاث تهدّ العمل الصالح ويفطرن الصائم وينقضن الوضوء : الغيبة والنميمة والكذب [٥] .

والباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له أو التلذذ بالحديث عن الآخرين والخوض في الفضول والباطل .

وقد ورد عند البخاري هذا الحديث بلفظ " لا يدخل الجنة قتَّات " والقتات هو : النمَّام وزناً ومعنى ، وقيل الفرق بين النمام والقتَّات أن النمام هو : الذي

---

(١) شرح صحيح مسلم ١١٣/٢ .

(٢) أحمد في المسند ٥١٥/١١ رقم ١٤٦٢٨ ، أبو داود كتاب الأدب باب في نقل الحديث ٢٦٩/٤ رقم ٤٨٦٩.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر ٣٧/٢ .

(٤) الترغيب والترهيب ٢٩٥/٣ .

(٥) تفسير القرطبي ٧٣٢٩/١٠ ، ٧٣٣٠ .

يحضر القصة ويسمع الكلام ثم ينقله ، والقتَّات هو : الذي يتسمَّع من حيث لا يُعلم به ثم ينقل ما سمعه .

الفائدة الثانية :

وردت في ذمِّ النميمة والتحذير منها نصوص كثيرة تدل على كونها من أكبر الذنوب كما تدل على خطورتها ومدى إضرارها بالبراءاء وإفسادها للمجتمعات وهي من أقبح المعاصي وأكثرها انتشاراً بين الناس حتى ما يسلم منها إلا القليل من الناس وهي محرَّمة بإجماع المسلمين وقد تظاهرت على تحريمها الدلائل الصريحة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

فمن الآيات القرآنية : قوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝ ﴾ [١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ﴾ [٢] . قال ابن عباس : هم المشَّاءون بالنميمة المُفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب [٣] ، وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [٤] فليس المقصود بالخيانة هنا : وقوع الفاحشة منهم فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء [٥] ، قال ابن عباس : ما زنتا أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدلُّ قومها على

---

[١] القلم : ١٠ ، ١١ .

[٢] الهمزة : ١ .

[٣] تفسير القرطبي ٧٢٧١/١٠ .

[٤] التحريم : ١٠ .

[٥] تفسير ابن كثير ٣٩٣/٤ .

أضيافه [١] يعني أنهما كانتا تمشيان بالنميمة ، قال الضحاك : خيانتهما النميمة إذا أوحى الله إليهما شيئاً أفشتاه إلى المشركين .[٢]

وقال تعالى عن أم جميل زوجة أبي لهب : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝ ﴾ [٣] ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : كانت تمشي بالنميمة بين الناس .[٤]

وأما الأحاديث الواردة في ذم النميمة فكثيرة منها :

ما جاء عن ابن عباس قال : خرج رسول الله ﷺ من بعض حيطان المدينة فسمع صوت إنسانين يعذَّبان في قبورهما فقال : " يُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير وإنه لكبير كان أحدهما لا يستتر من البول والآخر يمشي بالنميمة " .[٥]

ومعنى قوله : وما يعذبان في كبير أي ليس كبيراً في اعتقادكم كما قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [٦] أو ليس كبيراً تركه والاحتراز منه أو المراد أنه أكبر الكبائر ويدل على ذلك قول النبي ﷺ : " وإنه لكبير " ، وعن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال : " ألا أخبركم بخياركم؟ " قالوا : بلى يا رسول الله قال : " الذين إذا رُءوا ذُكر الله عز وجل " ثم قال : " ألا أخبركم بشراركم ؟ المشَّاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء

---

[١] تفسير ابن كثير ٣٩٣/٤ .

[٢] تفسير القرطبي ٦٦٨١/١٠ .

[٣] المسد : ٤،٥ .

[٤] جامع البيان لابن جرير الطبري ٣٣٩/٣٠ .

[٥] البخاري كتاب الأدب باب النميمة من الكبائر ٤٨٧/١٠ رقم ٦٠٥٥ ، مسلم كتاب الطهارة باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ٢٤٠/١ رقم ٢٩٢ .

[٦] النور : ١٥ .

العنت " (١) ، وفي رواية : " شرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبرآء العنت " .(٢)

وقد ذكر الرسول ﷺ في حديث الباب أن النمام لا يدخل الجنة ومعنى عدم دخوله الجنة : أنه لا يدخلها أبداً إذا استحلَّها بغير تأويل فهذا كافر لا يدخلها أصلاً وإذا لم يستحلها فجزاؤه ألا يدخلها وقت دخول الفائزين إذا فُتحت أبوابها لهم بل يُؤخَّر ثم قد يُجازى وقد يعفوا الله عنه فيدخلها أولاً وسبب هذا التأويل أن أهل السنة اتفقوا على أن من مات على التوحيد مصراً على الكبائر فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه فأدخله الجنة أولاً وإن شاء عاقبه بذنبه ثم أدخله الجنة . (٣)

والنميمة تُفسد المجتمع وتقطع أواصر المحبة ، قال أكثم بن صيفي : إيَّاكم والنميمة فإنها نارٌ محرِقة وإن النمَّام ليعمل في ساعة ما لا يعمله الساحر في شهر .(٤)

وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سُقوا فأوحى الله تعالى إليه : إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمَّام قد أصر على النميمة ، فقال موسى : يا رب من هو ؟ دلني عليه حتى أخرجه من بيننا فقال الله عز وجل : يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً فتابوا جميعاً فسُقُوا . (٥)

---

(١) أحمد في المسند ٥٩٨/١٧ رقم ٢٧٤٧١ ، وقال الهيثمي : فيه شهر بن حوشب ضعفوه وبقية رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٩٣/٨ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٢٧/٢ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ٢٧/٢ .

(٤) تفسير القرطبي ٧٣٢٩/١٠ .

(٥) إحياء علوم الدين ١٤٧/٣ .

الفائدة الثالثة :

النميمة من أقبح الذنوب وأسوأ الخطايا تهتك الأستار وتكشف العيوب وتنشر الحقد والبغضاء والنمام شيطان ينشر سمومه بين الأحبة ويُفسد ما بينهم إن لم نحسن التعامل معه والواجب على من نُقلت إليه النميمة وقيل له : إن فلاناً يقول عنك كذا وكذا حتى يسلم من الشر أن يتبع هذه الخطوات الست :

الأولى : أن لا يُصدّق النمام لأنه فاسق والفاسق مردود الشهادة قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝ ﴾ (١) ، دخل رجلٌ على سليمان بن عبد الملك وعنده الزهري فقال له سليمان : بلغني أنك وقعت فيّ وقلت كذا وكذا فقال الرجل : ما فعلتُ ولا قلت فقال سليمان : إن الذي أخبرني صادق فقال له الزهري : لا يكون النمام صادقاً فقال سليمان : صدقت ثم قال للرجل : اذهب بسلام . (٢)

الثانية : أن ينهاه عن النميمة وينصحه بعدم تكرارها ويُقبّح عليه فعله ويُبيّن له عظيم خطرها قال تعالى : ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ (٣) ، قال رجل لعمرو بن عبيد : إن فلاناً يذكرك في مجلسه بشر فقال له عمرو : يا هذا ما راعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه ولا أديت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره ولكن أخبره أن الموت

---

(١) الحجرات : ٦ .

(٢) إحياء علوم الدين ١٤٩/٣ .

(٣) لقمان : ١٧ .

يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين .

وكتب رجل إلى الصاحب ابن عباد خطاباً ينبهه فيه على مالٍ ليتيم ليحمله على أخذه لكثرته فوقّع على ظهرها : النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة الميت رحمه الله واليتيم جبره الله والمال ثمَّره الله والساعي لعنه الله .

وزار بعض السلف أخاً له فنمّ له عن صديقه فقال يا أخي أطلت الغَيبة وجئتني بثلاث جنايات : بغَّضت إليّ أخي وشغلت قلبي بسببه واتَّهمت نفسك الأمينة .

وقيل : من أخبرك بشتم غيرك لك فهو الشاتم لك .

الثالثة : أن يبغضه في الله تعالى ولا يثق به ، قال الحسن : من نمّ إليك نمّ عليك . ولأن الله يبغضه ويجب بغض من يبغضه الله .

دخل رجلٌ على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال له : إن فلاناً يقول عنك كذا وكذا فقال له : يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقاً مقتناك وإن كنت كاذباً عاتبناك وإن شئت أن نقيلك أقلناك فقال له : أقلني يا أمير المؤمنين .

ودخل رجلٌ على عمر بن عبد العزيز فقال له : إن فلاناً ذكرك بسوء فقال له عمر : إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝ ﴾ [1] وإن كنت

---

[1] الحجرات : ٦ .

صادقاً فأنت من أهل هـذه الآيـة : ﴿ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴾[١] وإن شئت عفونا عنك ؟ فقال : العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبداً .

الرابعة : أن ينسى ما قيل له وأن لا يظن بأخيه الغائب سوءاً قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ ﴾ .[٢]

الخامسة : أن لا يحمله ما حُكي لك على التَّحقُّق والبحث عن صحته من عدمه بل الواجب أن ينساه تماماً قال تعالى ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ .[٣]

السادسة : أن يحمد الله تعالى على أن عافاه من المعصية ولا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكي لأحدٍ نميمة ويقول : فلانٌ حكى لي كذا وكذا فيجمع بين الغيبة والنميمة ويكون قد فعل ما نهى عنه .

قال الغزالي : وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغي أن يُتوقَّى ، قال حماد ابن سلمة : باع رجلٌ عبداً وقال للمشتري ما فيه عيب إلا النميمة قال : رضيت فاشتراه فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجة مولاه : إن سيدي لا يحبك وهو يريـد أن يتزوج عليك فخذي الموسي واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعراتٍ حتـى أسحره عليها فيُحِبّك ، ثم قال للزوج : إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك حتى تتزوجه فتَنَاوَمْ لها حتى تعرف ذلك فتناوم لها فجاءت المـرأة بالموسـي لتحلق من شعره فظن أنها تُريد قتله فقام إليها فقتلها فجاء أهل المـرأة فقتلـوا الزوج ووقع القتال بين القبيلتين فنسأل الله حسن التوفيق .[٤]

---

[١] القلم : ١١ .

[٢] الحجرات : ١٢ .

[٣] الحجرات : ١٢ .

[٤] إحياء علوم الدين ١٤٩/٣ .

من نمّ في الناس لم تؤمن عقاربه ** على الصديق ولم تؤمن أفاعيه

كالسيل بالليل لا يدري به أحد ** من أين جاء ولا من أين يأتيه

الويل للعهد منه كيف ينقضه ** والويل للود منه كيف يفنيه

ولذلك حذّر العلماء والصالحون ولاةَ الأمر من رُوّاد مجالسهم الذين يسعون إليهم بالنميمة ويُرضونهم بالخوض في أعراض الناس .

دخل رجل على سليمان بن عبد الملك فقال له : إني مُكلِّمك يا أمير المؤمنين بكلامٍ فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته فقال : قُل قال : يا أمير المؤمنين إنه قد اكتنفك رجالٌ قد ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ولا تُصغ إليهم فيما استحفظك الله إياه فإنهم لن يألوا في الأمة خسفاً ولا في الأمانة تضييعاً والأعراض قتلاً وانتهاكاً أعلى قربهم البغي والنميمة وأجلُّ وسائلهم الغيبة والوقيعة وأنت مسئول عما أجرموا وليسوا المسئولين عما أجرمت فلا تُصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره .

وسعى رجلٌ إلى أمير بالنميمة فجمع بينه وبين من نمّ عنه فأقبل عليه وقال له :

فأنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً ** فخنت وإما قلت قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا ** بمنزلة بين الخيانة والإثم

الدروس المستفادة من الحديث :

١) حرمة النميمة وقبحها وأنها من أشر الذنوب .

٢) حرص الإسلام على صيانة الأعراض وحرمة الحياة الشخصية للأفراد

٣) الانشغال بعيوب النفس وترك الانشغال بعيوب الآخرين .

٤) الإسلام علّمنا أمثل الطرق لمواجهة النمام .

٥) حرص الإسلام على توطيد أواصر الأخوة بين أتباعه .

فضل الاستغفار

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيقٍ مخرجاً ومن كل همٍ فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب) .

تخريج الحديث

هذا الحديث أخرجه :

١) أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار ٨٦/٢ رقم ١٥١٨ .

٢) ابن ماجة كتاب الأدب باب الاستغفار ١٢٥٤/٢ رقم ٣٨١٩ .

٣) أحمد في المسند بلفظ من أكثر من الاستغفار ٢٧/٣ رقم ٢٢٣٤ وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل حبر الأمة وإمام التفسير وفقيه عصره ، عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، القرشي الهاشمي أبو العباس المدني ، ابن عم رسول الله ﷺ وصاحبه ، خالته أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ، وابن خالته خالد بن الوليد .

وُلد في شِعب أبي طالب قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتربَّى في بيت النبي ﷺ وتلقَّى عنه العلم وتأدَّب بأدبه ، أسلم قبل الفتح ثم هاجر سنة الفتح ، وقُبِضَ رسول الله ﷺ وعمره ثلاث عشرة سنة .

رزقه الله الفهم والفقه منذ نعومة أظافره ، فيحكي عن نفسه فيقول :

" أتيت رسول الله ﷺ من آخر الليل فصليت خلفه فأخذ بيدي فجرَّني حتى جعلني حذائه ، فلما أقبل رسول الله ﷺ على صلاته خنست فصلى رسول الله ﷺ

فلما انصرف من صلاته قال : " ما شأنك أجعلك في حذائي فتخنس ؟! " فقلت : يا رسول الله أوَينبغي لأحدٍ أن يصلِّي في حذائك وأنت رسول الله ﷺ الذي أعطاك الله عز وجل ؟ قال : " فأعجبته فدعا الله أن يزيدني علماً . " (١)

وقد ظهرت عليه منذ الصغَر علامات الذكاء والنجابة حتى دعا له رسول الله ﷺ أن يزيده الله علماً وفقهاً .

قال ابن عباس : بِتُّ في بيت خالتي ميمونة فوضعت للنبي ﷺ غسلاً فقال : " من وضع هذا ؟ " قالوا : عبد الله ، فقال : " اللهم فقهه في الدين " . (٢)

وكان ابن عباس إلى جانب علمه وسيماً جميلاً صبيح الوجه مديد القامة مهيباً كامل العقل ذكي النفس من رجال الكمال . (٣)

وكان أبيضاً طويلاً جسيماً طيب الرائحة ، تفوح منه رائحة المسك . قال عكرمة : كان ابن عباس إذا مرَّ في طريقٍ قالت النساء : أمرَّ المسك أم مرَّ ابن عباس ؟ (٤) ، وقال عطاء بن أبي رباح : ما رأيت القمر ليلة أربع عشرة إلا ذكرت وجه ابن عباس . (٥)

وكان شديد الاجتهاد في العبادة يصوم الاثنين والخميس ويُكثر الصلاة والذكر وكان شديد الخشية من الله كثير البكاء .

---

(١) أحمد في مسنده ٣٣٠/٣ رقم ٣٠٦١ وإسناده صحيح ، قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح راجع : مجمع الزوائد ٢٨٤/٩ .

(٢) البخاري كتاب الوضوء باب وضع الماء عند الخلاء ٢٩٤/١ رقم ١٤٣ ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل عبد الله بن عباس ١٩٢٧/٤ رقم ٢٤٧٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٣٣/٣ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٣٣٧/٣ ، تاريخ ابن معين برواية الدوري ٩٠/٣ رقم ٣٨٠ .

(٥) سير الأعلام ٣٣٦/٣ ، تهذيب الأسماء للنووي ٢٥٨/١ .

قال ابن أبي مليكة : صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة فكان إذا نزل قام شطر الليل ، فسُئل : كيف كانت قراءته ؟ قال : قرأ ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ (١) فجعل يرتل ويكثر في ذلك النشيج (٢) .

وقال أبو رجاء : رأيت ابن عباس وأسفل عينه مثل الشراك البالي من البكاء . (٣)

اجتهد ابن عباس في طلب العلم منذ نعومة أظافره فاستفاد من قرابته من رسول الله ﷺ وتعلم منه كثيراً ثم استفاد من الصحابة الموجودين حينئذ فجمع علمهم إلى علمه فساد أقرانه جميعاً لفضل ذكائه وتبكيره بطلب العلم .

قال ابن عباس : لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجلٍ من الأنصار هلُمَّ نسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير فقال : وا عجباً لك يا ابن عباس أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترى ؟ فترك ذلك ، قال ابن عباس : وأقبلت على المسألة فإن كان الحديث ليبلغني عن الرجل فآتيه وهو قائل فأتوسد ردائي على بابه فتسفي الريح عليّ التراب فيخرج فيراني فيقول : يا ابن عم رسول الله ﷺ ألا أرسلت إليّ فآتيك ؟ فأقول أنا أحق أن آتيك فأسألك قال : فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناس عليّ فقال : هذا الفتى أعقل مني . (٤)

---

(١) ق : ١٩ .

(٢) حلية الأولياء ٣٢٧/١ ، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٩٥٠/٢ رقم ١٨٤٠ .

(٣) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٩٧٨/٢ رقم ١٩٣٠ ، مصنف ابن أبي شيبة كتاب الزهد باب ما قالوا في البكاء من خشية الله ٢٤٤/٧ رقم ٣٥٥٢٢ .

(٤) سنن الدارمي في المقدمة باب الرحلة في طلب العلم و احتمال العناء فيه ١٥٠/١ رقم ٥٧٠ ، المعجم الكبير للطبراني ٢٢٤/١٠ رقم ٥٩٢ ، والحاكم في المستدرك ١٨٨/١ وصححه ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٢٧٧/٩ .

وقال ابن عباس : وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هـذا الحـي مـن الأنصار إن كنت لآتي الرجل منهم فيُقال : هو نائم فلو شئت إن يُوقظ لي لأوقظ فأجلس على بابه تسفي الريح على وجهي التراب حتى يستيقظ فأسأله عما أريد ثم أنصرف . (١)

ولقد تلقى ابن عباس العلم بذاكرةٍ واعية وهمـةٍ عاليـة ودأبٍ وإصـرار وصبر فكان يقصد الصحابة ويسألهم ، والعلم خزائن ومفتاحها السؤال ، يقـول ابن عباس : إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ . (٢)

وقال الشعبي : قيل لابن عباس : أنىّ أصبت هذا العلم ؟ قـال : بلسـانٍ سؤول وقلبٍ عقول . (٣) وكانوا إذا عابوا على عمر إدناءه لـه وإدخالـه إلـى مجلسه مع أهل بدر وقالوا له : ألا تدعوا أبناءنا كما تدعوا ابن عباس ؟ فيقـول عمر : ذلكم فتى الكهول ، إن له لساناً سؤولاً وقلباً عقولاً . (٤)

وقد أعانه على ذلك دعاء النبي ﷺ له بالعلم والفقه والحكمة ، فكان رضي الله عنه آية في الحفظ وحضور البديهة ، أنشده ابن أبي ربيعه قصيدة من ثمانين بيتاً فحفظها من مرةٍ واحدة ، وكان إذا سمع النوادب سدَّ أذنيه بأصابعه مخافة أن يحفظ أقوالهن .

وقد تصدَّر ابن عباس للتعليم والإفتاء منذ خلافة عمر بن الخطاب ، قـال عطاء بن يسار : كان عمر وعثمان يدعوان ابن عباس مع أهل بدر وكان يفتي

---

(١) الدارمي في المقدمة باب الرحلة في طلب العلم و احتمال العناء فيه ١/١٥٠ رقم ٥٦٧ ، والجامع لأخـلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ١/١٥٨ رقم ٢١٤ .

(٢) سير الأعلام ٣/٣٤٤ .

(٣) البداية والنهاية ٨/ ٢٨٣ .

(٤) المعجم الكبير للطبراني ١٠/٢٦٥ رقم ١٠٦٢٠ ، والحاكم في المستدرك ٣/٦٢١ رقم ٦٢٩٨ .

في عهد عمر وعثمان إلى يوم أن مات ، وقد عدّه ابن حزم من السبعة المكثرين من الفتوى مع الصحابة ، وقد جمعت فتاواه في عشرين كتاباً [١] .

وقد جمع ابن عباس علوماً عدة وبرع في فنونٍ شتى ، قال عطاء : كان أناس يأتون إلى ابن عباس في الشعر والأنساب وناس يأتونه لأيام العرب ووقائعهم وناس يأتونه للفقه والعلم ، فما منهم صنف إلا يقبل عليهم بما يشاؤون وكان كثيراً ما يجعل أيامه يوماً للفقه ويوماً للتأويل ويوماً للمغازي ويوماً للشعر ويوماً لوقائع العرب [٢] ، وما رأيت مجلساً قط أكرم من مجلس ابن عباس أكثر فقهاً وأعظم خشية ، إن أصحاب الفقه عنده وأصحاب الشعر عنده يُصدرهم كلهم من واد واسع [٣] .

ولابن عباس مفردات ليست لغيره من الصحابة لاتساع علمه وعمق فهمه وكمال عقله وسعة فضله ونبل أصله فهو أحد المكثرين من رواية الحديث وأحد العبادلة الأربعة ، ومن فقهاء الصحابة وعلمائهم ، ولقد علم الصحابة مكانة ابن عباس وقربه من رسول الله ﷺ ولمسوا بركة دعاء النبي ﷺ له ، حيث دعا الله أن يعلمه الكتاب [٤] والحكمة [٥] وأن يفقهه في الدين [٦] ويعلمه التأويل [٧] فقرَّبوه وأحبوه فكان عمر يقول : لا يلومني أحد على حب ابن عباس ، وكان

---

[١] سير الأعلام ٣/٣٥٨ .

[٢] البداية والنهاية ٨/٢٨٦ .

[٣] الزهد لابن المبارك ١/٤١٤ ، تاريخ بغداد ١/١٧٤ .

[٤] البخاري كتاب العلم باب قول النبي ﷺ : اللهم علمه الكتاب ١/٢٠٤ رقم ٧٥ .

[٥] البخاري كتاب المناقب باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما ٧/١٢٦ رقم ٣٧٥٦.

[٦] البخاري كتاب الوضوء باب وضع الماء عند الخلاء ١/٢٩٠ رقم ١٤٣ .

[٧] أحمد في المسند ٣/٩٥ رقم ٢٣٩٧ وإسناده صحيح ، راجع : مجمع الزوائد ٩/٢٦٧ .

يقول له : لقد علمت علماً ما علمناه [1] ، وقال سعد بن أبي وقاص : ما رأيت أحداً أحضر فهماً ولا ألب لباً ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً من ابن عباس [2] .

وقال طلحة بن عبيد الله : لقد أُعطي ابن عباس فهماً وعلماً ما كنت أرى عمراً يقدم عليه أحدًا [3] ، وقال ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس [4]

وقال ابن عمر : ابن عباس أعلم أمة محمد ﷺ بما أنزل على محمد ﷺ [5]

وقال مسروق : كنت إذا رأيت ابن عباس قلت : أجمل الناس ، فإذا نطق قلت : أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلم الناس [6] ، ومناقبه وفضائله كثيرة جداً .

روى ابن عباس عن النبي ﷺ (١٦٦٠) حديثاً اتفق الشيخان على (٧٥) حديثاً وانفرد البخاري برواية (١١٠) حديثاً ومسلم برواية (٤٩) حديثاً ، كما روى عن جماعةٍ من الصحابة منهم : عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وعائشة وغيرهم .

كما روى عنه جمعٌ من الصحابة منهم : أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وابن عمرو والمسور بن مخرمة وخلقٌ لا يُحصون من التابعين من أشهرهم : سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن البصري وشعبة وطاووس و الشعبي وعطاء بن يسار وعطاء بن أبي رباح وعكرمة ومجاهد وخلق كثير سواهم .

---

[1] سير الأعلام ٣٤٥/٣ .

[2] سير الأعلام ٣٤٧/٣ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٦٩/٢ .

[3] سير الأعلام ٣٧٤/٣ .

[4] المستدرك للحاكم ٦١٨/٣ رقم ٦٢٩١ ، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٩٥٧/٢ رقم ١٨٦٤ .

[5] البداية والنهاية ٢٨٥/٨ .

[6] فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٩٦٠/٢ رقم ١٨٧٢ ، سير الأعلام ٣٥١/٣ .

شهد ابن عباس وقعة الجمل وصفين مع عليّ وكف بصره في آخر عمره ثم توفي سنة ثمانٍ وستين بالطائف ، ولما مات جاء طائرٌ لم يُرَ طائر على خلقته فدخل نعشه ثم لم يُرَ خارجاً منه فلما دُفن تليت هذه الآية على شفير القبر ولا يُرى من تلاها : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝ ﴾ [1] .

ولما بلغ جابر بن عبد الله خبر وفاته صفق بإحدى يديه على الأخرى وقال : مات اليوم أعلم الناس وأحلم الناس ، وقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق [2] ، فلما دفن قال محمد بن الحنفية : اليوم مات رباني هذه الأمة [3] . رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة قراره ومثواه .

معاني المفردات

لـزم : أي داوم عليه وأكثر من الملازمة له والدوام عليه .

الاستغفار : هو طلب المغفرة من الله .

ضيـق : أي شدة ومحنة .

مخرجاً : أي طريقاً وسبباً يخرج إلى السعة والراحة .

هـم : أي غماً يغمه .

فرجـاً : أي خلاصاً .

ورزقـه : أي أعطاه حلالاً طيباً .

لا يحتسب : أي لا يظن ولا يرجو ولا يخطر بباله .

---

(١) الفجر : ٢٧-٣٠ ، والخبر في مستدرك الحاكم ٦٢٦/٣ رقم ٦٣١٢ ، الطبراني في المعجم الكبير ٢٣٦/١٠ رقم ١٠٥٨١ ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٢٨٥/٩ .

(٢) البداية والنهاية ٢٨٥/٨ .

(٣) المستدرك للحاكم ٦١٦/٣ رقم ٦٢٨٤ .

المعنى الإجمالي للحديث

يرشدنا النبي ﷺ في هذا الحديث إلى لزوم الاستغفار والإكثار والمداومة عليه مع التوبة من جميع الذنوب ، ووعد من لزم ذلك بسعادة الدنيا والآخرة حيث يجعل الله له من كل ضيقٍ في الدنيا أو في الآخرة مخرجاً بأن يلطف به فينجيه من كل كرب وضيق وحزن ويجعل له من كل غمٍ وهمٍ فرجاً بأن يزيل عنه سببه وينجيه من تعبه ويفيض عليه من رزقه الواسع الحلال الطيب ويأتيه من حيث لا يرجوا ولا يظن ولا يتوقع فالاستغفار يُصلح أمور الدنيا كما يُصلح أمور الآخرة .

والاستغفار المقصود في الحديث هو طلب المغفرة من الله ، وقد علَّمنا رسول الله ﷺ كثيراً من صيغ الاستغفار كما ستأتي .

والاستغفار يكون باللسان أو بالقلب أو بهما جميعاً ، والأول فيه منفعة وخير لأنه أفضل من السكوت ولأن فاعله يتعود قول الخير ومناجاة الله ، والثاني نافع جداً لأنه يتضمن الإقرار بالذنب والندم عليه والعزم على عدم العود إليه ، والثالث أبلغ منه لأنه يتضمن الإقرار والاعتراف بالقلب وطلب المغفرة باللسان والاستغفار لا يمحص الذنوب إلا إذا رافقته أو تضمن التوبة بشروطها .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

الإنسان بطبعه كثير الذنوب لأنه ظلوم جهول إلا من عصم الله لأن الله ركَّبه من الماء والطين ثم نفخ فيه من روحه ، فهو واقعٌ في المعاصي لا محالة وفي الحديث : " كل بني آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون " . (١)

---

(١) أحمد في المسند ١٠١/٧٧ رقم ١٢٩٨٣ ، الترمذي كتاب صفة القيامة ٢٢٤/٤ رقم ٢٥٠٧ وإسناده حسن.

وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله عز وجل : " كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم " . (١)

ولكن المسلم إذا أذنب استغفر وإن أخطأ تاب ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، وقد ورد في الحديث صفة الاستغفار المشار إليه في الآية ، فعن علي بن أبي طالب قال : حدثني أبو بكر الصديق رضي الله عنهما وصدق أبو بكر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : " ما من رجل يذنب ثم يقوم فيتطهر فيحسن الطهور ثم يستغفر الله عز وجل إلا غفر الله له ثم تلا والذين إذا فعلوا فاحشة ... الآية " (٣)

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " إن العبد إذا أخطأ خطيئةً نُكتت في قلبه نكتةً فإذا هو نزع واستغفر صقلت فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكر الله تعالى " كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون " . (٤)

فالمسلم دائماً يتوب ويستغفر لأنه من حصول الذنب على يقين ومن الخروج من عقوبته على شك فحق التائب أن يجعل ذنبه نُصب عينيه وينوح دائماً على نفسه حتى يتحقق أن الله قد غفر له ذنبه وأمثالنا لا يتحققون من ذلك

---

(١) أحمد في المسند ٥٠٥/١٥ رقم ٢١٢٦٤ ، وابن ماجة كتاب الزهد باب ذكر التوبة ١٤٢٢/٢ رقم ٤٢٥٧ وإسناده حسن .

(٢) آل عمران : ١٣٥ .

(٣) أحمد في المسند ١٦٥/١ رقم ٢ ، والترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء في الصلاة عند التوبة ٤١٤/١ رقم ٤٠٦ وإسناده صحيح .

(٤) سورة المطففين الآية ١٤ ، انظر : أحمد في المسند ٧١/٨ رقم ٧٩٣٩ ، الترمذي كتاب تفسير القرآن باب سورة ويل للمطففين ٢٢٠/٥ رقم ٣٣٤٥ وقال : حديث حسن صحيح .

إلا بلقاء الله تعالى والرجوع إليه ، والندم على الفعل والعزم على عدم العود إليه والإقلاع عن الذنب وكثرة الاستغفار منه طريق المسلم للمغفرة ، ثم لو قَدَّرنا أنه تحقق أنه غُفر له ذلك الذنب لتعيَّنت عليه وظيفة الشكر كما قال ﷺ " أفلا أكون عبداً شكوراً " . [١]

وغير المسلم سادرٌ في غيِّه متمادٍ في ضلاله لا يعرف الحلال من الحرام ، ولا الحق من الباطل لا يرجو رحمة الله ولا يخاف عقابه .

قال ابن مسعود : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبلٍ يخاف أن تقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذُبابٍ مَرَّ على أنفه فقال به هكذا . [٢]

فمثل المؤمن كمثل الثوب الأبيض وكمثل الذهب الخالص ، توسخه المعاصي وتغسله التوبة والاستغفار ، فكلما أذنب استغفر فعاد نقياً خالصاً وفي الحديث " التائب من الذنب كمن لا ذنب له " [٣] وسُئل ابن الجوزي أيهما أفضل التسبيح أم الاستغفار ؟ فقال : الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون منه إلى البخور، فلسان المسلم يلهج دائماً بالتوبة والاستغفار لكثرة ذنوبه ودوام غفلته فهذا رسول الله ﷺ سيد الخلق وأفضل البشر ، عصمه الله من الذنوب كلها وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول : " إنه ليُغان على قلبي حتى أستغفر الله مائة مرة " [٤].

---

[١] البخاري كتاب تفسير القرآن باب " ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ... الآية ٤٤٨/٨ رقم ٤٨٣٦ ، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ٢١٧٤/٤ رقم ٢٨١٩ .

[٢] البخاري كتاب الدعوات باب التوبة ١٠٥/١١ رقم ٦٣٠٨ .

[٣] ابن ماجة كتاب الزهد باب ذكر التوبة ١٤١٩/٢ رقم ٤٢٥٠ ، الطبراني في المعجم الكبير ١٥٠/١٠ رقم ١٠٢٨١ ، البيهقي في شعب الإيمان ٤٣٦/٥ رقم ٧١٧٨ والحديث حسن بشواهده .

[٤] مسلم كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٢٠٧٥/٤ رقم ٢٧٠٢ .

فما بالنا نحن بمعاصينا وجهلنا وغفلتنا أفلا نستغفر آناء الليل وأطراف النهار لعل ربنا يرضى ، وكيف لا يحرص المسلم على ذلك وهو يستمع رسولهﷺ يقول : " من قال : أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غُفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف " .[١]

قال أبو نعيم الأصبهاني : هذا يدل على أن بعض الكبائر تُغفر ببعض العمل الصالح وضابطه : الذنوب التي لا تُوجب على مرتكبها حكماً في نفسٍ ولا مال ، ووجه الدلالة منه : أنه مُثِّل بالفرار من الزحف وهو من الكبائر فدلَّ على أن ما كان مثله أو دونه يُغفر إذا كان مثل الفرار من الزحف فإنه لا يوجب على مرتكبه حكماً في نفسٍ ولا مال .

والاستغفار يرفع الهمَّ ويكشف الغم ويُكثر الرزق ويجلب سعادة الدنيا والآخرة . جاء رجلٌ إلى الحسن البصري فشكى إليه الجدب فقال له : استغفر الله ، وجاء إليه آخر فشكا إليه عدم الولد فقال له : استغفر الله ، وشكا إليه ثالث جفاف بستانه فقال له : استغفر الله ثم تلا عليهم قول الله تعالى ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝ ﴾ [٢]

وفي الآيات حثٌ على الاستغفار وبشارة بوقوع المغفرة لمن استغفر وقد أشار الشاعر إلى ذلك فقال:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه ** من جود كفيك ما علمتني الطلبا

---

[١] أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار ٨٦/٢ رقم ١٥١٥ ، الترمذي كتاب الدعوات ٣٣٦/٥ رقم ٣٥٨٨

[٢] نوح : ١٠ ، ١١، ١٢ .

وقد ورد في فضل الاستغفار آيات وأحاديث كثيرة فمن الآيات قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١) ، وقد أمر الله أنبيائه بالاستغفار فقال لنبيه محمد ﷺ ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (٢) ، وأمر نبيه محمداً بالاستغفارفقال له : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ (٣) ، وقال له ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٤) .

والآيات في الاستغفار كثيرة مشهورة وأما الأحاديث فمنها : حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : " قال إبليس : يا رب لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال الله تعالى : وعزتي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني " (٥) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقومٍ يُذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم . (٦)

والاستغفار يمحق الذنوب مهما عظُمت ويمحوها مهما كثُرت ، وفي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم لو

---

(١) النساء : ١١٠ .

(٢) غافر : ٥٥ .

(٣) محمد : ١٩ .

(٤) النساء : ١٠٦ .

(٥) أحمد في المسند ١٠/٩٥ رقم ١١١٨٣ ، والحاكم في المستدرك ٤/٢٩٠ رقم ٧٦٧٢ وصححه .

(٦) مسلم كتاب التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة ٤/٢١٠٦ رقم ٢٧٤٩ .

أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة " . (١)

وعن حذيفة بن اليمان قال : كنت ذرب اللسان على أهلي فقلت : يا رسول الله لقد خشيت أن يُدخلني لساني النار فقال له النبي ﷺ : " فأين أنت من الاستغفار ؟ فإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة " (٢) ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال : " أذنب عبدٌ ذنباً فقال : اللهم اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال : أي رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال : أي رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب اعمل ما شئت فقد غفرت لك " (٣) .

ولذلك أوصى النبيﷺ النساء بكثرة الاستغفار ليكون سبباً لنجاتهن من النار فقال : " يا معشر النساء تصدَّقن وأكثرن من الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار " (٤) .

والاستغفار ضياءٌ في القلب ورضا للرب ونور في كتاب الأعمال فعن عبد الله بن بُسر قال : قال رسول الله ﷺ : " طوبى لمن وجد في صحيفته

---

(١) أحمد في المسند ٥٣٨/١٥ رقم ٢١٣٦٤ ، الترمذي كتاب الدعوات باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده ٣١٨/٥ رقم ٣٥٥١ ، وإسناده حسن .

(٢) أحمد في المسند ٦٢٠/١٦ رقم ٢٣٣١٤ ، وابن ماجة كتاب الأدب باب الاستغفار ١٢٥٤/٢ رقم ٣٨١٧ ، وإسناده ضعيف .

(٣) مسلم كتاب التوبة باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة ٢١١٢/٤ رقم ٢٧٥٨ .

(٤) البخاري كتاب الحيض باب ترك الحائض الصوم ٤٨٣/١ رقم ٣٠٤ ، مسلم كتاب الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات ٨٦/١ رقم ٧٩ .

استغفاراً كثيراً " [١] ، وهو النجاة والملجأ من الهلاك ، قال علي بن أبي طالب : العجب ممن يهلك ومعه النجاة قيل : وما هي ؟ قال : الاستغفار [٢] . وكان يقول : ما ألهم الله سبحانه وتعالى عبداً الاستغفار وهو يريد أن يعذبه .

والذنوب أمراض والاستغفار دواؤها ، والذنوب أقذار والاستغفار ينظفها . قال قتادة : القرآن يدُلُّكم على دائكم ودواؤكم أما داؤكم فالذنوب وأما دواؤكم فالاستغفار . [٣]

الفائدة الثانية

للاستغفار شروطٌ وآدابٌ تضمن قبوله وحصول أثره منها :

١) صدق النية وصحتها وحسن التوجه والأدب مع الله بمعرفة قدره وخشيته وإجلاله وأنه لا يتعاظمه ذنب ولا يحول دون قدرته شيء .

٢) الاعتراف بالذنب والتقصير ومعرفة حقيقة النفس فمتى اعترف المسلم بذنبه وندم عليه غُفِر له ، وفي الحديث : " العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه " . [٤]

٣) الإقلاع عن الذنب والندم عليه والعزم على عدم العودة إليه ، قال تعالى في وصف المستغفرين :﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [٥] فالاستغفار باللسان مع التلبس بالذنب كالتلاعب بمقام الرب . قال بعض

---

[١] ابن ماجة كتاب الأدب باب الاستغفار ١٢٥٤/٢ رقم ٣٨١٨ ، البيهقي في شعب الإيمان ٤٤٠/١ رقم ٦٤٧

[٢] فيض القدير ٥٧/٦ .

[٣] شعب الإيمان للبيهقي ٤٢٧/٥ رقم ٧١٤٦ .

[٤] جزء من حديث الإفك الطويل وقد أخرجه : البخاري كتاب الشهادات باب تعديل النساء بعضهن بعضاً ٣١٩/٥ رقم ٢٦٦١ ، مسلم كتاب التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ٢١٢٩/٤ رقم ٢٧٧٠.

[٥] آل عمران : ١٣٥ .

السلف : المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه [١] ، وقال الفضيل بن عياض : استغفارٌ بلا إقلاع توبة الكذابين [٢] ، وفي مثل هذا الاستغفار تقول رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير [٣] ورؤي بعض الأعراب متعلِّقاً بأستار الكعبة وهو يقول : اللهم إن استغفاري مع إصراري لؤم وإن تركي الاستغفار مع علمي بسعة عفوك لعجز فكم تتحبّب إليّ بالنعم مع غناك عني وأتبغّض إليك بالمعاصي مع فقري إليك يا من إذا وعد وفّى وإذا توعَّد تجاوز وعفا أدخل عظيم جُرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين . [٤]

فإن ترك الإنسان الذنب نادماً على فعله عازماً على عدم العود إليه ثم غلبته شهوته وعاد إليه عاد إلى الاستغفار وفي الحديث عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله ﷺ " ما أصرَّ من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة " [٥] ، وذكر النبي ﷺ السبعين مرة هنا على سبيل المبالغة والتكثير ورحمة الله تسع ذنوب العباد جميعاً .

٤) كثرة الاستغفار عقب الوقوع في الذنب لأن الذنب سيئة والاستغفار حسنة ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [٦] وفي الحديث : " أتبع السيئة الحسنة تمحها " [٧] وقد سبق حديث أبى بكر في هذا المعنى .

---

[١] عون المعبود لشمس الحق العظيم آبادي ٢٦٦/٤ ، وتحفة الأحوذي للمباركفوري ٢٣/١٠ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٢٣١/٥ ، الأذكار للنووي ص ٤٨١ .

[٣] الأذكار : ٤٨١ .

[٤] الأذكار : ٤٨١ .

[٥] أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار ٨٥/٢ رقم ١٥١٤ ، والترمذي كتاب الدعوات باب في دعاء النبي ﷺ ٣٢٧/٥ رقم ٣٥٧٠ ، وقال ليس اسناده بالقوى .

[٦] هود : ١١٤ .

[٧] أحمد في المسند ٥٠١/١٥ رقم ٢١٢٥١ ، والترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في معاشرة الناس ٣٩٧/٣ رقم ١٩٩٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، والحاكم في المستدرك ١٢١/١ رقم ١٧٨ وصححه ووافقه الذهبي .

٥) الاستغفار في الأوقات الفاضلة ومنها :-

١- وقت السحر في الثلث الأخير من الليل لأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا فيُنادي من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأُعطيه من يستغفرني فأغفر له " (١) وقد وصف الله المتقين بقوله تعالى ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝ ﴾ (٢) ، وقد وصف الله أهل الجنة بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ۝ ﴾ (٣) ، وقال خالد بن مَعدان : يقول الله عز وجل : إن أحب عبادي إليّ المتحابون بُحبي والمتعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرين بالأسحار أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة ذكرتهم فتركتهم وصرفت العقوبة عنهم . (٤)

٢- قبل النوم ففي الحديث من قال حين يأوي إلى فراشه : " أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر أو عدد رمل عالج أو عـــدد

---

(١) البخاري كتاب الدعوات باب الدعاء نصف الليل ١٣٣/١١ رقم ٦٣٢١ ، ومسلم كتاب صـــلاة المســـافرين وقصرها باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ٥٢١/١ رقم ٧٥٨ .

(٢) الذاريات : ١٧ ، ١٨ .

(٣) آل عمران : ١٦ ، ١٧. .

(٤) الزهد لعبد الله بن المبارك ١٣٩/١ رقم ٤١٢ ، حلية الأولياء لأبي نعيم ٢١٢/٥ .

ورق الشجر أو عدد أيام الدنيا " [١]

٣- عقب الفراغ من الصلاة فعن ثوبان قال : كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً وقال : " اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام " فقيل للأوزاعي وهو أحد رواة الحديث كيف الاستغفار ؟ قال : يقول : أستغفر الله أستغفر الله .[٢]

٤- في أثناء الصلاة في الركوع والسجود فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأويل القرآن" . [٣] ومعنى يتأوّل القرآن أي : يعمل بما أمر به في القرآن في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾[٤] .

٦) اختيار الصيغ المأثورة التي حثنا النبي ﷺ على الاستغفار بها ومن أهمها :-

أ) قال رسول الله ﷺ : " من قال أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فرَّ من الزحف " .[٥]

---

[١] أحمد في المسند ٣٦/١٠ رقم ١١٠١٦ ، والترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء في الدعاء إذا أوى إلى فراشه ٢٥٥/٥ رقم ٣٤٠٨ وحسنه ، والحاكم في المستدرك ٦٩٢/١ رقم ١٨٨٤ وصححه ووافقه الذهبي .

[٢] مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ٤١٤/١ رقم ٥٩١ .

[٣] البخاري كتاب الأذان باب التسبيح والدعاء في السجود ٣٤٩/٢ رقم ٨١٧ ، ومسلم كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود ٣٥٠/١ رقم ٤٨٤ .

[٤] النصر : ٤ .

[٥] أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار ٨٦/٢ رقم ١٥١٧ ، الترمذي كتاب الدعوات ٣٣٦/٥ رقم ٣٥٨٨

ب) عن شدَّاد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : " سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " قال رسول الله ﷺ " من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يُمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقنٌ بها فمات قبل أن يُصبح فهو من أهل الجنة " [(١)] ، وإنما عُدّ هذا الدعاء سيداً للاستغفار لأنه جامعٌ لمعاني التوبة كلها ولذلك أمر النبي ﷺ بتعلُّمه ففي حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ " تعلَّموا سيد الاستغفار " [(٢)]

ج) عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يُكثر أن يقول : " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلي " [(٣)] .

الفائدة الثالثة :

كان النبي ﷺ يُكثر من الاستغفار والتوبة تعليماً لأمته وتشريعاً لها ومعرفةً بمقام ربه وخوفاً منه ، وفي الحديث : " والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة " [(٤)] ، وعن ابن عمر قال : إنا كنا لنعد لرسول الله

---

(١) البخاري كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار ١١/١٠٠ رقم ٦٣٠٦ .

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٣/١٢١ رقم ١٠٣٠١ ، عمل اليوم والليلة للنسائي ص ٣٣٤ .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) البخاري كتاب الدعوات باب الاستغفار في اليوم والليلة ١١/١٠٤ رقم ٦٣٠٧ .

ﷺ في المجلس : " رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة " [(١)] .

وقد سبق في الحديث الماضي توجيه صدور الاستغفار من النبي ﷺ مع أن الله تعالى قد عصمه من جميع الذنوب وغفر له ما تقدم له من ذنبه وما تأخر ، وإنما أخبر النبي ﷺ أنه يكرر التوبة والاستغفار في اليوم الواحد مع أنه مغفور له ليقتدي به غيره بطريق الأولى ، لأن غيره يقول : إذا كان حال من تحقَّق مغفرة ذنوبه هكذا كانت حال من هو من ذلك في شك أحرى وأولى .

والتوبة والاستغفار تقتضي صدور شيءٍ يُتاب منه إلا أن ذلك منقسم بحسب حال من صدر منه ذلك الشيء فتوبة العوام من السيئات وتوبة الخواص من الغفلات وتوبة خواص الخواص من الالتفات إلى الحسنات ، هكذا قال بعض أرباب القلوب وهو كلامٌ حسنٌ في نفسه بالغٌ في فنه . [(٢)]

الفائدة الرابعة :

ورد الاستغفار في القرآن على ضربين :

فتارةً يُذكر مفرداً كقول نوح لقومه ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [(٣)] وقول صالحٍ لقومه : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [(٤)] .

---

(١) أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار ٨٦/٢ رقم ١٥١٦ ، والترمذي كتاب الدعوات ٢٧٣/٥ رقم ٣٤٤٥ وقال : حسن صحيح .

(٢) المفهم ٢٨/٧ .

(٣) نوح : ١٠ .

(٤) النمل : ٤٦ .

فجعل الاستغفار طريقاً إلى نيل رحمة الله ، وكقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [2] .

فالاستغفار طريق الوقاية والنجاة من العذاب فإن الله لا يعذِّب مستغفراً ، وأما من أصرَّ على الذنب واستغفر فهذا ليس استغفاراً فلا يمنع العذاب ، والاستغفار إذا ذُكر مفرداً تضمَّن التوبة مع تضمن طلب المغفرة من الله تعالى بمحو الذنب وإزالة أثرة ووقاية شره فالاستغفار والتوبة يدخل كلٌّ منهما في مسمَّى الآخر عند الإطلاق ، [3] وتارةً يُذكر الاستغفار مقروناً بالتوبة كقول صالح لقومه : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [4] ، وقول هود لقومه : ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [5] ، وكقول شعيب لقومه : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [6] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [7] والاستغفار وصيه الله تعالى لعباده ووصية الأنبياء لأقوامهم ، لأنه طريق النجاة وسبيل الوقاية من العذاب والقرب من الله .

---

[1] البقرة : ١٩٩ .

[2] الأنفال : ٣٣ .

[3] مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٤٤ ، ٣٤٥ .

[4] هود : ٦١ .

[5] هود : ٥٢ .

[6] هود : ٩٠ .

[7] هود : ٣ .

وإذا اقترن الاستغفار بالتوبة أُريد بالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى وبالتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من السيئات فها هنا ذنبان : ذنب قد مضى فالاستغفار منه طلب مغفرته ووقاية شره ، وذنب يخاف وقوعه فالتوبة هي العزم على أن لا يفعله وإنما قدَّم الله تعالى الاستغفار على التوبة لأن التخلية مقدمة على التحلية لأن الاستغفار من باب إزالة الضرر والتوبة طلب لجلب المنفعة ، فالمغفرة أن يقيه الله شر الذنب ، والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه ، وكل منهما لازم للآخر عند إفراده .

الدروس المستفادة من الحديث :

١) فضل الاستغفار وأهمية الإكثار منه .
٢) معرفة شروط وآداب الاستغفار والحرص على تطبيقها
٣) الاستغفار طريق السعادة في الدنيا والآخرة .
٤) الحرص على الاستغفار في الأوقات الفاضلة .
٥) رحمة الله بخلقه وتشريعه لهم مايصلح أحوالهم .

فضل الصلاة على النبي ﷺ

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (من صلّى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بها عشراً) .

تخريج الحديث

أخرجه : الإمام مسلم فى صحيحه كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة ٢٨٨/١ رقم ٣٨٤ .

الراوي الأعلى للحديث

راوي الحديث هو الإمام الحبر العابد عبد الله بن عمرو بن العاص أبو محمد القرشي السهمي كان اسمه العاص فأسماه النبي ﷺ عبد الله ، أسلم قبل أبيه وكان أبوه يكبُرُه باثنتي عشرة سنة فقط ، هاجر إلى المدينة ولازم النبي ﷺ يسمع منه ويكتب أحاديثه وقال له : يا رسول الله أكتب ما أسمع منك ؟ فقال له النبي ﷺ : " نعم " فقال له عبد الله فى الرضا والسُخط ؟ قال " نعم فإنه لا ينبغى لي أن أقول فى ذلك إلا حقاً " [1] .

فكان يكتب كل ما يسمعه من فم النبي ﷺ فى صحيفة خاصة به .

قال عبد الله : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله

[1] أحمد فى المسند ٤٠٠/٦ رقم ٦٩٣٠ ، وصححه الشيخ أحمد شاكر .

بشرٌ يتكلم فى الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : " اكتب فوالذى نفسي بيده ما خرج منى إلا حق " .[١]

ولذلك قال حافظ الإسلام وراوية الصحابة أبو هريرة ما أجد من أصحاب رسول الله ﷺ أحداً أكثر حديثاً منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب .[٢]

وكان شديد الاجتهاد فى العبادة يصوم النهار ويقوم الليل خاصةً بعد ما أوصاه رسول الله ﷺ قائلاً : " يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل " [٣] فاعتزل النساء وسرد الصيام حتى إن أباه زوَّجه امرأةً من قريش فجعل لا يقربها لانشغاله بالعبادة فدخل عمرو بن العاص عليها فسألها عن ابنه فقالت له نِعم الرجل هو لم يُفتِّش لنا كنفاً ولم يعرف لنا فراشاً فأقبل عليه أبوه يعنِّفه ويوبِّخه ويلومه حتي قال له : أنكحتك امرأةً من قريش ذات حسب فعضلتها وفعلت وفعلت ثم ذهب إلى النبي ﷺواشتكى عبد الله له فأرسل إليه رسول الله ﷺ وقال له : " يا عبد الله ألم أُخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ " فقلت : بلى يا رسول الله قال : " فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقاً وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً وإن لزورك عليك حقاً وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإن ذلك صيام الدهر كله " فشدَّدت فشدَّد عليَّ قلت : يا رسول الله إني أجد قوة قال : " فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه " قلت : وما كان

---

[١] أبو داود كتاب العلم باب فى كتاب العلم ٣/٣١٧ رقم ٣٦٤٦ ، وأحمد فى المسند ٦/٦٨ رقم ٦٥١٠ ، وصححه الشيخ أحمد شاكر .

[٢] البخاري كتاب العلم باب كتابة العلم ١/٢٤٩ رقم ١١٣ .

[٣] البخاري كتاب التهجد باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه ٣/٤٥ رقم ١١٥٢ ، مسلم كتاب الصيام باب النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به ٢/٨١٣ رقم ١١٥٩ .

صيام نبي الله داود عليه السلام ؟ قال : " نصف الدهر " فكان عبد الله يقول بعد ما كبر : يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ [(١)] .

وله مناقب وفضائل ومقام راسخ في العلم والعمل حمل عن النبي ﷺ علماً جماً وبلغت جملة الأحاديث التي رواها عن رسول الله ﷺ : سبعمائة (٧٠٠) حديث اتفق الشيخان على سبعة (٧) منها وانفرد البخاري بثمانية (٨) أحاديث ومسلم بعشرين (٢٠) حديثاً كما روى عن أبى بكر وعمر ومعاذ وأبي الدرداء وغيرهم وروى عنه من الصحابة : ابن عمر وأبو أمامة والمسور بن مخرمة وأنس بن مالك وروى عنه خلق كثير من التابعين من أشهرهم : حفيده شعيب ابن محمد وسعيد بن المسيب وعكرمة وعطاء بن السائب ومسروق والشعبي وطاووس ومجاهد والحسن البصري ووهب بن منبه وغيرهم . ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية انحاز لصف معاوية رغم أنه كان يرى الحق مع علي ولكنه فعل ذلك طاعةً لأبيه لأن أباه شكاه إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : " أطع أباك مادام حياً " [(٢)] فكان مع معاوية دون أن يقاتل وكان يقول : مالي ولقتال المسلمين لوددت أنى مت قبلها بعشرين سنة أما والله على ذلك ما ضربت بسيف ولا رميت بسهم .[(٣)]

وكانت له صحيفة يكتب الأحاديث فيها وكان شديد الاعتزاز بها فكان يقول : إن هذه الصحيفة الصادقة التي سمعتها من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه

---

(١) البخاري كتاب الصوم باب حق الجسم فى الصوم ٢٥٦/٤ رقم ١٩٧٥ ، مسلم كتاب الصيام باب النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به ٨١٣/٢ رقم ١١٥٩ .

(٢) أحمد فى المسند ١٠٧/٦ رقم ٦٥٣٨ ، وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

(٣) سير أعلام النبلاء ٩٢/٣ .

أحد فإذا سلِم لي كتاب الله وهذه الصحيفة والوهط – بستان عظيم بالطائف – لم أبال ما ضيعت الدنيا .[١]

وكان فى أواخر حياته يغلق عليه بابه ويكثر البكاء حتى ذهب بصره توفي بمصر سنة خمسٍ وستين وهو يومئذ ابن اثنتين وسبعين سنة ودفن بداره رضي الله عنه وأرضاه .

معاني المفردات

من صلّى علَيَّ : أصل الصلاة فى لغة العرب الدعاء ثم استخدمها الشرع فـي العبادة المعروفة والمراد بالصلاة هنا : المعنى اللغوي وهـو الـدعاء بصيغة من صيغ الصلاة المعروفة .

صلاةً : أي واحدة وهو ما يشير إليه إفرادها .

صلى الله عليه بها : أي بسببها .

عشراً : من باب مضاعفة الحسنات قال تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [٢] والصلاة من الله ثناء ومن الملائكة استغفار ومن المؤمنين دعاء .

المعنى الإجمالي للحديث

هذا الحديث يلفت نظر المسلم إلى أمر مهم ويرشده إلى طريق الخير ويدله على طريق السعادة ورفعة الذكر فإن كان لابد لكل نعمة من شكر ولكل منة من ثناء فأعظم النعم عند المسلم على الإطلاق هي نعمة الهدايـة إلـى معرفـة الله

---

[١] سير الأعلام ٨٩/٣ .

[٢] الأنعام : ١٦٠.

وطاعته ، نعمة الإسلام التي أرشدنا إليها ودلنا عليها سيد الأنبياء محمد ﷺ فشكره واجب ومعرفة فضله حتم والثناء عليه لازم فإن الله نجانا من النار وهدانا به إلى طريق الجنة ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله فأعظم الخلق منة وفضلاً على المسلم هو النبي محمد ﷺ ولذلك كان لابد من معرفة قدره وإتباع شرعه ومحبة مرافقته وكثرة الدعاء له والثناء عليه وإذا كان رب العالمين قد أعلى قدره ورفع ذكره وجعل له لسان صدق فى الأولين والآخرين وأخبرنا أنه وملائكته يصلون عليه وصلاة الله على النبي ﷺ تعنى ذكره بالثناء فى الملأ الأعلى وصلاة ملائكته تعني : دعاؤهم له عند الله سبحانه وتعالى ويا لها من مرتبة ومكانة فالكون كله الخالق والمخلوق يردد الثناء على النبي محمد ﷺ ويشرق به الكون وتتجاوب به أركانه وما من نعمة تفضل هذه النعمة فالواجب على أتباع دينه وأفراد أمته أن يكثروا من الصلاة عليه التي تعنى الدعاء له والثناء عليه وكلما أكثر المسلم من ذلك فاز بالقرب منه يوم القيامة وكان متناغماً متناسقاً مع الكون وضاعف الله له الأجر وأجزل له الثواب وأعطاه بصلاته على النبي ﷺ مغفرة ورحمة وذكراً فى الملأ الأعلى وأعطاه بالحسنة عشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء.

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

كلمة الصلاة تعنى فى أصل وضعها اللغوي : الدعاء ولكن الشرع يستخدمها غالباً فى غير ما وضعت له فإذا أطلق الشارع كلمة الصلاة فإنه يريد : العبادة المعروفة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم .

وقد جاء فى القرآن قول الله تعالى : " هو الذي يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور " (١) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (٢) وقد اختلف العلماء فى تحديد المراد بالصلاة فى هاتين الآيتين فقال ابن عباس : صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار وقال الضحاك بن مزاحم : صلاة الله رحمته وفى رواية عنه : مغفرته وصلاة الملائكة الدعاء . وتعقب بأن الله غاير بين الصلاة والرحمة فقال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (٣) وأحسن ما قيل هنا ما جاء عن أبى العالية قال : صلاة الله على نبيه ﷺ ثناؤه عليه عند ملائكته وصلاة الملائكة عليه الدعاء له .(٤)

والمراد بصلاة الله على خلقه : مغفرته لهم ومعنى صلاة الملائكة عليهم الاستغفار لهم والدعاء لهم .

فإن قيل : جاء فى القرآن أن الله يصلى على النبي ﷺ ويصلي على المؤمنين وإجماع الأمة منعقد على أن صلاة الله على نبيه ﷺ فيها من التعظيم له والتنويه بشأنه ما ليس فى غيرها ومالا يناسب غيره فما هو الفرق بين الصلاتين ؟ قيل : صلاة الله على خلقه تكون عامة وتكون خاصة فصلاة الله على الأنبياء صلاة خاصة وتعني : الثناء عليهم والتعظيم لهم وصلاة الله على غيرهم تعنى : رحمته بهم ومغفرته لذنوبهم وصلاة الله على نبيه محمد ﷺ صلاة

---

(١) الأحزاب : ٤٣ .

(٢) الأحزاب : ٥٦ .

(٣) البقرة : ١٥٧ .

(٤) البخاري كتاب التفسير باب " إن الله وملائكته يصلون على النبي " الآية ٣٩٢/٨ .

خاصة تعنى زيادة التشريف وعلو القدر قال القشيري : الصلاة على النبي ﷺ من الله تشريف وزيادة تكرمة وعلى من دون النبي ﷺ رحمة .

وقال الحليمى : معنى الصلاة على النبي ﷺ تعظيمه فمعنى قولنا : اللهم صلّ على محمد ﷺ : عظّم محمداً ﷺ والمراد : تعظيمه فى الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دينه وإبقاء شريعته وفى الآخرة بإجزال مثوبته وتشفيعه فى أمته وإبداء فضيلته بالمقام المحمود وبهذا التقرير يظهر الفرق بين صلاة الله على نبيه ﷺ وصلاته على سائر خلقه .

الفائدة الثانية :

من المتفق عليه عند جميع المسلمين أن الله أمرنا بالصلاة والسلام على نبيه محمد ﷺ ووعدنا على ذلك عظيم الأجر وكثير الثواب ولكن العلماء اختلفوا فيما بينهم حول حكم هذه الصلاة وحقيقة هذا الأمر ونستطيع أن نحصر أقوالهم في عشرة أقوال :

الأول : أنها واجبة فى الجملة من غير حصر عدد معين وأقل ما يحصل به الإجزاء مرة واحدة فى العمر وقد ادَّعى ابن القصار من المالكية الإجماع على ذلك .

الثاني : أنها واجبة فى العمر مرة بحيث تؤدَّى في الصلاة أو في غيرها وهى مثل كلمة التوحيد وهو قول أبي بكر الرازي وابن حزم وغيرهما قال القرطبى : لا خلاف فى وجوبها فى العمر مرة وأنها واجبة فى كل حين وجوب السنن المؤكدة . [1]

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٨/٥٣١٤ ، ٥٣١٥ .

الثالث : أنها واجبة فى التشهد الأخير فى الصلاة وهـو قـول الشـافعي وأحمد .

الرابع : أنها واجبة فى التشهد الأوسط والأخير وهو قول الشعبي وإسحاق ابن راهويه .

الخامس: أنها واجبة فى الصلاة من غير تعيين محل وهو قول أبي جعفر الباقر .

السادس : يجب الإكثار منها من غير تقييدٍ بعدد وهو قول أبـي بكـر بن بكير من المالكية .

السابع : أنها واجبة فى كل مجلس مرةً واحدة حتى لو تكرر ذكره مراراً حكاه الزمخشرى .

الثامن : أنها واجبة فى كل دعاء حكاه الزمخشرى أيضاً .

التاسع : أنها واجبة كلما سمع الإنسان اسم النبـي ﷺ قالـه : الطحـاوى وجماعة من الحنفية والحليمي وجماعة من الشافعية وجماعة من المالكية والحنابلة ، وقال ابن العربي والزمخشري : إنه الأحـوط وقد استدلوا لصحة مذهبهم بأدلة عديدة منها :

أ- الأحاديث الكثيرة التي ثبت فيها الحكم على تارك الصـلاة علـى رسول الله ﷺ إذا سمع اسمه بالرغم والإبعاد والشقاء والوصـف بالبخل والجفاء وهذا يقتضى الوعيد والوعيد علـى التـرك مـن علامات الوجوب .

ب- أن معنى الصلاة على النبي ﷺ مكافأته بالدعاء له نظير إحسـانه وإحسانه مستمر فيتأكد كلما ذكر اسمه .

ج- قولــه تعـــالى : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [(١)] قالوا : فلو كان إذا ذكر لا يصلى عليه لكـــان كآحـــاد الناس .

وقد رتَّب الحافظ الهيثمى بناءاً على هذا القول أن ترك الصلاة على رسول الله ﷺ عند سماع ذكره كبيرة فقال : عدُّ هذا كبيرة هو صريح الأحاديث لأنه ﷺ ذكر فيها وعيداً شديداً كدخول النار وتكرر الدعاء من جبريل والنبي ﷺ بالبعـد والسحق ومن النبي ﷺ بالذل والهوان والوصف بالبخل بل بكونه أبخل النـــاس وهذا كله وعيد شديد جداً فاقتضى أن ذلك كبيرة فعلى القول بالوجوب يُمكن أن يُقال : إن ترك الصلاة عليه ﷺ عند سماع ذكره كبيرة . [(٢)]

العاشرة : أنها مستحبة وهذا مذهب محمد بن جريــر الطبــري وادَّعـــى الإجماع عليه وقد ردَّ أصحاب هذا المذهب على القائلين بالوجوب بعدة أجوبة منها :

أ- أن هذا القول لا يُعرف عن أحدٍ من الصحابة أو التابعين فهو قـــولٌ مخترع فصيغة الأمر هنا لا تقتضى الوجوب لاتفاق جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة على أن ذلك غير لازم فرضـــاً حتـــى يكون تاركه عاصياً .

ب- لو كانت الصلاة على النبي ﷺ واجبة كلما ذكراسمه ﷺ للزم المؤذن إذا أذن وكذا سامعه وللزم القارىء إذا مرَّ ذكره فى القرآن وللـــزم الداخل فى الإسلام إذا تلفظ بالشهادتين وكان فى ذلك مـــن المشـــقة

---

(١) النور : ٦٣ .

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر للحافظ الهيثمى ١/١٩٢ .

والحرج ما جاءت الشريعة السمحة بخلافه ولكان الثناء على الله عزَّ وجل كلما ذُكر أحق بالوجوب ولم يقولوا به .

ج- أجابوا عن الأحاديث الواردة فى ذم التارك لذلك بأنها خرجت مخرج المبالغة فى تأكيد ذلك وطلبه وفى حق من اعتاد ترك الصلاة عليه حتى أصبحت عادة له وفى حق من ترك ذلك على وجهٍ يُشعر بعدم تعظيمه .[١]

والحقيقة أن للصلاة على النبي ﷺ من الفضل والثواب ما يجعل المسلم راغباً فى ذلك حريصاً عليه وهذا القدر متفقٌ عليه بين العلماء ولكنهم اختلفوا فى الحكم والراجح أنها مستحبة على الدوام وتزداد استحباباً وتأكُّداً إذا ذُكر اسمه ﷺ بحيث يكون التارك لذلك تاركاً للأولى ومفرِّطاً ومقصِّراً فى حق نفسه ورسوله ﷺ .

الفائدة الثالثة :

وردت أحاديث كبيرة تدل على فضل الصلاة على رسول الله ﷺ وكثرة ثوابها وعظيم الأجر المترتب عليها وأنها طريق إلى صلاة الله على عباده وقد رأيتَ أن صلاة الله على عباده تعنى رحمته بهم ومغفرته لذنوبهم فعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : " من صلَّى عليَّ من أمتي صلاةً مخلصاً من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات وكتب له بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات " [٢] وفى رواية عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " من صلّى عليّ صلاةً واحدةً صلى الله عليه عشراً ومن صلّى عليّ

---

[١] فتح الباري ١١/١٥٧ .

[٢] النسائي كتاب السهو باب الفضل فى الصلاة على النبي ﷺ ٣/٥٠ ، أحمد فى المسند ١١/٢٦٤ رقم ١٣٦٨٩ وإسناده صحيح ، وقال ابن جحر: رواتة ثقات فتح الباري ١١/١٧٢ .

عشراً صلى الله عليه مائة ومن صلّى عليّ مائة كتب الله بين عينيه براءةً من النفاق وبراءةً من النار وأسكنه الله يوم القيامة مع الشهداء " (١) .

وأولى الناس بالنبي ﷺ وأقربهم منه منزلة أكثرهم صلاة عليه فعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : " إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة " .(٢)

وعن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ: " صلاة أمتي تعرض عليّ في كل يوم جمعة فمن كان أكثرهم عليّ صلاةً كان أقربهم منى منزلة ".(٣)

وقد وصف النبي ﷺ من سمع اسمه ثم لم يُصلِّ عليه بالبخل فقال : " البخيل من ذُكرت عنده فلم يصلّ عليّ " (٤) ووجه وصفه بالبخل : أنه بامتناعه من الصلاة عليه قد شحَّ وامتنع من أداء حقٍ يتعيَّن عليه أداؤه امتثالاً للأمر ولما فيه من مكافأةٍ جزئيةٍ لمن كان سبباً فى سعادته الأبدية بل فى الحقيقة إنما شح وبخل عن نفسه ومنعها أن يصل إليها عطاء عظيم ممن يُعطي بلا حساب ولا تنقص خزائنه بالعطاء فبهذا الشح تفوته تلك الكنوز التي لولاه لكان يكتالها بالمكيال الأوفى من غير أدنى مشقة فلا أبخل من هذا والنبي ﷺ يستحق من أمته

---

(١) الطبراني فى المعجم الأوسط ١٨٨/٧ رقم ٧٢٣٥ ، وفى المعجم الصغير ١٢٦/٢ رقم ٨٩٩ ، وقال الهيثمى : فيه إبراهيم بن سالم لم أعرفه وبقية رجاله ثقات معجم الزوائد ١٦٣/١٠ ، وراجع : الترغيب والترهيب ٣٢٣/٢ .

(٢) الترمذي كتاب الوتر باب ما جاء فى فضل الصلاة على النبي ﷺ ٢٧/٢ رقم ٤٨٤ وقال : إسناده حسن .

(٣) البيهقى فى السنن الكبرى ٢٤٩/٣، وفى شعب الإيمان ١١٠/٣ رقم ٣٠٣٢ قال المنذري : إسناده حسن إلا أن مكحولاً قيل لم يسمع من أبى أمامة الترغيب والترهيب ٣٢٨/٢ ، وقال العجلونى : إسناده حسن كشف الخفاء ١٥١/١ .

(٤) أحمد فى المسند ٣٥١/٢ رقم ١٧٣٦ ، الحاكم فى المستدرك ٥٤٩/١ وصححه ووافقه الذهبي ، وابن السني فى عمل اليوم والليلة رقم ٣٧٦ .

أن يُصَلُّوا عليه فمن أمسك منهم عنها كان أشـــر الممســـكين وأشـــح الـــبخلاء المحرومين فيُخشى عليه المقت والبوار .

وقد ثبت أن النبي ﷺ دعا على من سمع اسمه ثم لم يصلّ عليه فدعا عليه بالذل والهوان والحقارة والصغار فقال : " رغم أنف رجل ذُكرت عنده فلم يصلّ عليّ " (١) .

ودعا عليه بالإبعاد والحرمان من الرحمة فعن جابر بن سمرة قال : قـــال رسول الله ﷺ : " من ذُكرت عنده ولم يصلّ عليّ فمات فـــدخل النـــار فأبعـــده الله " (٢).

وعن كعب بن عجرة قال : قال رسول الله ﷺ : " إن جبريل عرض لـــي فقال : بعد من ذكرت عنده فلم يصلّ عليك قلت آمين " (٣) .

وقد دعا عليه بالشقاء فعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : " شـــقي عبـــد ذُكرت عنده فلم يصلِّ عليّ " (٤) .

وكما توعَّد النبي ﷺ تارك الصلاة عليه فقد وعد من يكثر الصـــلاة عليـــه بكفاية الهموم ومغفرة الذنوب فعن أُبيّ بن كعب قال : كـــان رســـول الله ﷺ إذا ذهب ثلث الليل قام فقال : " يا أيها الناس اذكروا الله جـــاءت الراجفـــة تتبعهـــا الرادفة جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه " قلت : يا رسول الله إني أكثـــر

---

(١) الترمذي كتاب الدعوات باب قول رسول الله ﷺ رغم أنف رجل ٥/٣٢٠ رقم ٣٥٥٦ وحسنه ، وأحمـــد فـــى المسند ٧/٢٥١ رقم ٧٤٤٤ وصححه أحمد شاكر .

(٢) الطبراني فى المعجم الكبير ٢/٢٤٣ رقم ٢٠٢٢ .

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك ٤/١٧٠ رقم ٧٢٥٧ وصححه ، وقال الهيثمى : رجاله ثقـــات مجمـــع الزوائـــد ١٠/١٦٦ ، وذكره الكتاني فى نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص ١٤٢ رقم ١٢٦ .

(٤) البخاري فى الأدب المفرد ١/٢٢٤ رقم ٦٤٤ .

الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ فقال : " ما شئت " قلت : الربع ؟ قال : " ما شئت فإن زدت فهو خير لك " قلت : فالنصف ؟ قال : " ما شئت فإن زدت فهو خير لك " قلت : فالثلثين ؟ قال : " ما شئت فإن زدت فهو خير لك " قلت : أجعل لك صلاتي كلها قال : إذاً تُكفى همك ويغفر لك ذنبك " (١) .

ووجه كفاية الهم ومغفرة الذنب بالاشتغال بالصلاة على رسول الله ﷺ اشتمالها على فوائد عديدة منها :-

أ - امتثال أمر الله تعالى .

ب - ذكر الله وتعظيمه وتعظيم رسوله ﷺ .

وقد جاء فى الحديث القدسي " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين " (٢) . ففي الحقيقة لم يفت بذلك الذكر شيء على المصلي بل حصل له بتعرضه بذلك الثناء الأعظم أفضل ما كان يدعو به لنفسه وحصل له مع ذلك صلاة الله وملائكته مع ما انضمَّ لذلك من الثواب الذي لا يوازيه ثواب فأي فوائد أعظم من هذه الفوائد ومتى يظفر المُتعبد بمثلها فضلاً عن أنفس منها وأنَّى يوازي دعاؤه لنفسه واحدة من تلك الفضائل التي ليس لها مماثل ببركتة ﷺ ويكفي المصلي على الرسول ﷺ شرفاً وفضلاً أن الله يصلي عليه بأعداد مضاعفة كما معنا فى الحديث وكما جاء عن عبد الرحمن بن عوف قال خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون الله قد توفاه فجئت أنظر فرفع رأسه فقال : " مالك يا عبد الرحمن ؟ " قال : فذكرت ذلك له قال : فقال : " إن جبريل قال لي : ألا يسرُّك أن الله

---

(١) الترمذي كتاب صنفه القيامة ٢٠٧/٥ رقم ٢٤٥٦ وقال حديث حسن صحيح .

(٢) البخاري فى خلق أفعال العباد ص ٦٩ ، والترمذي بلفظ من شغله القرآن وذكري كتاب فضائل القرآن ٤٢٥/٤ رقم ٢٩٣٥ وقال : حديث حسن .

عز وجل يقول : من صلَّى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليــه " . [١] وقال عبد الله بن عمرو : من صلَّى على النبي ﷺ صلاةً واحــدةً صــلى الله عليه وملائكته سبعين صلاة فليُقلّ عبدٌ من ذلك أو ليُكثر [٢] . وعن أبى طلحــة الأنصاري أن رسول الله ﷺ جاء ذات يومٍ والسرور فى وجهه فقالوا : يا رسول الله إنا لنرى السرور فى وجهك فقال : " إنه أتاني الملك فقال يــا محمــد أمــا يُرضيك أن ربك عز وجل يقول : إنه لا يُصلِّي عليك أحدٌ من أمتك إلا صــليت عليه عشراً " [٣] .

وقال سهل بن عبد الله : الصلاة على محمدٍ أفضل العبادات لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ثم أمر بها المؤمنين وسائر العبادات ليس كذلك .

الفائدة الرابعة :

للصلاة على النبي ﷺ فضل كبير وثواب عظيم في كل وقت ولكــن هــذا الثواب يزداد ويعظُم فى أوقاتٍ معيَّنة منها :

أ- يوم الجمعة ففي الحديث عن أوس بن أوس قال : قال رســول الله ﷺ : " إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا عليّ من الصــلاة فيــه فــإن صلاتكم معروضة عليّ " قالوا : يا رسول الله وكيف تُعــرض صــلاتنا

---

[١] أحمد فى المسند ٣٠٨/٢ رقم ١٦٦٢ وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

[٢] أحمد فى المسند ١٧٦/٦ رقم ٦٦٠٥ وإسناده حسن راجــع : مجمــع الزوائــد ١٠/ ١٦٠ ، والترغيــب والترهيب ٢٧٩/٢ .

[٣] النسائي كتاب السهو باب فضل التسليم على النبى ﷺ ٤٤/٣ ، أحمد فى المسند٥٣٤/١٢ رقــم ١٦٣١٣ وإسناده ضعيف .

عليك وقد أرمت – أي بليت – قال : " إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء " [١].

ب- عقب إجابة المؤذن فعن عبد الله بن عمرو أنه سمع النبي ﷺ يقول : " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلُّوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلاةً صلّى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة " [٢] .

ج- أول الدعاء وأخره فعن فضالة بن عبيد قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصلّ على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: " عجل هذا " ثم دعاه فقال له أو لغيره : " إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه والثناء عليه ثم يصلِّي على النبي ﷺ ثم يدعو بعد بما شاء " [٣] .

وقال عمر بن الخطاب : إن الدعاء موقوفٌ بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك ﷺ [٤] .

---

[١] أحمد فى المسند ٤٧٤/١٢ رقم ٦١٠٧ ، أبو داود كتاب الصلاة باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة ٢٧٤/١ . والحاكم فى المستدرك ٥٦٠/٤ وصححه ووافقه الذهبي .

[٢] مسلم كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ٢٨٨/١ رقم ٣٨٤ .

[٣] أحمد فى المسند ١٧٧/١٧ رقم ٢٣٨٢١ ، والترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء فى جامع الدعوات عن رسول الله ﷺ ٢٩١/٥ رقم ٣٤٨٨ وقال : حديث حسن صحيح .

[٤] الترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء فى فضل الصلاة على النبى ٢٨/٢ رقم ٤٨٦ .

وقال علي بن أبي طالب : كل دعــاء محجــوب حتــى يُصــلّى علــى محمد ﷺ [١] .

وقال أبو سليمان الدارانى : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبــدأ بالصــلاة على النبي ﷺ ثم يسأل الله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ فإن الله تعــالى يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يرد ما بينهما [٢] .

د- عند الجلوس فى أي مجلس وقبل القيام منه فعن أبى سعيد الخدري قال : ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون علــى النبــي ﷺ إلا كــان عليهم يوم القيامة حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون مــن الثــواب [٣] . وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " ما جلس قومٌ مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم ﷺ إلا كان عليهم ترة يوم القيامة فإن شاء عذَّبهم وإن شاء غفر لهم " [٤] .

هـ- عند دخول المسجد وعند الخروج منه فعن فاطمة بنت رســول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلَّى على محمدٍ وسلم ثــم قال : " اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك " وإذا خرج صلَّى

---

[١] الطبراني فى المعجم الأوسط ٢٢٠/١ رقم ٧٢١ ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات مجمــع الزوائــد ٢٤٧/١٠ رقم ١٧٢٧٨ ، والبهيقى فى شعب الإيمان ٢١٦/٢ رقم ١٥٧٥.

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٥٣١٧/٨ .

[٣] النسائي فى عمل اليوم والليلة رقم ٤٠٩ .

[٤] أحمد فى المسند ٤٣٤/٩ رقم ١٠٢٢٦ ، والترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء فــى القــوم يجلســون ولا يذكرون الله ٢٤٧/٥ رقم٣٣٩١ وقال : حسن صحيح .

على محمد وسلم ثم قال : " الله اغفر لي ذنــوبي وافــتح لــي أبــواب فضلك " [١] .

و- فى التشهد الأخير فى الصلاة فعن كعب بن عجرة قال : خــرج علينــا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك ؟ قال : قولوا : " اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمــد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد " [٢] .

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة وقد ذهب الشافعي وأحمد إلى وجوب الصلاة على رسول الله ﷺ فى التشهد الأخير وذهب جمهور العلماء إلى أنها سنة مستحبة .

ز- الصلاة عليه في صلاة الجنازة فإن من السنة أن يقرأ فى التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ثم يصلي على النبي ﷺ بعد الثانية ثم يدعو للميــت بعــد الثالثة ثم يقول بعد الرابعة : اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفــر لنا وله .

ح- فى دعاء القنوت فعن الحسن بن علي قال : علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر " اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت فإنك تقضي ولا

---

(١) أحمد فى المسند ٢١٩/١٨ رقم ٢٦٢٩٩ ، والترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء ما يقول عند دخول المسجد ٣٣٩١/١ رقم ٣١٤ وقال : حديث حسن .

(٢) البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى : " واتخذ الله إبــراهيم خلــيلاً " ٤٦٩/٦ رقــم ٣٣٧٠ ، مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد ٣٠٥/١ رقم ٤٠٦ .

يقضى عليك وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت تباركت ربنا وتعاليت وصلى الله على محمد ﷺ " [١] .

الفائدة الخامسة :

الثابت فى القرآن والسنة أن الله وملائكته يصلون على النبي ﷺ وأن الله أمر المؤمنين بالصلاة على نبيه محمد ﷺ ولكن هل تجوز الصلاة على غيره من الأنبياء ؟ ذهب فريق من العلماء إلى القول باختصاص النبي ﷺ بذلك ومنع الصلاة على غيره من الأنبياء قال ابن عباس : ما أعلم الصلاة تنبغي على أحدٍ إلا على النبي ﷺ ولكن للمسلمين والمسلمات الاستغفار .[٢]

وحُكي هذا القول عن مالك وقال : ما تعبدنا به .

وذهب جمهور العلماء إلى مشروعية الصلاة على الأنبياء جمعياً قال عياض :عامة أهل العلم على الجواز وهو قول المحققين من المتكلمين والفقهاء . وحكى عن مالك أنه يجيز الصلاة على الأنبياء فقط فقال : أكره الصلاة على غير الأنبياء وما ينبغي لنا أن نتعدَّى ما أمرنا به ، وقال سفيان الثوري : يكره أن يصلى إلا على نبي .

وأما الصلاة على غير الأنبياء فللعلماء فيها مذاهب :

(١) أنها تجوز مطلقاً وهو مذهب أحمد وجماعة ومال إليه البخاري واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [٣]، وبقوله تعالى :

---

[١] أبو داود كتاب الصلاة باب القنوت فى الوتر ٦٤/٢ رقم ١٤٢٥ ، والترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء فى القنوت فى الوتر ١١/٢ رقم ٤٦٣ وقال : هذا حديث حسن .

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٣٠٨٨/٥ .

[٣] الأحزاب : ٤٣ .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [1] ، وبقوله: ﴿ أُوْلَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [2] وبحديث عبد الله ابن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : " اللهم صلّ عليهم " فأتاه أبيّ بصدقته فقال : " اللهم صلّ على آل أبى أوفى " [3] . وبحديث جابر أن امرأته قالت يا رسول الله صلي عليّ وعلى زوجي فقال: " صلَّى الله عليك وعلى زوجك " [4] . قال البيهقي : يُحمل قول ابن عباس بالمنع إذا كان على وجه التعظيم لا ما إذا كان على وجه الدعاء بالرحمة والبركة .

(٢) أن الصلاة على غير الأنبياء لا تجوز استقلالاً وإنما تجوز تبعاً فيما ورد به النص أو أُلحق به وهو قول الشافعي واختاره القرطبي من المالكية وأبو المعالي من الحنابلة واختاره أيضاً ابن تيمية .

(٣) قال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة أما إذا كانت على سبيل التبعية فلا بأس بذلك كما يُقال اللهم صلّ على محمد وآله وأزواجه وذريته ، قال ابن كثير : وهذا جائز بالإجماع [5] . قال ابن القيم : المختار أن يُصلى على الأنبياء والملائكة وأزواج النبي ﷺ وآله وذريته وأهل الطاعة على سبيل الإجمال وتكره فى غير الأنبياء

---

[1] التوبة : ١٠٣ .

[2] البقرة : ١٥٧ .

[3] البخاري كتاب المغازي باب غزوة الحديبية ٥١٣/٧ رقم ٤١٦٦ ، مسلم كتاب الزكاة باب الدعاء لمن أتى بصدقة ٧٥٦/٢ رقم ١٠٧٨ .

[4] أحمد فى المسند ١١٦/١٢ رقم ١٥٢١٨ ، أبو داود كتاب الصلاة باب الصلاة على غير النبي ﷺ ٩٠/٢ رقم ١٥٣٣ .

[5] تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٣٢/٣ .

لشخص مفرد بحيث يصير شعاراً ولاسيَّما إذا ترك فى حــق مثلــه أو أفضل منه كما يفعله الروافض فلو اتفق وقوع ذلك مفرداً فــى بعــض الأحايين من غير أن يتخذ شعاراً لم يكن به بأس ولهذا لم يرد فى حــق غير من أمر النبي ﷺ بقول ذلك لهم وهم من أدَّى زكاته إلا نادراً (١) .
وقال هذا الفريق : هذا النوع مأخوذٌ من التوقيف واستعمال السلف ولــم ينقل استعمالهم ذلك بل خصوا به الأنبياء كما خصوا الله تعالى بالتقديس والتسبيح فيقال : قال الله سبحانه وتعالى وقال الله تعالى وقال عز وجل ونحو ذلك ولا يقال قال النبي ﷺ عز وجل وإن كان عزيزاً جلــيلاً ولا نحو ذلك . وأجابوا عن أدلة المجيزين لذلك مطلقاً واستدلالهم بــوروده فى الحديث بأن لصاحب الحق أن يتفضَّل من حقه بما يشاء وليس لغيره أن يتصرَّف إلا بإذنه ولم يثبت عنه إذن فى ذلك ، قال ابــن حجــر : ويقوي المنع بأن الصلاة على غير النبي ﷺ صــارت شــعاراً لأهــل الأهواء يصلون على من يعظمونه من أهل البيت وغيرهم وهل المنــع فى ذلك حرام أو مكروه أو خلاف الأولى ؟ الصحيح أنه مكــروه (٢) .
قال ابن حجر : سُئلت عن إضافة الصلاة إلى الله دون الســلام وأمــر المؤمنين بها وبالسلام فقلت : يُحتمل أن يكون السلام له معنيان : التحية والانقياد فأُمر به المؤمنون لصحتهما منهم والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد فلم يضف إليهم دفعاً للإيهام والله أعلم (٣) .

---

(١) فتح الباري ١١/١٧٤ ، ١٧٥ .
(٢) فتح الباري ٨/٣٩٤ ، ٣٩٥ .
(٣) فتح الباري ٨/١٩٣ .

الدروس المستفادة من الحديث

١- فضل الصلاة على رسول الله ﷺ ومعرفة قدر ما لها من أجر وثواب .

٢- إن صلاة الله على عباده رحمة بهم وصلاة الملائكة استغفار ودعاء .

٣- أنه يُستحب لمن رغَّب غيره فى خير أو دعاه إلى فعل طاعة أن يذكر له شيئاً من فوائدها لينشطوا بذلك لهذا العمل .

٤- أن للصلاة على رسول الله ﷺ أوقاتاً تكون واجبة فيها أو شديدة الاستحباب وعلى المسلم أن يحرص على الصلاة على الرسول ﷺ فيها .

وجوب صيانة الأعراض

عن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال : (من رَدّ عن عِرض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة) .

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث :

(أ) أحمد في المسند ٥٧٩/١٨ رقم ٢٧٤٠٧ وقال محققه : إسناده حسن ، وفي ٥٨١/١٨ رقم ٢٧٤١٤ وقال محققه : إسناده صحيح .

(ب) الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في الذَبِّ عن عِرض المسلم ٣٧٤/٣ رقم ١٩٣٨ وقال : هذا حديث حسن .

(ج) البيهقي في شعب الإيمان ١١١/٦ رقم ٧٦٣٥ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الإمام القدوة والصحابي الجليل قاضي دمشق : عويمر بن زيد بن قيس أبو الدرداء الأنصاري الخزرجي ، مشهور باسمه وكنيته جميعاً ، كان من آخر الأنصار إسلاماً ، وكان يعبد صنماً فدخل عبد الله ابن رواحة ومحمد بن مسلمة بيته فكسروا صنمه فرجع فجعل يجمع الصنم ويقول : ويحك هلاّ امتنعت ألا دفعت عن نفسك ، فقالت أم الدرداء : لو كان ينفع أو يدفع عن أحدٍ دفع عن نفسه ونفعها .

فقال أبو الدرداء : أعدّي لي ماءً في المغتسل فاغتسل ولبس حُلّته ثم ذهب إلى النبي ﷺ فنظر إليه ابن رواحة مقبلاً فقال : يا رسول الله هذا أبو الدرداء

وما أراه إلا جاء في طلبنا ؟ فقال ﷺ : " إنما جاء ليُسلم إن ربي وعدني بـأبي الدرداء أن يُسلم " . [١]

أسلم يوم بدر وشهد أحداً وأبلى فيها بلاءً حسناً حتى قال رسـول الله ﷺ : " نِعم الفارس عويمر " [٢] ، رُزق الحكمة وحُسن الفهم حتى أُطلق عليه حكـيم الأمة ، وقال عنه رسول الله ﷺ : " هو حكيم أمتي " [٣].

جمع القرآن في حياة النبي ﷺ ثم تصدَّر لإقراء القرآن بدمشق في خلافـة عثمان فكان يجتمع في حلقته أكثر من ألف رجل فيجعل لكل عشرةٍ منهم مُلقِّناً ثم يطوف عليهم قائماً فإذا أحكم الرجل منهم – أي أتقن القراءة – تحوَّل إلى أبـي الدرداء ليعرض عليه ، فكان سيِّد القُرَّاء في دمشق .

وكان مجتهداً في العبادة يصوم النهار ويقوم الليل ويُكثر من الذكر وتلاوة القرآن ، قيل له : كم تسبِّح كل يوم ؟ قال : مائة ألف إلا أن تُخطئ الأصابع [٤] وقد عرف الصحابة فضله وقدره فكـانوا يقولـون : أتبعنـا للعلـم والعمـل أبو الدرداء . [٥]

ولما حضرت الوفاة معاذاً قال لأصحابه : التمسوا العلم عند أربعة عند : أبي الدرداء وسلمان وابن مسعود وعبد الله بن سلام . [٦]

---

[١] سير أعلام النبلاء ٣٤٠/٢ ، المستدرك للحاكم ٣٨٠/٣ .

[٢] مسند الشاميين للطبراني ٨٨/٢ رقم ٩٦٧ ، وانظر : تهذيب الكمال ٤٧٣/٢٢ ، سير الأعلام ٣٣٨/٢ .

[٣] مسند الحارث بن أبي أسامة مع زوائد الهيثمي ٩٢٥/٢ رقم ١٠١٩ ، مسند الشاميين للطبراني ٨٨/٢ رقم ٩٦٧ .

[٤] سير الأعلام ٣٤٨/٢ .

[٥] التاريخ الكبر للبخاري ٧٦/٧ .

[٦] المعجم الكبير للطبراني ١١٦/٢٠ ، التاريخ الصغير للبخاري ٧٣/١ رقم ٢٨٤ .

وقال له أبو ذر : ما حملت ورقاء ولا أظلت خضراء أعلم منك يـا أبـا الدرداء . [١]

وقال يزيد بن معاوية : إن أبا الدرداء من العلماء الفقهاء الذين يشفون من الداء . [٢]

وكان ابن عمر يقول : حدِّثونا عن العاقِلَيْن فيُقال من العاقلان ؟ فيقـول : معاذ وأبو الدرداء . [٣] ومن أقواله المأثورة :

إن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله فإذا أبغضه الله بغّضه إلى عباده

وقال : تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة .

وقال : لولا ثلاث ما أحببت البقاء : ساعة ظمأ الهواجر والسجود في الليل ومجالسة أقوام ينتقون جيد الكلام كما تنتقى أطايب التمر .

وتحكي عنه زوجه أم الدرداء فتقول : كان لأبي الدرداء ستون وثلاثمائـة خليل في الله يدعو لهم في الصلاة فقلت له في ذلك فقال : إنه ليس رجلٌ يـدعو لأخيه في الغيب إلا وكّل الله به ملكين يقولان : ولكَ بمثل أفلا أرغب أن تدعو لي الملائكة . [٤]

روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ مائةً وتسعةً وسبعون حديثاً ، اتفق الشيخان على حديثين منها وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بثمانية .

---

[١] سير الأعلام ٢/٣٤٣ .

[٢] حلية الأولياء ١/٢٢٥ .

[٣] الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/٢٧ .

[٤] راجع سير الأعلام ٢/٣٤٧ – ٣٥٠ .

كما روى عن زيد بن ثابت وأبو أمامة وفضالة بن عبيد وغيرهم ، وروى عنه من الصحابة : أنس بن مالك وعبد الله بن عمرو وأبو أمامة وغيرهم وروى عنه خلق من التابعين منهم : سعيد بن المسيب وأبو إدريس الخولاني وعطاء بن يسار وخالد بن معدان وجبير بن نفير وزوجه أم الدرداء وابنه بلال وغيرهم .

لمَّا حضره الموت جعل يقول : من يعمل لمثل يومي هذا ؟ من يعمل لمثل مضجعي هذا ؟ توفي سنة اثنتين وثلاثين ، فرضي الله عنه وأرضاه .

معاني المفردات

ردّ : الرد هو صرف الشيء ورجعه والمراد هنا : منع الغيبة عن أخيه .

عرض : العرض هو : موضع المدح والذم من الإنسان سواءً كان في نفسه أو في سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه أن يُنتقص ويُثلب ، وقال ابن قتيبة : عرض الرجل نفسه وبدنه لا غير .[1]

أخيه : المراد أخوه في الإسلام وهو أعم من أخوة النسب قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .[2]

ردَّ الله عن وجهه النار : أي صرف الله عن وجه الراد نار جهنم ، **قال المناوي** : أى عن ذاته العذاب وخُصَّ الوجه لأن تعذيبه أنكى في الإيلام وأشد في الهوان .[3]

---

[1] النهاية في غريب الحديث ١٨٩/٣.

[2] الحجرات : ١٠ .

[3] فيض القدير ١٣٥/٦ .

المعنى الإجمالي للحديث

المسلمون جميعاً إخوة تربطهم العقيدة وتجمع بينهم أحكام الشريعة فيشعرون أنهم جسدٌ واحد يجلب لنفسه النفع ويدفع عنه الضر ، فإذا امتدت يدٌ لإيذاء هذا الجسد دون غرضٍ صحيح ومصلحةٍ شرعية امتدَّت إليه الأيدي تمنعه وتحول بينه وبين ذلك فيحتفظ الجسد بصحته ونضرته وقوته .

فإذا أصاب المرض جزءاً منه وامتد بالأذى نحو غيره وجب كفُّه عن ذلك ولو أدّى ذلك إلى بتره ، والتضحية بالأقل واجبة في سبيل الحفاظ على الأكثر وحق المجتمع مقدَّم على حق الفرد فإن تُرك المرض يسري فيه دون علاج دبّ فيه الخَوَر وأضعفه المرض وأنهكه الضعف وقضى عليه الفساد .

والنبي ﷺ في هذا الحديث يلفت نظرنا إلى أهمية صيانة المجتمع من أسباب الضعف فإذا حاول إنسان ذكر آخر بسوء في غيبته دون حاجة شرعية فالواجب على جلسائه أن يمنعوه من ذلك وينصحوه ويُحذِّروه من خطورة الغيبة وما يترتب عليها من ضرر وإثم فإذا فعلوا ذلك ردّ الله عن وجوههم النار يوم القيامة جزاءاً وفاقاً لأنهم ردّوا المغتاب إلى الحق وحالوا بينه وبين العذاب فجازاهم الله برد العذاب عنهم يوم القيامة .

ولأنهم ردُّوا عن المغتاب ما يُقال في حقه في غيبته ، وأحسنوا الظن به فكافئهم الله برد النار عنهم وعتقهم منها وجعل من عملهم هذا حجاباً بينهم وبينها فعن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ قال : " من ردَّ عن عرض أخيه الغيبة كان حقاً على الله أن يُعتقه من النار " . [1]

---

[1] أحمد في المسند ٦٠١/١٨ رقم ٢٧٤٨١ ، وإسناده صحيح .

وقد عدّ العلماء من حقوق الأخ على أخيه : رد غيبته والدفاع عنه وإحسان الظن به ونشر حسناته وستر سيئاته ، وعدّوا نقيض ذلك نقصاً يحبط الأخوة .

قال الغزالي : فأخسس بأخٍ يراك والكلاب تفترسك وتُمزّق لحومك وهــو ساكت لا تُحرّكه الشفقة والحميَّة للدفاع عنك ، وتمزيق الأعراض أشــد علــى النفوس من تمزيق اللحوم . [١]

ولذلك قال أحد الصالحين : ما ذُكر أخٌ لي بغيبةٍ إلا تصوَّرته جالساً فقلت فيه ما يحب أن يسمعه لو كان حاضراً .

وبهذا يسلم المجتمع من الفساد ويخلو من الضعف ويأمن فيه الأفراد على أعراضهم كما أمنوا على دمائهم وأموالهم .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

حرَّم الإسلام الغيبة وجعلها من كبائر الذنوب صوناً للأعراض أن تُنتهــك وحمايةً للمجتمع أن يدُبَّ الوهن في أركانه ، فإذا غفل مسلم عن ذلك ووقع فيها بجهلٍ أو شهوة فالواجب على جلسائه الإنكار عليه ونهيه عن ذلك والدفاع عــن المسلم في غيبته وحسن الظن به ، وفي الحديث : " من ذبّ عن عرض أخيــه الغيبة كان حقاً على الله أن يُعتقه من النار " . [٢]

فالمسلم يُحب إخوانه ويدعو لهم ويثني عليهم بما عرف من طيّب أعمالهم وقلبه خالٍ من الغل والحقد والحسد قــال تعــالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ

---

[١] إحياء علوم الدين ١٦٥/٢ .

[٢] هو حديث أسماء السابق تخريجه .

يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ .(١)

فإذا أصرَّ المغتاب على معصيته فالواجب على المسلم أن يعتزل مجلسه لأن المستمع شريك المغتاب والراضي كالفاعل ، فالإعراض عنه واجب حتى يخوض في حديثٍ غيره حتى لا يدخل في سخط الله ويكون شريكاً في الإثم ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ (٢) وقال أيضاً : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٣) .

ولأن من كذب لك أوشك أن يكذب عليك ، ومن اغتاب غيرك عندك أوشك أن يغتابك عند غيرك ، سنة الله في عبادة ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

قال القرطبي : فكل من جلس في مجلس معصية ولم يُنكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء ، وينبغي أن يُنكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية .

---

(١) الحشر : ١٠ .

(٢) النساء : ١٤٠ .

(٣) الأنعام : ٦٨ .

وقد رُوي عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوماً يشربون الخمر فقيل لـــه عن أحد الحاضرين : إنه صائم فحمل عليه الأدب ، وقرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [١] ، أي أن الرضا بالمعصية معصية ، ولهذا يؤاخذ الفاعل والراضي بعقوبة العاصي حتى يهلكوا بأجمعهم . [٢]

فالإسلام حينما يُحرِّم شيئاً يُحرِّم الرضا به أو الاشتراك فيه ، لأن الإنسان ربما سمع الغيبة فأنكرها ثم يسمعها فيصمت حتى يألف سماعها وربما شـــارك فيها ، وفي الحديث : " من كان يؤمن الله واليوم الآخر فلا يجلس علـــى مائـــدة عليها الخمر " [٣] ولو لم يشربها .

وقد يُظهر المستمع تعجُّبه من الغيبة وما يقصد بـــذلك إلا زيـــادة نشـــاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج منه الغيبة بهذا الطريق فيقول له : عجيبٌ هذا ما علمت أنه كذلك ما عرفت عنه إلا خيراً كنت أحسب أنه غير ذلك عافانا الله من بلائه .

قال الغزالي [٤] فإن كل ذلك تصديقٌ للمغتاب ، والتصديق بالغيبة غيبـــة ، بل الساكت شريك المغتاب والمستمع أحد المغتابين ، والأدلة على ذلـــك كثيـــرة منها :

لمَّا اعترف ماعز على نفسه بالزنا ورجمه رسول الله ﷺ سمع النبـــي ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه : انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم

---

[١] النساء : ١٤٠ .

[٢] تفسير القرطبي ١٩٨٨/٣ .

[٣] الطبراني في المعجم الكبير ١٩١/١١ رقم ١١٤٦٢ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٧١/٤ رقـــم ٦٧٤١ ، والبيهقي في شعب الإيمان ١٢/٥ رقم ٥٥٩٦ .

[٤] إحياء علوم الدين ١٣٨/٣ .

تدَعه نفسه حتى رُجم رَجم الكلب ، فسكت عنهما ثم سار ساعةً حتى مرَّ بجيفة حمار شائل برجله ، فقال ﷺ : " أين فلان وفلان ؟ " فقالا : نحن ذا يا رسول الله قال : " انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار " فقالا : يا نبي الله من يأكل من هذا ؟ قال : " فما نلتما من عرض أخيكما آنفاً أشد من أكلٍ منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها " . (١)

فانظر كيف جمعهما وشرّك بينهما في الإثم مع أن القائل واحد والثاني مستمع .

وعن أنس بن مالك قال : كانت العرب تخدم بعضها بعضاً في الأسفار ، وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما فقاما فاستيقظا ولم يهيئ لهما طعاماً فقال أحدهما لصاحبه : إنه لنئوم فأيقظه فقال : ائت رسول الله ﷺ فقل له : إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام وهما يستأدمانك فقال : " اقرئهما السلام وأخبرهما أنهما قد ائتدما " ففزعا فجاءا إلى النبي ﷺ فقالا : يا رسول الله بعثنا إليك نستأدمك فقلت : قد ائتدما فبأى شيىء ائتدمنا ؟ قال : " بلحم أخيكما والذى نفسى بيده إنى لأرى لحمه بين أنيابكما " قالا : فاستغفر لنا قال : " هو فليستغفر لكما " (٢).

فجمعهما معاً مع أن القائل واحد والآخر مستمع .

فالمستمع شريك في الإثم إلا إذا أنكر فإن استطاع أن يقطع الكلام بكلامٍ آخر فعل ، وإلا قام من المجلس .

---

(١) أبو داود كتاب الحدود باب رجم ماعز بن مالك ١٤٦/٤ رقم ٤٤٢٨ ، ابن حبان في صحيحه ٢٤٤/١٠ رقم ٤٣٩٩ .

(٢) الأحاديث المختارة للضياء المقدسي ٧١/٥ رقم ١٦٩٧ .

قال النووي : ينبغي لمن سمع غيبة مسلمٍ أن يرُدَّها ويزجر قائلها فإن لم ينزجر بالكلام زجره بيده فإن لم يستطع باليد ولا باللسان فارق ذلك المجلس . [1]

وقد شدَّد النبي ﷺ في ذلك وحذَّر منه فقال : " ما من امرئ يخذُل امرءًا مسلماً في موضعٍ تُنتهك فيه حرمته ويُنتقص فيه من عِرضه إلا خذله الله في موطنٍ يحب فيه نصرته ، وما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضعٍ يُنتقص فيه من عرضه ويُنتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب نصرته ومن حمى عرض مسلم حماه الله من النار ومن اغتاب مسلماً حُبس على جسر جهنم حتى يحاسب على ما قال [2].

فعن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : " من حمى مؤمناً من منافق أُراه قال : بعث الله تعالى ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مسلماً بشئ يريد شينه حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال " . [3]

الفائدة الثانية :

أمرنا الله عز وجل بالاقتداء برسوله ﷺ ووَصفه بالخلق العظيم وقد ضرب لنا النبي ﷺ أروع الأمثلة وأعظم المواقف في إحسان الظن بالمسلمين والدفاع عنهم في غيبتهم ، وهذه أمثلة تؤكِّد ذلك وتوضحه .

---

[1] الأذكار ص ٤٠٣ .

[2] أحمد في المسند ٥٣٦/١٢ رقم ١٦٣٢٠ ، أبو داود كتاب الأدب باب من رد عن مسلم غيبة ٢٧٢/٤ رقم ٤٨٨٤ وإسناده حسن .

[3] أحمد في المسند ٢٥٧/١٢ رقم ١٥٥٨٦ ، أبو داود كتاب الأدب باب من رد عن مسلم غيبة ٢٧٢/٤ رقم ٤٨٨٣ وإسناده حسن .

في حديث عتبان بن مالك الطويل أن رسول الله ﷺ قام يُصلِّي فقال بعض الصحابة : أين مالك بن الدُّخشم ؟ فقال رجل : ذلك منافق لا يحب الله ورسوله فلما فرغ الرسول ﷺ من صلاته قال له : " لا تقل ذلك ألا تراه قد قال : لا إلــه إلا الله يريد بذلك وجه الله " . (١)

فانظر فقَّهك الله كيف لم يُرد النبي ﷺ أن يُغتاب صاحبه في حضرته فــردَّ عنه ودافع عن عِرضه بما يعلم فيه .

وقد استوعب الصحابة الدرس وساروا على خطى النبي ﷺ ففي حــديث كعب بن مالك الطويل في حكاية تخلُّفه عن غزوة تبوك قال : قال النبي ﷺ وهو جالس في القوم بتبوك : " ما فعل كعب بن مالك ؟ " فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه بُرداه والنظر في عطفيه فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمتُ عليه إلا خيراً فسكت رسول الله ﷺ . (٢) أي مقــراً لإنكار معاذ على من فعل غيبة أو تلبَّس بها وتشريعاً لمن كان مثله أن يرد على المغتاب ، وقد أوصى الصحابة بذلك ، فقال جابر بن عبد الله : من نصر أخــاه المسلم بالغيب نصره الله في الدنيا والآخرة ، وقال العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله : إني أرى هذا الرجل – يعني عمر بن الخطاب – يُقدِّمك على الأشياخ فاحفظ عني ثلاثاً : لا تفشين له سراً ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا تجرين عليه كذبا . قال الشعبي : كل كلمةٍ من هذه الثلاث خيرٌ من ألف ، فقال ابن عباس : ومن عشرة آلاف . (٣)

---

(١) البخاري كتاب الصلاة باب المساجد في البيوت ٦١٨/١ رقم ٤٢٥ ، مسلم كتاب المساجد ومواضع الصــلاة باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر ٤٥٥/١ رقم ٣٣ .

(٢) البخاري كتاب المغازي باب حديث كعب بن مالك ٧١٧/٧ رقم ٤٤١٨ ، مسلم كتاب التوبة باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٢١٢٠/٤ رقم ٢٧٦٩ .

(٣) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٩٥٧/٢ رقم ١٨٦٢ ، سير أعلام النبلاء ٣٤٦/٣ .

وقد تبعهم على هذا المسلك الكريم والسلوك المستقيم والنهج المبارك السلف الصالح ، فكان ميمون بن سياه لا يغتاب أحداً ولا يدع أحداً يغتاب عنده أحداً . (١)

ودُعي إبراهيم بن أدهم إلى وليمة فلما حضر ذكروا رجلاً لم يأتهم فقالوا : إنه ثقيل . فقال إبراهيم : أنا فعلت هذا بنفسي حيث حضرت موضعاً يُغتاب فيه الناس فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام قال الشاعر :

وسمعك صُن عن سماع القبيح ** كصون اللسان عن النطق به

فإنك عند سماع القبيح ** شريك لقائله فانتبه

الدروس المستفادة من الحديث

١) وجوب صيانة الأعراض بحسن الظن وترك الغيبة .
٢) اعتزال مجالس السوء وأصدقاء السوء والحرص على مجالس الطاعة وإخوان الصدق .
٣) وجوب النهي عن المنكر فالراضي كالفاعل والمستمع كالقائل.
٤) الحرص على طهارة المجتمع وترابط أفراده .

---

(١) تفسير القرطبي ٦١٥٦/٩ .

فضل الدعاء

عن أبى موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء : (اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير) .

تخريج الحديث

أ - البخاري كتاب الدعوات باب قول النبي ﷺ : اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ١١/١٩٩ رقم ٦٣٩٨ ورقم ٦٣٩٩ .

ب - مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب في الأدعية ٤/٢٠٨٧ رقم ٢٧١٩ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الإمام الكبير والصحابي الجليل عبد الله بن قيس بن سليم أبو موسى الأشعري الفقيه المقرىء أسلم قديماً بمكة ثم رجع إلى بلاد قومه فظل يدعوهم إلى الإسلام ثم قدم المدينة بعد فتح خيبر وقد صادفت سفينته سفينة جعفر بن أبي طالب القادمة من الحبشة فقدموا جميعاً .

استعمله النبي ﷺ على اليمن واستعمله عمر على البصرة وعثمان على الكوفة ثم كان أحد الحكمين بين علي ومعاوية بصفين ثم اعتزل الفريقين .

شهد خيبر وما بعدها وجاهد مع النبي ﷺ حتى توفَّاه الله وقرأ عليه القرآن وحمل عنه علماً كثيراً حتى إنه كان يُفتي في حياته .

قال صفوان بن سليم: لم يكن يفتي في المسجد زمن رسول الله ﷺ غير هؤلاء : عمر وعلي ومعاذ وأبي موسى (١) . وكان أحد قضاة الأمة ، قال الشعبي : قضاة الأمة : عمر وعلي وزيد وأبو موسى (٢).

ولم يكن في الصحابة أحدٌ أحسن صوتاً منه فعن بريدة بن الحصيب قال : خرجت ليلةً من المسجد فإذا بالنبيﷺ عند باب المسجد قائم وإذا رجل يصلّي فقال لي : " يا بريدة أتراه يرائي " ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : " بل هو مؤمن منيب لقد أعطي مزماراً من مزامير آل داود " فأتيته فإذا هو أبو موسى فأخبرته (٣) .

قال أبو عثمان النهدي : ما سمعت مزماراً ولا طنبوراً ولا صنجاً أحسن من صوت أبي موسى إن كان ليصلي بنا فنودُّ أنه قرأ البقرة (٤) .

ولذلك كان سيدنا عمر إذا جلس عنده أبو موسى يقول له : ذكِّرنا ربنا أو شوّقنا إلى ربنا فيقرأ عنده (٥) .

وكان إذا قرأ اجتمع عليه الرجال والنساء لحسن صوته ، فعن أنس أن أبا موسى قرأ ليلةً فقمن أزواج النبي ﷺ يستمعن لقراءته فلما أصبح أخبرته بذلك فقال : لو علمت لحبرت تحبيراً ولشوقت تشويقاً ، وكان أبو موسى صوّاماً قوّاماً

(١) سير أعلام النبلاء ٣٨٩/٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٨٩/٣ .

(٣) البخاري كتاب فضائل القرآن باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن ٧٠٩/٨ رقم ٥٠٤٨ ، مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٥٤٦/١ رقم ٧٩٣ .

(٤) طبقات ابن سعد ١٣٠/٤ .

(٥) طبقات ابن سعد ١٣٢/٤ .

ربَّانياً زاهداً عابداً ممن جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر لـم تغيِّـره الإمارة ولا غيَّرته الدنيا (١) .

ومناقبه وفضائله كثيرة فعنه أن رسول الله ﷺ قال : " اللهم اغفر لعبد الله ابن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً " .(٢) وعنه قـال : كنـت عنـد رسول الله ﷺ بالجعرانة – مكان بين مكة والطائف – فأتى أعرابي فقـال : ألا تنجز لي ما وعدتني ؟ قال : " أبشر " قال : قد أكثرت من البشرى فأقبل رسول الله ﷺ عليّ وعلى بلال فقال : " إن هذا قد ردّ البشرى فاقبلا أنتما " فقالا : قبلنا يا رسول الله فدعا بقدحٍ فغسل يديه ووجهه فيه ومجّ فيه ثم قال : " اشربا منـه وأفرغا على رؤوسكما ونحوركما " ففعلا فنادت أم سلمة وراء الستر أن فضّـلا لأمكما فأفضلا لها منه (٣).

وسُئل عنه علي بن أبي طالب فقال : صُبغ فى العلم صبغة (٤) .

وقال الحسن البصري : ما قدم الكوفة راكبٌ خير لأهلها من أبي موسى(٥) وقال الأسود بن يزيد لم أر بالكوفة أعلم من علي وأبي موسى (٦) .

ظلّ أبو موسى يُعلِّم ويُقرىء وكان هو الذي فقّه أهل البصـرة وأقـرأهم القرآن فلما شعر بدنو أجله اجتهد في العبادة اجتهاداً شديداً وكـان لا يُـرى إلا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٩٦/٣ .

(٢) البخاري كتاب المغازي باب غزوة أوطاس ٦٣٧/٧ رقم ٤٣٢٣ ، مسلم كتاب الفضائل باب من فضائل أبي موسى ١٩٤٣/٤ رقم ٢٤٩٨ .

(٣) البخاري كتاب المغازي باب غزوة الطائف ٦٤٢/٧ رقم ٤٣٢٨ ، مسلم كتاب فضائل الصـحابة بـاب مـن فضائل أبي موسى ١٩٤٣/٤ رقم ٢٤٩٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٣٨٨/٣ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٣٨٩/٣ .

(٦) سير الأعلام ٣٨٨/٣ .

صائماً فقيل له : لو أمسكت ورفقت بنفسك فيقول : إن الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلي أقلّ من ذلك [١] .

روى أبو موسى عن النبي ﷺ ثلاثمائة وستون (٣٦٠) حديثاً اتفق الشيخان على تسعة وأربعين(٤٩) حديثاً منها وانفرد البخاري بأربعة (٤) أحاديث ومسلم بخمسة عشر (١٥) حديثاً وكان إماماً ربَّانياً .

روى الحديث أيضاً عن : الخلفاء الأربعة وابن مسعود ومعاذ وأُبي بن كعب وعمار وغيرهم وروى عنه كثير من الصحابة منهم : بريدة بن الحصيب وأبو أمامة الباهلي وأبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وطارق بن شهاب وغيرهم وروى عنه خلقٌ كثير من التابعين منهم : سعيد بن المسيب والأسود بن يزيد وزر بن حبيش وابنه أبو بردة وأبو عثمان النهدي وخلق كثيرغيرهم . توفي سنة أربعٍ وأربعين وقد جاوز الستين من عمره .

معاني المفردات

اغفر : أصل الغفر التغطية يقال : غفر الله لك غفراناً ومغفرة .

والمغفرة : إلباس الله تعالى العفو للمذنبين ,ومن أسمائه تعالى : الغفور والغفار ومعناهما : الساتر لذنوب عباده وعيوبهم المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم .

خطيئتي : الخطيئة هي المعصية والذنب وكذا يُقال لمن فعل غير الصواب أخطأ يقال أخطأ يُخطيء إذا سلك سبيل الخطأ عمداً أو سهواً .

إسرافي : الإسراف هو مجاوزة الحد فى كل شيء وغالباً ما يُقصد به : الإكثار من الذنوب والخطايا .

---

[١] سير الأعلام ٣٩٣/٣ .

جدي : الجد بكسر الجيم : ضد الهزل يقال جَدَّ يَجِدُ جداً .

هزلي : الهزل ضد الجد والهزل واللعب من واد واحد .

كل ذلك عندي : أى موجود أو ممكن الوجود .

المعنى الإجمالي للحديث

يعلمنا النبي ﷺ فى هذا الحديث كيف ندعو الله عز وجل ويلفت نظرنا إلى أهمية الدعاء وفضله وكثرة ثوابه وأجره فيختار الجوامع من الدعاء ويسأل ربه عز وجل الخير كله عاجله وآجله ويستعيذه من الشر كله عاجله وآجله ويستغفره من جميع ذنوبه الظاهرة والباطنة .

وكان النبي ﷺ يكثر من الدعاء بالليل والنهار فى السر والعلن بحيث جعل لكل حركةٍ ذكراً وفى كل وقتٍ دعاءً فى الصلاة وغيرها يستشعر معية الله وقربه ومنه فيدعوه تضرعاً وخفية ورغبة ورهبة ورجاءً وخوفاً ويعترف بين يديه بعبوديته وجهله وتقصيره وسهوه وهذا مطلق الحرية بالنسبة للإنسان فكلما استغرق فى عبوديته لربه كلما سما بها فى مدا رج الكمال ومراقي الحرية فيدعو ربه أن يغفر له جميع ذنوبه التي وقعت منه عمداً أو سهواً بعلمٍ أو بجهل جداً أو هزلاً سراً أو علناً مع أن الله عز وجل وعده أن يغفر لهَ جميع ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ولكنه يدعو ربه لأن الدعاء عبادة وهو سلاح المؤمن وتعليماً لأفراد الأمة وإرشاداً لهم لطريق النجاة والنجاح فكل ذنب مُتوقع صدوره من العبد الجاهل الضعيف ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ [1] .

والعفو والمغفرة مرجوَّة من الخالق الرحمن الكريم فيعلم النبيﷺ المسلم أن يدعو ربه أن يغفر له ذنوبه كلها ما تقدم منها وما تأخر ما ظهر منها وما

---

[1] الأحزاب :٧٢ .

استتر فكل ذلك بقدر الله وهو عالم به أحصته ملائكته وهو غير خارج عن نطاق قدرته فهو المُقدِّم والمُؤخِّر وهو على كل شيء قدير لا رادَّ لحكمه ولا يكون في ملكه إلا ما يُريد يغفر الذنب ويقبل التوبة ويستجيب دعاء عباده يجبر ضعفهم ويرحم عجزهم ويتجاوز عن خطاياهم ويعفو عن زللهم وتقصيرهم متى أقبلوا عليه واعترفوا بالتقصير بين يديه وهو الرحمن الرحيم .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

المسلم يعلم أن الله خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وهو أعلم به من نفسه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [١] وهو أرحم بعبده من ولده ووالده ومن الناس أجمعين وهو اقرب إليه من نفسه وهو معه أينما كان ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [٢] ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [٣] والإنسان صنعته يتعهده بالرعاية والعناية والهداية والإرشاد فيقبل المسلم على ربه بقلبه ولسانه بجوارحه كلها فيُكثر من ذكره والابتهال والتضرع إليه يسأله الخير ويستعيذ ه من الشر يسأله من فضله ويستعيذ ه من غضبه وعقابه ونقمته وشرور خلقه فهو يملك خزائن كل شيء ولا تعوق قدرته شيء أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

والله يُحبُّ أن يسمع صوت عبده ذاكراً وداعياً مثنياً وحامداً ولذلك أرشده لذلك ودلَّه عليه فقال لرسوله ﷺ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ

---

(١) الملك : ١٤ .

(٢) طه : ٧ .

(٣) غافر : ١٩ .

دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [١] ولذلك كان من أحب عباد الله إليه أكثرهم له سؤالاً ومن أبغض عباده إليه من استكبر عن سؤاله فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " من لم يدع الله عز وجل غضب عليه " [٢] وقال الشاعر :

الله يغضب إن تركت سؤاله ** وبني آدم حين يُسأل يغضب

وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى أهميته وفضله فقال : " ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء " [٣] ، وقال : " إن الدعاء هو العبادة " [٤] ثم قرأ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [٥] وهذا فضل من الله ونعمةٍ كبرى على هذه الأمة .

قال كعب الأحبار : أُعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطهن أمة قبلها إلا نبي كان إذا أرسل نبي قيل له : أنت شاهد على أمتك وقال تعالى لهذه الأمة : ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [٦] وكان يُقال لكل نبي ليس عليك في الدين من

---

[١] البقرة : ١٨٦ .

[٢] أحمد في المسند ٢٩٢/٩ رقم ٩٦٨٠ وإسناده صحيح ، وابن ماجة كتاب الدعاء باب فضل الدعاء ١٢٥٨/٢ رقم ٣٨٢٧ .

[٣] أحمد في المسند ٤٠٧/٨ رقم ٨٧٣٣ وإسناده صحيح ، الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء ٢٤٣/٥ رقم ٣٣٨١ .

[٤] أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء٧٧/٢ رقم ١٤٧٩ ، الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء ٢٤٤/٥ رقم ٣٣٨٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

[٥] غافر : ٦٠ .

[٦] البقرة : ١٤٣ .

حرج وقال لهذه الأمة ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [١] وكان يقول للنبي : ادعني أستجب لك وقال لهذه الأمة : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [٢] .

وقد أمر الله عباده أن يسألوه ووعدهم الإجابة وحذَّرهم من ترك سـؤاله فهو مدعاة لغضب الله عليهم وفى الحديث : " سلوا الله تعالى من فضله فإن الله تعالى يحب أن يُسئل " [٣] ، وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " الـدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض " [٤] .

ولذلك قال الإمام النووي : المذهب المختار الذي عليه الفقهاء والمحدثون وجماهير العلماء من الطوائف كلها من السلف والخلف أن الدعاء مستحب [٥] .

الفائدة الثانية :

الدعاء سلاح ولابد للسلاح من شروط حتى يكون نافذاً فمتـى اسـتكمل الدعاء شروطه وآدابه كان مأمول الإجابة ومن أهم هذه الشروط :-

(١) أن يكون الداعي طيب المطعم والملبس وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقاص : " يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة " [٦] وقد ذكر الرسول ﷺ " الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر

---

[١] الحج : ٧٨ .

[٢] غافر : ٦٠ .

[٣] الترمذي كتاب الدعوات باب فى انتظار الفرج وغير ذلك ٥/٣٣٣ رقم ٣٥٨٢ ، وقال العجلونى : حسـن إسناده الحافظ ابن حجر فى بعض حواشيه كشف الخفاء ١٨٧/١ .

[٤] أبو يعلى فى مسنده١/٣٤٤ رقم ٤٣٩ ، الحاكم فى المسـتدرك ٦٦٩/١ رقـم ١٨١٢وصـححه ووافقـه الذهبي

[٥] الأذكار ص ٤٦٩ .

[٦] الطبراني في المعجم الأوسط ٣١١/٦ رقم ٦٤٩٥ ، وقال الهيثمي : رواه الطبراي في الصغير وفيه من لـم أعرفهم مجمع الزوائد ٢٩١/١٠ وقال ابن رجب الحنبلى : في اسناده نظر .

يمد يديه إلى السماء يقول : يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشـــربه حرام فأنَّى يستجاب له " [١] أي فكيف يُستجاب له وحالته هذه .

(٢) أن لا يشتمل دعاؤه على إثم أو قطيعة رحم ، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : " ما من مسلم يــدعو بــدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له فى الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا : إذاً نُكثر قال : الله أكثر " [٢].

(٣) عدم استبطاء الإجابة ففي الحديث : " يُستجاب لأحدكم ما لم يعجــل فيقول : قد دعوتُ فلم يُستجب لي فإذا دعوتَ فاسأل الله كثيراً فإنك تدعو كريماً " [٣].

وللدعاء أيضاً آداب يحسن اتباعها والحرص عليها من أهمها :-

أ- الحرص على الدعاء فى الأوقات الشريفة والأزمنة الفاضلة كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأســبوع ووقــت السحر من ساعات الليل وقد ثبت ذلك فى الأحاديث .

ب- اغتنام الأحوال الشريفة والساعات التي يشعر فيها العبد بصفاء القلب ورقته وقربه من ربه ومن هذه الحالات :-

---

[٧] مسلم كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ٧٠٣/٢ رقم ١٠١٥ .

[٢] أحمد فى المسند ٥٩/١٠ رقم ١١٠٧٥ ، والترمذي كتاب الدعوات باب استجابة الدعاء فى غيــر قطيعــة ٣٤٧/٥ رقم ٣٦١٨ من طريق أبى هريرة وحديث أبى سعيد حسن .

[٣] البخاري كتاب الدعوات باب يُستجاب للعبد ما لم يعجل ١٤٥/١١ رقم ٦٣٤٠ ، مسلم كتاب الذكر والدعاء باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول : دعوت فلم يستجب لي ٢٠٩٥/٤ رقم ٢٧٣٥ .

- عند نزول المطر وساعة زحف الصفوف للقتال وعند إقامة الصلوات المكتوبات فعن أبى هريرة قال : " إن أبواب السماء تُفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله تعالى وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات المكتوبات فاغتنموا الدعاء فيها " [1] .

- الدعاء بين الأذان والإقامة ففى الحديث " الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد " [2] ودعاء الصائم حين فطره وفى الحديث " الصائم لا ترد دعوته " [3]، وعند السجود وفى الحديث : " أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثر فيه من الدعاء " [4]، وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : " وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قمن - أى حري وجدير - أن يستجاب لكم " [5]، وخلف الصلوات قال مجاهد : " إن الصلاة جعلت فى خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصلوات " [6] .

ج - أن يدعو مستقبل القبلة وأن يرفع يديه فعن سلمان قال : قال رسول الله ﷺ : " إن ربكم حيي كريم يستحي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه

---

(1) إحياء علوم الدين ٢٦٨/١ .

(2) أبو داود كتاب الصلاة باب ما جاء فى الدعاء بين الأذان والإقامة ١٤١/١ رقم ٥٢١ ، الترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء فى أن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة ٢٥٤/١ رقم ٢١٢ وقال : حديث حسن .

(3) أحمد فى المسند ٤١١/٩ رقم ١٠١٣٦ ، وأخرجه الترمذي بنحوه كتاب صفة الجنة باب ما جاء فى صفة الجنة ونعيمها ٢٣٦/٤ رقم ٢٥٣٤ .

(4) مسلم كتاب الصلاة باب ما يقال فى الركوع والسجود ٣٥٠/١ رقم ٤٨٢ .

(5) مسلم كتاب الصلاة باب النهى عن قراءة القرآن فى الركوع والسجود ٣٤٨/١ رقم ٤٧٩ .

(6) إحياء علوم الدين ٢٦٨/١ .

أن يردها صفراً " (١). وعن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه فى الدعاء (٢) ثم يمسح بهما وجهه آخر الدعاء وقد جاءت فى ذلك آثار ولكنها ضعيفة .

د - خفض الصوت عند الدعاء بحيث يكون بين الجهر والمخافتة قال تعالى : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ (٣).

ولما رفع الصحابة أصواتهم بالذكر قال لهم رسول الله ﷺ : " أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً تدعون سميعاً بصيراً قريباً " (٤)، ومرَّ بعض الصالحين برجل يرفع صوته بالدعاء فقال له : " كن كزكريا ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ (٥).

هـ - عدم التكلف فى الدعاء والتضرع والخشوع والرغبة والرهبة والدعاء بلسان الذل والافتقار والمسكنة والانكسار ، قال ابن عباس : انظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت أصحاب رسول الله ﷺ لا يفعلون ذلك (٦)، وقال بعض السلف : ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق ومرَّ بعض السلف بقاصٍ يدعو بسجع فقال

---

(١) أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء ٧٩/١ رقم ١٤٨٨ ، الترمذي كتاب الدعوات باب فى دعاء النبي ﷺ ٣٢٦/٥ رقم ٣٥٦٧ وحسنه .

(٢) البخاري كتاب الدعوات باب رفع الأيدي فى الدعاء ١١/ ١٤٦ رقم٦٣٤١ ، مسلم كتاب صلاة الاستسقاء باب رفع اليدين بالدعاء فى الاستسقاء ٦١٢/٢ رقم ٨٩٥ .

(٣) الأعراف : ٥٥ .

(٤) البخاري كتاب الجهاد والسير باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير ١٥٧/٦ رقم ٢٩٩٢ ، مسلم كتاب الذكر والدعاء باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٢٠٧٦/٤ ٢٧٠٤ .

(٥) مريم : ٣ .

(٦) البخاري كتاب الدعوات باب ما يكره من السجع في الدعاء ١٤٢/١١ رقم ٦٣٣٧ .

له : أعلى الله تبالغ ؟ أشهد لقد رأيت حبيباً العجمي يدعو وما يزيد على قوله : اللهم اجعلنا جيدين اللهم لا تفضحنا يوم القيامة اللهم وفِّقنا للخير والناس وراءه يدعون من كل ناحية وكان يُعرف بركة دعائه [1] .

و – أن يجزم الدعاء ويُوقن بالإجابة ولا يستعظم على الله شيء وفي الحديث " لا يقل أحدكم إذا دعا : اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني أن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له " [2] ، وفي الحديث أيضاً : " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاءً من قلب غافل " [3] ، وقال سفيان بن عيينة : لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله إذ قال : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [4].

ز – تكرير الدعاء والإلحاح على الله ومداومة قرع الباب فإن من داوم على قرع الباب أوشك أن يُفتح له وعن ابن مسعود قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً [5].

---

(١) إحياء علوم الدين ٢٧٠/١ .

(٢) البخاري كتاب الدعوات باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له ١٤٤/١١ رقم ٦٣٦٩ ، مسلم كتاب الذكر والدعاء باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت ٢٠٦٣/٤ رقم ٢٦٧٩ .

(٣) الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء في جامع الدعوات عن النبي ﷺ ٢٩٢/٥ رقم ٣٤٩٠ ، وأحمد في المسند ٢١٣/٦ رقم ٦٦٥٥ وإسناده صحيح .

(٤) الأعراف : ١٤ ، ١٥ .

(٥) مسلم كتاب الجهاد والسير باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٤١٨/٣ رقم ١٧٩٤ .

ح – أن يستفتح الدعاء بحمد الله تعالى والثناء عليه ثم يُصلِّى على نبيه محمد ﷺ ثم يدعو بعد بما شاء فإذا فرغ صلَّى على النبي محمد ﷺ فعن فضالة بن عبيد قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو فى صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصلّ على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : " عجل هذا " ثم دعاه فقال له أو لغيره " إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه والثناء عليه ثم يصلى على النبي ﷺ ثم يدعو بعد بما شاء " [1].

ط – التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل بهمةٍ عالية ونفسٍ مشرقة صافية والاعتراف بالذنب والتقصير إخلاص التوجه إلى الله .

ك – الإكثار من الدعاء فى السرَّاء والرخاء حتى يستجيب الله للعبد عند الضيق والضراء فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " من سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد فليُكثر من الدعاء فى الرخاء " [2].

ل – اختيار الجوامع من الكلام عند الدعاء والحرص على الدعاء بالمأثور وتحري الدعاء بأسماء الله الحسنى عامة والاسم الأعظم خاصة فعن عائشة قالت : " كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك " [3]، وفى الحديث أن رجلاً جاء للنبي ﷺ فقال : يا رسول الله كيف أقول حين أسأل ربى ؟ قال : " قل : اللهم اغفر لي

---

[1] أحمد فى المسند ١٧٧/١٧ رقم ٢٣٨٢١ ، الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء فى جامع الدعوات عن رسول الله ﷺ ٢٩١/٥ رقم ٣٤٨٨ وقال : حديث حسن صحيح .

[2] الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ٢٢٨٤٨/٥ رقم ٣٣٩٣ وحسنه .

[3] أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء ٧٨/٢ رقم ١٤٨٢ ، أحمد فى المسند بنحوه ٥٢٧/١٧ رقم ٢٥٠٣٠ وإسناده صحيح .

وارحمني وعافني وارزقني فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك "(١) ، وعن بريدة أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال : " لقد سألت الله تعالى بالاسم الذي إذا سُئل به أعطى وإذا دُعي به أجاب " (٢) ، وفى رواية قال : " لقد سألت الله باسمه الأعظم " (٣).

وعن أنس أنه كان عند رسول الله ﷺ جالساً ورجل يُصلِّى ثم دعا اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم فقال النبي ﷺ : " لقد دعا الله تعالى باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى " (٤).

م – طلب الدعاء من أهل الفضل والصلاح ومن يتوسم الإنسان فيهم التقوى والإخلاص فعن عمر ابن الخطاب قال : استأذنت النبي ﷺ فى العمرة فأذن وقال : " لا تنسنا يا أخي من دعائك " فقال كلمةً ما يسرني أن لي بها الدنيا (٥).

وفى رواية أنه قال : أشركنا يا أخي فى دعائك (٦).

---

(١) مسلم كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٢٠٧٣/٤ رقم ٢٦٩٧ .

(٢) أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء ٨٠/٢ رقم ١٤٩٣.

(٣) أحمد فى المسند ٤٧٨/١٦ رقم ٢٢٨٤٨ ، الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء فى جامع الدعوات عن النبي ﷺ ٢٩٠/٥ رقم ٣٤٨٦ وحسنه .

(٤) أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء ٨٠/٢ رقم ١٤٩٥ ، الترمذي كتاب الدعوات باب خلق الله مائة رحمة ٣٢٠/٥ رقم ٣٥٥٥ .

(٥) أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء ٨١/٢ رقم ١٤٩٨ ، والترمذي كتاب الدعوات فى دعاء النبي ﷺ ٣٢٩/٥ رقم ٣٥٧٣ وقال : حديث حسن صحيح .

(٦) أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء ٨١/٢ رقم ١٤٩٨ .

الفائدة الثالثة :

المسلم يعلم أن الله فرغ من كتابة الأقدار وجفَّت الأقلام وطويت الصحف وما من شيء كائن إلا وقدَّر الله كيف يكون ولا يتخلف من ذلك شيء ولذلك قد يقول البعض : فما فائدة الدعاء إذا كان القضاء لا يُـردّ والمكتـوب لا يتغيـر والمقدر حتم فنقول : إن الله قدَّر القضاء وجعل من جملة القضـاء رد الـبلاء بالدعاء فالدعاء من أسباب رد البلاء ووجود الرحمة كما أن الدرع سبب لـدفع السلاح والماء سبب لخروج النبات من الأرض والدواء سبب لشـفاء المـريض وكما أن الدرع يدفع السهم فيتدافعان فيغلب الأقوى فكذلك الدعاء والبلاء .

وكما أنه ليس من شرط الاعتراف بالقضاء والتسليم بالقدر أن لا يحمـل السلاح وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ (١).

فكذلك ليس من شرط التسليم للقضاء ترك الدعاء لأنه من جملة الأسـباب التي قدَّرها الله لدفع البلاء فالله قدَّر الأمور وقدَّر أسبابها ولذلك قال عمـر بـن الخطاب لمن قال له : أتفر من قدر الله ؟ فقال له : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله (٢) .

وفى الحديث : " إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عبـاد الله بالدعاء " (٣).

ويُمكن أن يُقال : إن الدعاء من جملة العبادة لمـا فيـه مـن الخضـوع والافتقار ومن فوائد الدعاء أيضاً : تحصيل الثواب بامتثال الأمر ومناجاة الرب.

---

(١) النساء : ١٠٢ .

(٢) البخاري كتاب الطب باب ما يذكر فى الطاعون ١٠/١٨٩ رقم ٥٧٢٩ ، مسلم كتاب السلام بـاب الطـاعون والطيرة والكهانة ونحوها ٤/١٧٤٠ رقم ٢٢١٩ .

(٣) أحمد فى المسند ١٦/١٧٧ رقم ٢١٩٤٣ ، الترمذي كتاب الدعوات باب فى دعاء النبي ﷺ ٥/٣٥٥٩ رقم ٣٥٥٩ .

قال ابن الجو زى : اعلم أن دعاء المؤمن لا يُردّ غير أنه قد يكون الأولى لـه تأخير الإجابة أو يُعوَّض بما هو أولى له عاجلاً أوآجلاً فينبغـي للمـؤمن أن لا يترك الطلب من ربه فإنه متعبد بالدعاء كما هو متعبد بالتسليم والتفويض (١).

الفائدة الرابعة :

يقول بعض المسلمين إننا ندعو الله فلا يُستجاب لنا وقد قال الله تعـالى : ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ (٢) فلو كانت الآية على ظاهرها لم تتخلـف الإجابـة والجواب عن ذلك أن يُقال : إن الله يستجيب كل الدعاء متى استكمل شـروطه ولكن صور الإجابة تتنوع فقد يدعو الإنسان بإثم أو قطيعة رحم أو يدعو علـى نفسه أو على أولاده أو يدعو بالشر من حيث لا يحتسب ﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولاً ﴾ (٣) .

فيكون من رحمة الله ولطفه أن لا يستجيب لعبده ولكن الله لا يحرم عبده إذا دعاه من خير فإما أن يجيبه بجنس ما دعا إليه وإما أن يصرف عنه من البلاء أو يُعطى عوضاً له وإما أن يُدَّخر له فى الآخرة وقد سبق ذلك فى الحديث فمتى استكمل الدعاء شروطه كان حرياً بالإجابة ومتى تخلَّفت الشروط والآداب لم يتجاوز لسان الداعي ولم يترتب عليه خير .

قال ابن عطاء الله السكندري : إن للدعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتـاً فإن وافق أركانه قوي وإن وافق أجنحته طار إلى السماء وإن وافق مواقيته فاز

---

(١) فتح الباري ١٤٥/١١ .

(٢) غافر : ٦٠ .

(٣) الإسراء : ١١ .

وإن وافق أسبابه نجح فأركانه : حضور القلب والخشوع وأجنحته : الصدق ومواقيته : الأسحار وأسبابه : الصلاة على النبي ﷺ [١] .

ويُحكى فى ذلك أن إبراهيم بن أدهم مرَّ بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا له : يا أبا إسحاق ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ قال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء :-

الأول : أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه .

الثاني : زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سنته .

الثالث : قرأتم القرآن ولم تعملوا به .

الرابع : أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها .

الخامس : قلتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه .

السادس : قلتم إن الجنة حق فلم تعملوا لها .

السابع : قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها .

الثامن : قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له .

التاسع : انتبهتم من النوم فاشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم .

العاشر: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم . [٢]

---

[١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١-٦٨٧ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١-٦٨٧ .

الفائدة الخامسة :

فى قول النبي ﷺ : " اللهم اغفر لي خطئي وعمدي وجهلي وجدي وكل ذلك عندي " ما يُفيد وقوع الخطأ من النبي ﷺ وهو معصوم منه فكيف نفهم ذلك .

نقول إن الخطأ بمعنى مجانبة الصواب وفعل غير الأكمل مُتصوَّر وقوعه من النبي ﷺ بل قد يحدث فعلاً كما فى قصة أسارى بدر وإذنه للمنافقين بالتخلف عن الغزو وتحريمه لنسائه

ولكن الله لا يُقرُّه على خطأ بل يُصوِّبه له ، أما الخطأ بمعنى الذنب والمعصية فمذهب جمهور العلماء أن الأنبياء جميعاً معصومون من الذنوب جميعها صغيرها وكبيرها قبل النبوة وبعدها ولكنهم نظراً لقربهم من ربهم ومعرفتهم به وخشيتهم منه قد يعتبرون المباح فى حق غيرهم ذنباً لهم فيستغفرون منه وفى الحديث : " إني ليغان على قلبى حتى أستغفر الله أكثر من سبعين مرة " [١] .

قال ابن بطال : الأنبياء أشد الناس اجتهاداً فى العبادة لما أعطاهم الله تعالى من المعرفة فهم دائبون فى شكره معترفون له بالتقصير .

ويُمكن أن يُقال : يحتمل أن يكون النبي ﷺ لاشتغاله بالأمور المباحة من أكل أو شرب أو جماع أو نوم أو راحة أو مخاطبة الناس والنظر فى مصالحهم ... الخ مما يحجبه عن الانشغال بذكر الله والتفرغ إليه ومشاهدته ومراقبته فيرى ذلك ذنباً بالنسبة إلى المقام العلي وهو الحضور فى حظيرة القدس .

---

[١] مسلم كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٢٠٧٥/٤ رقم ٢٧٠٢ .

ويُمكن أن يُقال : إن صدور مثل هذا القول من النبي ﷺ إنما يُريد به التشريع لأمته والتعليم لها وإرشادها إلى طريق النجاة .

قال ابن الجوزى : هفوات الطباع البشرية لا يسلم منها أحدٌ والأنبياء وإن عُصِموا من الكبائر فلم يُعصموا من الصغائر .

والراجع عند جمهور العلماء عصمتهم من الكبائر والصغائر جميعاً .

وقال الحارث المحاسبي : الملائكة والأنبياء أشد لله خوفاً ممن دونهم وخوفهم خوف إجلال وإعظام واستغفارهم من التقصير لا من الذنب المحقق (١) .

وقال القاضي عياض : يُحتمل أن يكون ذلك على سبيل التواضع والاستكانة والخضوع والشكر لربه لما علم أنه قد غفر له (٢) .

وقال القرطبى : وقوع المعصية من الأنبياء جائز لأنهم مكلَّفون فيخافون وقوع ذلك ويتعوَّذون منه وعلى هذا فيكون قوله " وكل ذلك عندي " أى : ممكن الوقوع عندي قال : ودليل صحة ذلك أنهم مكلَّفون باجتناب المعاصي كلها كغيرهم فلولا صحة إمكان الوقوع لما صح التكليف وقال : هذه التعويذات وهذه الدعوات والتضرُّعات قيامٌ بحق وظيفة العبودية واعترافٌ بحق الربوبية ليقتدي بهم مذنبو أممهم ويسلكوا مناهج سبلهم فتستجاب دعواتهم وتقبل توبتهم (٣).
وعلى كل حال فالنبي ﷺ مغفورٌ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كما أخبره الله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ

---

(١) فتح الباري ٢٠٢/١١ .

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض ٢١٤/٨ .

(٣) المفهم ٤٧/٧ ، ٤٨.

﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [(١)] . فدعا بهذا وغيره تواضعاً لربه وحباً لمناجاته لأن الدعاء عبادة وهذا إرشاد لأمته أيضاً وتعليم لهم .

الفائدة السادسة :

يُستحب للعبد أن يدعو الله بأسمائه الحسنى قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [(٢)] وأسماء الله الحسنى نوعان : نوع متفرد مثل : الملك القدوس السلام ونوع مزدوج مثل : الأول والآخر والظاهر والباطن والمعز والمذل وغيرها فالأفضل أن لا تُقال هذه الأسماء مُفردة بل تُقال مزدوجة كما وردت فى القرآن فلا يُقال : يا خافض حتى يضم إليها يا رافع وقد دعا النبيﷺ ربه بأسمائه الحسنى فى هذا الحديث فقال : " أنت المقدم وأنت المؤخر " ومعنى المقدم أى : المقدم لمن شئت بالتوبة والولاية والطاعة والمؤخر لمن شئت بضد ذلك والأولى أن يُقال : إنه تعالى مقدّم كل مقدّم فى الدنيا والآخرة ومؤخّر كل مؤخّر فى الدنيا والآخرة فالله سبحانه وتعالى يُقدِّم من يشاء من خلقه إلى رحمته بتوفيقه ويُؤخر من يشاء عن ذلك بخذلانه .

الدروس المستفادة من الحديث

١. فضيلة الدعاء وأهميته وعظيم أجره وأنه من أفضل العبادات .
٢. للدعاء شروط وآداب يحرص عليها المسلم حتى يُستجاب دعاؤه .
٣. ضرورة التوبة والاستغفار من الذنوب الظاهرة والباطنة .
٤. النبي ﷺ أعرف الناس بربه وأكثرهم خشية له ومعرفه به وبعظيم جنابه ولذلك دلنا على طريق القرب منه وهو دعاؤه ومناجاته .
٥. الأنبياء جميعاً معصومون من الذنوب كلها كبيرها وصغيرها وما وقع منهم مما ينافى ذلك إنما هو من قبيل ترك فعل الأولى وفعل ما دون الكمال لأنهم أفضل البشر وأكملهم .

---

(١) الفتح : ٢ .
(٢) الأعراف : ١٨٠ .